سلسلة النبي والعترة

إني فاطمة وأبي محمد

تأملات في خطبة الزهراء عليها السلام وبعض شؤونها

فوزي آل سيف

دار المحجة البيضاء

إنِّي فاطمة وأبي محمَّد

تأملات في خطبة الزهراء عليها السلام
وبعض شؤونها

الرويس - خلف محفوظ ستورز بناية رمال

هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - ٠١/٥٤١٢١١
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com / info@daralmahaja.com

إنِّي فاطمة وأبي محمَّد

تأملات في خطبة الزهراء عليها السلام وبعض شؤونها

فوزي آل سيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة
الطبعة الثالثة

بحمد الله فقد تمت طباعة هذا الكتاب قبل نحو سنة من كتابة هذه السطور، وبفضله تعالى لقي الكتاب قبولًا ممن قرأه وعلى أثر ذلك تكفل بعض الإخوة المؤمنين الفضلاء في أستراليا جزاهم الله خيرًا بطباعة طبعة ثانية منه، وعندما اقتربت أيام الفاطمية، الرواية الثانية (جمادى الأول 1443) فكرت في أنني ما دمت سألقي فيها على المؤمنين بعض المحاضرات (5 ليال) فليكن ذلك في صلب سيرتها الشريفة، من ما قبل الميلاد إلى الاستشهاد.. وهذا ما حصل فقد كتبت نصف تلك السيرة قبل البدء في هذه المحاضرات، وأكملت الباقي بعد ذلك، وأضفت إليها موضوعين يكثر النقاش فيهما أحدهما يرتبط بكلمات الزهراء لأمير المؤمنين بعد الخطبة، والثاني يرتبط بالجواب عن ما قيل من موقف الإمام عليّ في عدم دفع المهاجمين على بيته وأهله.

وحرصت ألّا يكون مفصلًا وكبيرًا، ويخرج الكتاب عن وضعه وحجمه ضمن سلسلة السيرة، فجاء بهذا النحو. أسأل الله سبحانه أن يرزقنا ـ والقارئ الكريم ـ شفاعة الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها عليهم السلام جميعًا.

فوزي ابن المرحوم
محمد تقي آل سيف
تاروت ـ القطيف
1443/5/23هـ

مقدِّمة

كانت هذه الصفحات راقدة منذ العام الماضي أيام الفاطمية 1441هـ، وكنت قد جمعتها حينذاك لإعادة صياغتها فحالت حوائل وشغلت شواغل وتحقق ما في المثل «في التأخير آفات» واستمر الحال هكذا إلى ما قبل نحو شهر من الزمان حين أرسلت إلى أحد السادة من العلماء الفضلاء رابط مقطع صوتي عن سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، فاتصل بي بعد ذلك وقال: لماذا لا تجمع هذه المحاضرات وتعيد صياغتها حتى تكون الفائدة عامة وأثنى ـ بمقدار حسن ظنه وطيبة نفسه ـ على تلك المحاضرة وحرّض ما استطاع على الموضوع، فكان أن قدح زناد العزم عندي من جديد على إعادة النظر فيها وهو ما حصل حتى صارت هذه الصفحات بين يديك.

أورد هذه الحادثة للتأكيد على ملاحظتين: **الأولى** الدور السيء للتأخير في إتلاف عمل الخير، وأدعو من خلالها إخواني وأخواتي إلى عدم الإصغاء للتبريرات التي تساق لتأخير العمل ولو

بعناوين ظاهرها مقبول فقد يكون تأخير عمل الخير يعني تضييعه أحيانًا كثيرة وقد وردت أحاديث في هذا المعنى؛ منها قول أمير المؤمنين عليه السلام «بادروا بعمل الخير قبل أن تشغلوا عنه بغيره» وقول الإمام الباقر عليه السلام «من همَّ بشيء من الخير فليعجّله فإن كل شيء فيه تأخير فإن للشيطان فيه نظرة» واشتهر قول الشاعر:

قدم جميلًا إذا ما شئت تفعله ولا تؤخر ففي التأخير آفاتُ

والثانية: الدور البنّاء والرائع لكلمة التشجيع والتحريض، بعكس الدور الهدام لكلمات التثبيط حتى لو كانت على صورة (لكن) فكم قتلت هذه الـ (لكن) من موهبة! وهدمت من طموح! وعطلت من فائدة! ودفنت من مشروع! إنني في الوقت الذي أشكر فيه هذا السيد الجليل الذي ربما لولا تحريضه وتشجيعه لكانت هذه الصفحات كما كانت قبل سنة راقدة في ملف، أدعو نفسي ومن يقرأ هذه الكلمات إلى تشجيع من حولنا في مشاريعهم الصالحة حتى نشاركهم في ثواب أعمالهم وثواب قائل الكلمة الطيبة.

فوزي ابن المرحوم
محمد تقي آل سيف
تاروت القطيف

1442/4/3هـ

الزهراء ما قبل الميلاد
إلى الاستشهاد

ليس في العنوان التباس أو اشتباه! فمِن الناس مَن تبدأ حياته الحقيقية وآثارها بمولده ومنهم من تبدأ ببلوغه وهكذا.. وهناك من تبدأ آثار بركاته قبل وجوده وخلقته! وهذا ما نعتقده في رسول الله ﷺ، ونعتقده في أهل بيته لا سيما الصدِّيقة الزهراء عليها السلام. وللعلم فإن صاحب المقام والمنزلة لا يتضرر بجهل الآخرين منزلته وإنما المتضرر هو جاهل تلك المنزلة والغائب عن إدراكها، كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفسير السبب أو الأسباب التي تجعل البعض لا يستطيع تحمل هذه المنازل والمقامات فيرميها بالغلو تارة وبالكذب والوضع أخرى!

1/ **فاطمة الحوراء الانسية**: وعلى أي حال فالذي يعتقده الإمامية هو ما جاء في أحاديث رسول الله وأئمتهم عليهم السلام، وهي كثيرة يكفي منها أن نشير إلى ما رواه الشيخ الصدوق بسند

معتبر[1] عن الإمام الصادق عن أبيه، عن جده عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خُلق نور فاطمة صلوات الله وسلامه عليها قبل أن تخلق الأرض والسماء، فقال بعض الناس: يا نبي الله فليست هي إنسية؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فاطمة حوراء إنسية، قال: يا نبي الله وكيف هي حوراء إنسية؟ قال: خلقها الله عز وجل من نوره قبل أن يخلق آدم إذ كانت الأرواح، فلما خلق الله عز وجل آدم عرضت على آدم..»[2].

وعندما أراد الله سبحانه إظهار هذا النور لعالم الوجود، فالمروي في روايات أهل البيت عليهم السلام، وكان ذلك بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بنحو أربع سنوات وأشهر،[3] أنه أمر أن يعتزل خديجة وأن يكون صائم النهار قائم الليل، حتى يأتيه الأمر الإلهي بمقاربة زوجته لتلد تلك المرأة التي سيقدر لها أن تكون سيدة

(1) عن الصدوق (ت 381هـ) في معاني الأخبار: حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رضي الله عنه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الحميري، عن يعقوب بن يزيد، قال: حدثنا الحسن بن علي بن فضال، عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن سدير الصيرفي، عن الصادق.

(2) ابن بابويه الصدوق؛ محمد بن علي: معاني الأخبار 490 وموضوع وجودهم النوري صلوات الله عليهم، قبل الخلق الخارجي هو مفاد أحاديث كثيرة، يراجع في ذلك كتاب الشيخ مسلم الداوري؛ النبي في وجوده النوري وكتاب الموسوعة الكبرى للشيخ إسماعيل الأنصاري الخوئيني.

(3) هو مفاد الروايات القائلة بأن ولادتها كانت لسنوات خمس بعد البعثة، وقد أثبتها بتفاصيلها الزنجاني الخوئيني في كتابه الموسوعة الكبرى.

نساء العالمين من الأولين والآخرين. فوُلِدت في شهر جمادى الثاني بعد خمس سنوات[1] من بعثة أبيها المصطفى ﷺ.

وهنا نشير إلى نقطتين هامتين؛ إحداهما عقدية، والأخرى أخلاقية تربوية:ـ

العقدية منهما هي أننا نلاحظ إصرارًا من قبل بعض علماء مدرسة الخلفاء[2] على أن ولادتها كانت قبل البعثة بخمس سنوات، وسيترتب على هذا ـ ولعله مقصود ـ ألّا تكون روايات

(1) الزنجاني الخوئيني؛ إسماعيل الأنصاري: الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء 2/ 65: ولادتها بعد خمس سنين من بعثة النبي ﷺ، عن 106 مصدرًا. منها ما عن الكافي بسند حسن عن حبيب السجستاني قال: سمعت أبا جعفر (الباقر) عليه السلام يقول: ولدت فاطمة بنت محمد ﷺ بعد مبعث رسول الله بخمس سنين وتوفيت ولها ثمان عشرة سنة وخمسة وسبعون يومًا.. وفي هذه الرواية كلا الأمرين: تاريخ الولادة والعمر الشريف.

(2) كذّب الذهبي (ت748 هـ) حديث المستدرك على الصحيحين 3/ 169 لأبي عبد الله الحاكم النيشابوري (ت 405)، والمعجم الكبير ـ الذي سيأتي نصه بعد قليل ـ وقال: «هذا كذب جلي؛ لأن فاطمة ولدت قبل النبوة، فضلًا عن الإسراء..» ومثله وأعجب منه قال ابن حجر العسقلاني (ت 852) في إتحاف المهرة 5/ 134 رقم 5066 بقوله: «الوضع عليه ظاهر، فإن فاطمة وُلدت قبل ليلة الإسراء بالإجماع». قال! بالإجماع مع أن روايات أهل البيت صريحة في أنها ولدت بعد البعثة بخمس سنين! وهذا يبين لك سر اصرارهم على أن يثبتوا أن ولادة الزهراء كانت قبل البعثة!

وتجد التعليق عليه على طريق النسخ واللصق، قد نشط في ما بعد سنة 700 هـ وهي فترة اشتداد الجدل المذهبي والتعصب، فهذا برهان الدين سِبْط ابن العَجَمي (ت 841) ينقل في كتابه الكشف الحثيث 1/ 151 هذه الكلمات: «وقد علم الصّبيان أن جِبْرِيل لم يهْبط على نَبينا إلّا بعد مولد فاطِمَة بِمدَّة فَهَذا كُله يَقْتَضِي أنه وضع والله أعلم» وهي حرفيا نفس العبارة التي قالها الذهبي في ميزان الاعتدال 2/ 416 «وقد علم الصبيان أن جبرائيل لم يهبط على نبينا إلا بعد مولد فاطمة بمدة»!

نزول جبرئيل بطعام من الجنة على رسول الله صحيحة! فلا معنى لنزول جبرئيل عليه قبل بعثته خاصة وأن بعضهم يعتقد ـ خاطئًا ـ أنه كان على دين قومه! فنحن نؤكد هنا على أن هذا الإصرار ليس بعيدًا عن الموضوع العقائدي وهو أن ولادة فاطمة هي كولادة أي امرأة أخرى لا تزيد عليها في شيء! والحال أننا ذكرنا أن هذه الصديقة تختلف تمامًا فهي حوراء إنسية، ومعنى الحوراء أنها تخلقت بنحوٍ من الأنحاء مما هو مرتبط بالجنة[1]، وهو هنا الطعام الذي تناوله النبي لكي تتكون منه تلك النسلة الطاهرة الميمونة[2]. وربما يكون هدف بعض هؤلاء أيضًا أن يثبتوا

(1) الطبراني؛ أبو القاسم (ت 360): المعجم الكبير 22/ 400 عَنْ عائِشَةَ قالَتْ: كُنْتُ أرى رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يُقَبِّلُ فاطِمَةَ، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ الله إنِّي أراكَ تَفْعَلُ شَيْئًا ما كُنْتُ أراكَ تَفْعَلُهُ مِن قَبْلُ فَقالَ لِي: «يا حُمَيْراءُ، إنَّهُ لَمّا كانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إلى السَّماءِ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَوَقَفْتُ عَلى شَجَرَةٍ مِن شَجَرِ الجَنَّةِ لَمْ أرَ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً هِيَ أحْسَنُ مِنها حُسْنًا، ولا أبْيَضَ مِنها ورَقَةً، ولا أطْيَبَ مِنها ثَمَرَةً فَتَناوَلْتُ ثَمَرَةً مِن ثَمَرَتِها فَأكَلْتُها فَصارَتْ نُطْفَةً فِي صُلْبِي، فَلَمّا هَبَطْتُ الأرض واقَعْتُ خَدِيجَةَ فَحَمَلَتْ بِفاطِمَةَ، فَإذا أنا اشْتَقْتُ إلى رائِحَةِ الجَنَّةِ شَمَمْتُ رِيحَ فاطِمَةَ، يا حُمَيْراءُ، إنَّ فاطِمَةَ لَيْسَتْ كَنِساءِ الآدَمِيِّينَ ولا تَعْتَلُّ كَما يَعْتَلُّونَ».

(2) ابن بابويه الشيخ الصدوق: الأمالي 691، في رواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: إن خديجة عليها السلام لما تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هجرتها نسوة مكة، فكن لا يدخلن عليها، ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، فاستوحشت خديجة عليها السلام لذلك، وكان جزعًا وغمها حذرًا عليه صلى الله عليه وآله وسلم. فلما حملت بفاطمة كانت عليها السلام تحدثها من بطنها وتصبرها، وكانت تكتم ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا فسمع خديجة تحدث فاطمة عليها السلام، فقال لها: يا خديجة، من تحدثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني. قال: يا خديجة، هذا جبرئيل يخبرني أنها أنثى، وأنها النسلة الطاهرة الميمونة، وإن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه.

أنها حين توفيت كانت في نحو التاسعة والعشرين[1] من العمر وربما يكون من يموت في هذا العمر يكون بشكل طبيعي! فيتم التشكيك في أمر شهادتها مما ارتكب منها نظام الخلافة ورموزه!

وأما الجهة الأخلاقية؛ فينبغي أن نشير هنا إلى ما أكدته الأحاديث والروايات من تأثير الطعام الحلال إيجابيًا في النشأة الحسنة وقبول الهدى وحرص المشرع الإسلامي في التأكيد على آثاره تلك كأحد الآثار الوضعية المطلوبة بالإضافة إلى كون تناوله يعبر عن طاعة الله سبحانه.

وفي المقابل فإن تأثير أكل الحرام في سلوكيات آكليه

(1) ذكروا ذلك في كثير من المصادر ككتاب محمد بن جرير الطبري؛ المنتخب من ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين ص 91 والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم4/ 95 لابن الجوزي (ت 597).بل إن الكلبي النسابة زعم أنه حين ماتت كان عمرها خمسا وثلاثين سنة! كما في تهذيب الكمال في أسماء الرجال 35/ 253 ـ لجمال الدين المزي، والغريب أنهم ينقلون عن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط: تارة أن عمرها كان خمسا وعشرين سنة وأخرى ثلاثين كما في شرح مشكل الآثار 1/ 136 ـ الطحاوي (ت 321) والحق وهو ما عن أهل البيت وهم أدرى بذلك أنها ولدت بعد البعثة بسنوات خمس واستشهدت وهي في الثامنة عشر من العمر..
بل أشار بعضهم إلى مشكلة أخرى لم يقدموا لها جوابا، فقد قال في موجز دائرة المعارف الإسلامية 25/ 7711 / مجموعة من المؤلفين: «التاريخ الأقرب احتمالًا هو أنها ولدت في عام إعادة بناء الكعبة المشرفة أي قبل بداية البعثة النبوية بخمس سنوات، وهذا يعني أنها تزوجت عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها، ولم يكن من المألوف أن يتأخر زواج الفتاة العربية حتى هذا السن»! فهل مرادهم أن فاطمة كانت بائرة إلى هذا الحد وأنها غير مرغوب فيها من أحد؟ بينما يتفاخرون بأن غيرها قد خطبت وعمرها ست سنوات وتزوجت وعمرها تسع؟

واضح[1]، وإن كان هذا وذاك بمعنى اقتضاء الشيء لهذه النتيجة لا بمعنى العلة التامة والسبب الكامل حتى لا يقول أحد أن فلانًا يأكل الحلال ومع ذلك يسرق، وأن فلانًا يأكل الحرام وهو أمين!

فإذا كان أكل الحلال والطيبات من الرزق يقتضي تلك الآثار الإيجابية في الأخلاق والدين، فكيف إذا كان ذلك الطعام من الجنة كما أسلفنا في خبر أكل النبي طعام الجنة ليتكون منه بدن فاطمة؟

وإذا كان بدن فاطمة قد تكون من طعام الجنة فكيف ستكون روحها ونفسها؟

وعلى هذا الأساس فقط يمكن فهم ما ورد في روايات الفريقين من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل فاطمة ويشم منها ريح الجنة[2]! فإذا كانت قد ولدت قبل البعثة بخمس سنوات فما

(1) المجلسي؛ المولى محمد باقر (1111 هـ): بحار الأنوار45/ 10 خاطب الإمام الحسين عليه السلام الجيش الأموي بقوله: وكلكم عاص لأمري غير مستمع قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام، وطبع على قلوبكم، ويلكم ألا تنصتون؟ ألا تسمعون؟

(2) لما أُسري بي أتاني جبرئيل بتفاحة فأكلتها فواقعتُ خديجة فعلِقتْ بفاطمة، فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممتُ رقبة ابنتي فاطمة.. نقل أصل الحديث الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والمحب الطبري في ذخائر العقبى وعلق عليه الذهبي بالقول:هو موضوع.
وقال المحقق التستري في قاموس الرجال 9/ 258: إنّما يحكمون بوضع مثله، لأنّهم جعلوا ولادتها قبل البعثة، مع أنّ روايات الإماميّة متّفقة على أنّها كانت بعد البعثة.

ميزتها في هذه الجهة على سائر بنات الرسول أو أبنائه؟ وإذا لم تتكون من طعام الجنة فمن أين جاءت هذه الرائحة التي يستروحها رسول الله فيها؟

لا غرابة بعد هذه المقدمات أن نرى في روايات المعصومين عليهم السلام عن أمهم الزهراء أنها كانت تحدث أمها خديجة وهي في بطنها[1].

ولأنها كذلك فقد كان برنامج مجيئها لهذه الدنيا والغرض المتعلق به مختلفا عن سائر بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسيأتي بيان ذلك في موضوع مقاماتها عليها السلام.

2/ **فاطمة في طفولتها المبكرة**: ستكون فاطمة مؤنسة أمها بعد خروجها إلى عالم الدنيا كما كانت مؤنستها قبل ذلك في بطنها، وستكون إلى جانب أمها خديجة الكبرى معينة لأبيها ومدافعة عنه ـ بقدر ما يتيسر لها ذلك ـ وسوف تعاني في الدفاع عن شخصية أبيها النبي المصطفى وتخفيف حملة أعدائه عليه، كما ستفعل ذلك مستقبلًا بالنسبة لزوجها الوصي المرتضى. فها هي تميط الأذى وسلا البعير الذي

(1) الأمالي 691 / مصدر سابق.

وضعه القرشيون على كتف النبي وهو يصلي؛ قال الراوي: «فَلَمّا سَجَدَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وضَعَهُ بَينَ كَتِفَيهِ قال فاسْتَضْحَكُوا، وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلى بَعْضٍ، وأنا قائِمٌ أَنْظُرُ لَوْ كانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، والنَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ساجِدٌ ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتّى انْطَلَقَ إنْسانٌ فَأخْبَرَ فاطِمَةَ، فَجاءَتْ وهِيَ جُوَيرِيَةٌ فَطرحَتْهُ عَنْهُ، ثُمَّ أقْبَلَتْ عَلَيهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمّا قَضى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم صَلاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعا عَلَيهِمْ، وكانَ إذا دَعا دَعا ثَلاثًا، وإذا سَألَ سَألَ ثَلاثًا، ثُمَّ قال: (اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقُرَيشٍ). ثَلاثَ مَرّاتٍ فَلَمّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ وخافُوا دَعْوَتَهُ»[1].

وبالرغم من أنها كانت صغيرة السن في مقاييس الأرقام إلا أنها سجلت وشاهدت تفاصيل أذى قريش وتآمر زعمائها على الرسول أبيها وعلى الرسالة الإلهية، ولذلك لم يكن نقدها في خطبتها المشهورة لواقع قريش المتآمر ناشئا عن عاطفة أو بعد عن الواقع، فراجع خطبتها وكيف تحدثت عن قريش مشيرة إلى أن الخط القرشي استمر في التآمر على الخط الرسالي العلوي المحمدي.

(1) الإشبيلي؛ عبد الحق بن عبد الرحمن (ت582 هـ): الجمع بين الصحيحين 3/ 83، وهذا يقدم لأولئك الذين يدبجون الأحاديث في فضل قريش وأنها تتقدم ولا يتقدم عليها، مع دعاء النبي عليها بهذه الصورة.

ولم تقف أمام ذلك في موقف التسجيل وإنما حاولت مساعدة أبيها وتخفيف آلامه بالمقدار الذي تستطيعه فتاةٌ صغيرةٌ أمام عتاة الرجال وسفهائهم. كما كابدت مع أبيها وأمها صلوات الله عليهما وباقي المسلمين آثار حصار قريش لبني هاشم ومن تبعهم من المؤمنين في شعب أبي طالب. وصبرت كما صبروا على طول المحنة التي استمرت نحو ألف يوم من الزمان.

كما شاهدت عمر أمها السيدة خديجة وهو يتصرّم، وثروتها وهي تتناقص لجهة الإنفاق على الرسالة وأتباعها، حين حرمه الناس وتعلمت منها أن الدين والشريعة تستحق التضحية بكل شيء يملكه الإنسان المسلم.

3/ **فاطمة بعد وفاة أمها خديجة**: نحتمل أنه في الفترة التي تلت وفاة أمها الصديقة خديجة في السنة العاشرة لبعثة النبي وإلى وقت هجرة أبيها من المدينة أن تكون الزهراء فاطمة في أجواء بيت عمها أبي طالب الذي توفي في نفس سنة وفاة أمها على ما هو المعروف، وأن تكون في رعاية زوجته فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام. وكان عمرها في ذلك الوقت نحو خمس سنين، وبالرغم من أن النبي قد تزوج في تلك السنة سودة بنت زمعة إلا أننا لا نعثر على شيء مميز في

علاقتها مع السيدة فاطمة عليها السلام. بل ربما حسبت سودة كما في صحيح البخاري على غير الخط المنسجم مع فاطمة في المدينة ولا نعلم كيف كانت في مكة!

إلّا ما يذكر في بعض مصادر مدرسة الخلفاء من أن سودة كانت من ضمن الركب المهاجر إلى المدينة[1].

وبالرغم من الاختلاف بين مؤرخي مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت عليهم السلام[2] في قائد الركب وكيفية الخروج من مكة إلا أنهم

(1) المباركفوري؛ صفي الرحمن: الرحيق المختوم مع زيادات 1/ 121: قال في باب: من قدم من أهل النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة.. بعد أيام وصلت زوجته سودة بنت زمعة وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وخادمه أسامة بن زيد، وحاضنته أم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وبقي في مكة من أبنائه صلى الله عليه وآله زينب عند أبي العاص، منعها من الخروج، وقد هاجرت بعد غزوة بدر..
وفي أنساب الأشراف للبلاذري (ت 279) 1/ 414 البلاذري عن عائشة: وجه رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وآله مِنَ المَدِينَةِ، حِينَ هاجَرَ إِلَيْها، زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ، وأبا رافِعٍ مَوْلَيَيْهِ. فَحَمَلا سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، وفاطِمَةَ، وأُمَّ كُلْثُومٍ. وحَمَلَ زَيْدٌ أُمَّ أَيْمَنَ امْرَأَتَهُ، وأُسامَةَ ابْنَهُ.. أقول من الملاحظ في هذا الحديث التنكر لاسم الإمام علي عليه السلام في أنه هو صاحب الهجرة بالركب النبوي من مكة إلى المدينة.. وقد أخذوه وغيرهم من سيرة ابن إسحاق.

(2) فبينما تذكر مصادر أهل البيت كما في الأمالي/ 500 للشيخ الطوسي والمناقب لابن شهراشوب ما خلاصته أن النبي قبل هجرته من مكة أوصى عليًّا أن يكون على أهبة الاستعداد ليأتي بالفواطم ونساء بني هاشم متى جاءه الخبر من النبي، وينبغي أن يؤدي في هذه الفترة أمانات رسول الله وودائعه ويقضي دينه إن كان لأحد على النبي دين، ثم يخرج من مكة وسيكون في حفظ الله فلا داعي لأن يخرج سرًّا! وبالفعل فلما وصل النبي إلى المدينة أرسل إليه أبا واقد الليثي ليستحثه على المجيء وعدم التأخر، فخرج عليٌّ عليه السلام بفاطمة بنت رسول الله عليها السلام، وأمِّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب ـ وقيل: هي ضباعة ـ وتبعهم أيمن بن أم أيمن مولى رسول الله وأبو واقد رسول رسول الله، وخرج علي عليه السلام جهارًا، وعندما =

يتفقون على هجرة السيدة الزهراء عليها السلام بعد أن أرسل رسول الله من يأتيه بها.

4/ **هاجرت الزهراء إلى المدينة المنورة**، وبنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بيتًا، يفترض أنه قد أسكن فيه زوجته القادمة من مكة سودة بنت زمعة، وأسكن فيه ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، ولم يكن حتى ذلك الحين قد تزوج باقي نسائه، فعائشة مثلًا تزوجها النبي كما في روايتها هي في شوال من نفس السنة وباقي النساء دخل بهن فيما بعد.

ولم يتبين لي بحسب مراجعة مصادر المدرستين كيف كانت مواقف زوجة النبي سودة مع فاطمة عليها السلام وهما بحسب الفرض في بيت واحد، وإجمالًا فإن القليل من المعلومات هو الموجود عن سودة.

5/ **تزويجها السماوي**: لجهاتها الخاصة من الفضائل التي عرفت عنها، ولكونها بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان من الطبيعي

= حاولت قريش اعتراضه ورده كان في سيفه شفاء وجواب، فواصل سيره حتى وصل إلى المدينة وكان النبي قد انتظر ولم يدخلها بل أقام في طرفها حتى وصل عليٌّ والفواطم.
أما كتب مدرسة الخلفاء فلا تذكر عليا في هذه الهجرة ولا في غيرها! فلا هو هاجر مع النبي ولا هاجر سرًا ولا هاجر جهرًا ولا مع الفواطم ولا من دونها! وكأن اسمه قد مسح وألغي في هذا الحدث! وتحقيق الأمر أكثر من هذا قد يأتي في ذكر سيرة النبي المصطفى إن شاء الله تعالى.

أن تكون محط الاهتمام للاقتران بها، ويمكن أن نلاحظ هنا أن البعض كان يفكر في الزواج بفاطمة لأن ذلك سيجعل له موقعية خاصة عند النبي، فإن المصاهرة في تلك الأزمنة ـ بل غيرها ـ كانت أحد أهم وسائل التقرّب من الشخص.

لهذا أو لذاك فقد رغب بعض أصحاب النبي في الزواج من فاطمة، التي ستتم سنتها التاسعة مع نهاية جمادى الثانية من السنة الثانية لهجرة النبي، بناء على الرواية المعتبرة عند شيعة أهل البيت، ولنترك مصادر الفريقين تتحدث:

فعن أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ: «جاءَ أَبُو بَكْرٍ إِلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقالَ يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مُناصَحَتِي وقِدَمِي فِي الإسلام وإِنِّي قالَ: (وما ذاكَ) قالَ: تُزَوِّجُنِي فاطِمَةَ قالَ فَسَكَتَ عَنْهُ! فَرَجَعَ أَبُو بكر إلى عمر فَقالَ لَهُ: هَلَكت وأهلكت!

فَقالَ: وما ذاكَ قالَ خَطَبْتُ فاطِمَةَ إِلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَأَعْرض عني!

فَقالَ: مَكانَكَ حَتّى آتِيَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فَأَطْلُبُ مِثْلَ الَّذِي طَلَبْتَ فَأَتى عُمَرُ النَّبِي صلى الله عليه وآله وسلم فَقعدَ بَين يَدَيْهِ فَقالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مُناصَحَتِي وقِدَمِي فِي الإسلام وإِنِّي قالَ: (وما ذاكَ)؟

قالَ: تُزَوِّجُنِي فاطِمَةَ فَسَكَتَ عَنْهُ! فَرجع عمر إِلى أَبِي بَكْرٍ فَقالَ

لَـهُ إِنَّـهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّـهِ فِيهـا قُـمْ بِنـا إِلـى عَلِـيٍّ حَتّـى نَأْمُـرَهُ يَطْلُـبُ مِثْلَ الَّـذِي طَلَبْنا!

قـالَ عَلِـيٌّ: فَأَتَيانِـي وأنـا أُعالِـجُ فَسِـيلًا لِـي فَقـالا: إِنّـا جِئْنـاكَ مِـن عِنْدِ ابْـنِ عَمِّـكِ بِخِطْبَـةٍ قـالَ فَنَبَّهانِـي لأَمْرٍ فَقُمْـتُ أَجُـرُّ رِدائِـي حَتّـى أَتَيْـتُ النَّبِـيَّ ﷺ فَقَعَدْتُ بَيْـنَ يَدَيْـهِ فَقُلْتُ يـا رَسُـولَ اللَّهِ قَـدْ عَلِمْـتَ قِدَمِي فِي الإِسـلام ومُناصَحَتِي وإِنِّي قـالَ: (ومـا ذاك)؟ قـالَ: تُزَوِّجُنِي فاطِمَـةَ؟

قـالَ: (وعِنْـدَكَ شَـيْءٌ) قُلْـتُ فَرَسِـي وبُدُنـي قـالَ: (أمّـا فَرَسُـكَ فَلا بُـدَّ لَـكَ مِنـهُ وأمـا بُدُنـك فبعهـا)[1] قـالَ فبعتهـا بأربعمائـة وثَمانِينَ فَجِئْـتُ بِهـا حَتّـى وضَعْتُها فِـي حِجْـرِهِ فَقبـض مِنهـا قَبْضَة فَقـالَ: (أي بِـلال ابْعَـثْ ابتـع بهـا طيبًـا) وأمرهـمْ أن يجهزوهـا فَجعـل سَـرِيرًا مُشْـرَطًا بِالشَّـرْطِ ووِسـادَةً مِن أدَمٍ حَشْـوُها لِيفٌ..»[2] إلى آخر الخبر.

(1) في روايات أخر ذُكر الدرع، وقد يكون كلا الأمرين من البدن والدرع، وفي بعضها ذُكر هذا والآخر ذكر ذاك.

(2) وقد ذكره ابن حبان البستي (ت 354) في صحيح ابن حبان ـ 15/ 394 والطبراني في المعجم الكبير 22/ 408 وابن المغازلي (ت 483) في مناقب عليٍّ 1/ 413 والسيوطي (ت 911) في جامع الأحاديث 33/ 91 والمتقي الهندي (ت 975) في كنز العمال 13/ 6...وقد علق عليه ناصر الدين الألباني في كتاب ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان 1/ 171 بأنه منكر المتن ـ ضعيف الإسناد!

أقول: هل كان يتوقع منه غير ذلك فإن تصحيحه يهدم كثيرًا من الأسس التي يبني عليها مثل الالباني.. لكن لو كان بصياغة أخرى أخف فلا مانع عند الالباني وغيره من قبوله، مثل حديث: خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ فاطِمَةَ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّها صَغِيرَةٌ) فخَطَبَها عليٌّ فزوَّجَها منه!! وتعليقه هنا على الحديث أنه صحيح. لأن صياغته أخف كثيرًا من السابق! ونسأل كيف صارت =

وقد حاول بعض الكتاب من أتباع مدرسة الخلفاء تخفيف رفض رسول الله تزويج بعض الأصحاب، بتضعيف الأخبار الصريحة وتقوية الأخبار المخففة، كما تلاحظ في الهامش لكن الصحيح هو ما روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي لقد عاتبتني رجال قريش في أمر فاطمة وقالوا: خطبناها إليك فمنعتنا وزوجت عليًّا فقلت لهم: والله ما أنا منعتكم وزوجته بل الله تعالى منعكم وزوجه فهبط عَليَّ جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله جل جلاله يقول: لو لم أخلق عليًّا عليه السلام لما كان لفاطمة ابنتك كفو على وجه الأرض آدم فمن دونه[1].

لقد كان هذا التزويج سماويًّا[2] قبل أن يكون أرضيًّا، فقد ورد

= صغيرة والحال أنها بناء على رواياتهم ولدت قبل البعثة بخمس سنوات ويعني هذا أن عمرها الآن قريبًا من 20 سنة؟ فهل هذه صغيرة؟ وكيف قبلا من النبي عذر أنها صغيرة والحال ان النبي تزوج ابنة أبي بكر (خاطب فاطمة) وهي بنت تسع سنين كما يذكر في صحاحهم؟ والنبي حينها بحدود 53 سنة! وكيف كانت صغيرة على الزواج منهما وليست صغيرة على الزواج من علي؟ أسئلة لا تجد لها إجابات!

(1) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا 1/ 203

(2) في روايات أهل البيت عليهم السلام الكثير يحمل هذا المعنى منها ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام في عيون أخبار الرضا 1/ 173في حواره مع علي بن الجهم حيث قال له «وأن الله عز وجل ما تولّى تزويج أحد من خلقه إلا تزويج حوّا من آدم عليه السلام وزينب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾[الأحزاب: 37] وفاطمة من عليٍّ عليه السلام».

في مصادر المسلمين قول النبي: «إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليٍّ».[1]

6/ **هل فاطمة صغيرة بالنسبة للزواج؟** الوارد تاريخيًا وروائيًا[2] أن عليًّا عليه السلام عندما تزوج فاطمة كان له من العمر 25 سنة وكانت في بداية العاشرة من العمر، وقد يستبعد البعض هذا، فكيف تتزوج فتاة صبية عمرها 10 سنوات؟ وهذا ما يُلجئ البعض للتمسك بالروايات القائلة بأن ولادتها كانت قبل خمس سنوات من البعثة لرفع استبعاد تزويجها في هذا العمر (المبكر) كما يقول. وبالطبع لن ينتبه إلى

(1) الطبراني: المعجم الكبير10/ 156، وجلال الدين السيوطي في الجامع الصغير1/ 258 وقال الصنعاني في التنوير شرح الكتاب: «إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليٍّ» ذكر المصنف الحديث في الكبير ولفظه عن أنس قال: كنت قاعدًا عند النبي صلى الله عليه وآله فغشيه الوحي فلما سري عنه قال: يا أنس أتدري ما جاء به جبريل من عند صاحب العرش قلت: بأبي أنت وأمي ما جاءك به جبريل من عند صاحب العرش قال: «إن الله أمرني أن أزوج.» الحديث. وبالطبع لن يقبل هذا الحديث أتباع الخط الأموي كالذهبي الذي نقل عن ابن الجوزي وقال فيه: وهَذا مَوْضُوع فِيهِ من الركة أشياء.

(2) عطاردي: مسند الإمام الرضا 1/ 335 وفيه أورد رواية نصر بن علي الجهضمي قال سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن عمر فاطمة عليها السلام، قال: ولدت فاطمة بعد ما أظهر الله نبوته بخمس سنين وقريش تبني البيت، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يومًا وكان عمرها مع النبي صلى الله عليه وآله بمكة ثماني سنين وهاجرت مع النبي إلى المدينة وأقامت بالمدينة عشر سنين، وأقامت مع أمير المؤمنين من بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يومًا، وولدت الحسن بن علي عليه السلام ولها إحدى عشرة سنة بعد الهجرة..

مشكلتين؛ مخالفة هذا الكلام للروايات المعتبرة والتواريخ الموثقة، وأهم من ذلك أنه لا تبرير لتأخير زواجها إلى سن التاسعة عشر وهو أمر مستنكر جدا وشنيع في تلك الأزمنة في المجتمع العربي، فإما أن يكون تأخر زواجها لأنها غير مرغوبة ولا مطلوبة وهذا كذب بلا ريب، أو أنها كانت مرغوبة ومطلوبة لكن النبي منع من ذلك، وهذا أشنع من سابقه! وهذا ينفيه ما عليه روايات مدرسة الخلفاء من ردّ النبي من تقدم إليها وقال إنها صغيرة! فهل تكون صغيرة وهي بنت 19 عامًا، على هذا القول؟

الصحيح هو ما ذكرنا من أنّ عليًّا أمير المؤمنين تزوجها بأمر سماوي لرسول الله الذي ردّ كل من تقدم إليها قبله، وبمجرد أن جاء عليٌّ عليه السلام، أجابه ورتب الأمر عمليًّا بعد مشاورته لها! وهنا نشير إلى نقطة مهمة وهي:

أن قضية العمر في الزواج هي قضية اجتماعية، ولكن ينظمها الدين فمن نظام الدين فيها أنه لا يجوز الدخول بالمرأة قبل بلوغها الشرعي وهو إكمال تسع سنين، وأما هل يكون ذلك وهي في سن العاشرة أو الخامسة عشر أو العشرين أو أكثر فهذه تدخل ضمن الأعراف الاجتماعية وضمن الاستعداد البدني العام

والذي يختلف من منطقة لأخرى، فابنة الثانية عشر في مجتمع الجزيرة العربية أو في أفريقيا يختلف استعدادها البدني غالبًا عن مثيلتها في الدول الاسكندنافية في أن هذه الأخيرة قد لا تكون مهيأة للزواج، بخلاف الأوليين، ويشير إلى ذلك علامة البلوغ هنا فالدورة الشهرية في كثير من نساء هاتين المنطقتين وأمثالهما تكون غالبًا مع إكمال التاسعة بخلافها في تلك المناطق.

وهذا لا ينحصر بالمنطقة الجغرافية، بل حتى التاريخ هو مؤثر؛ فما هو في عصرنا الآن ـ لأسباب مختلفة ـ من أنه يعتبر زواج الفتاة قبل الثامنة عشر، زواجَ الأطفال ويعاقب عليه القانون! هو نفسه في عصور سابقة كان يعتبر الوقت المثالي لزواج الفتاة، وأن من تتأخر إلى ما بعد الثامنة عشر أو العشرين تُحسَب كأنها بائرة! أو يكون الأمر غريبًا ولا بد فيه من تقديم سبب!

والناظر إلى زيجات الكثير ممن أسلمن تشير إلى هذا العمر الذي يعتبر في زماننا مبكرًا جدًّا. بل أكثر من هذا نجد في حياة آبائنا وأجدادنا في هذه المناطق التي نعيش فيها، مع بعد الفاصلة الزمنية عن عصر الإسلام الأول، فإن زواج البنت وهي في الثانية عشر من العمر كان أمرًا شائعًا وكثيرًا.

7/ **كم كان مهر فاطمة:** تفيد الروايات بأن مهر فاطمة

الزهراء عليها السلام (الدنيوي) وأمّا مهرها الأخروي[1] شيء لا يحيط به الإدراك، كان نحو خمسمائة درهم. وما ورد فيه من أنه كان ثمن درع عليٍّ وبُدُنه عليه السلام أو أنه اثنتا عشرة أوقية ونش أو أربعمائة وثمانين، أو غير ذلك فمرجعه إلى هذا، وبناء على هذا فإنه يمكن حسابه بطريقتين:

الأولى حسابه بالعدد وقياسه بما يعادله اليوم: فنقول درهم الفضة كم يساوي الآن؟ والجواب أنه لما كان الدرهم يساوي غرامين ونصف، والغرام يساوي ريالين (سعوديين بحسب قيمة هذه الأيام)، فإذا ضربنا أربعمئة درهم في ريالين ونصف فإنّه يساوي ألفين وخمسمائة ريال فيكون هكذا 500 x 2,5 x 2 وهو يساوي 2500 ريال.

وهذا المبلغ بحسب مقاييس هذا الزمان يعتبر قليلاً جدًّا، فإن مهر متوسط النساء في هذه المنطقة التي نحن فيها هو 25000 ريال، خمسة وعشرين ألف ريال، وهذا يعني عشرة أضعاف مهر فاطمة الزهراء.

وأما في بعض المناطق كما نقل عن البادية فإن المهور ترتفع

(1) فقد ورد في بعض الروايات أنه «جعل الله مهر فاطمة الزهراء عليها السلام شفاعة المذنبين من أمّة أبيها» وفي بعضها الآخر أنه خمس الأرض.

لتصل إلى مائة ألف وهذا يعني أربعين ضعفًا، ولذلك يمكن الاستفادة بسهولة من هذه الطريقة في الحساب للاستدلال على استحباب قلة المهر وهو مفاد كثير من الروايات والأحاديث.

وأما الطريقة الثانية: فهي أن يحسب لا بعدده وإنما بقيمته الشرائية آنذاك، فإن النقد في كل زمان له قيمة شرائية تتحدد من خلال ما تستطيع تلك العملة أن تأتي به وتعادله. وقد شهدنا في عصرنا أن الدينار مثلًا والليرة في زمن يكون له قيمة معينة فتأتي ظروف تؤثر في نزول قيمته أحيانًا إلى 1% من قيمته الأصلية وقدرته الشرائية.

فبناء على هذه الطريقة ينبغي حساب الدراهم الخمسمائة تلك بقيمتها الشرائية، وبالتالي نتساءل إن الدرهم أو الدينار في ذلك الزمان (حيث كان كل عشرة دراهم يساوي دينارًا) كم كانت قيمته الشرائية؟ ماذا كان يصنع الدينار أو الدرهم في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ وماذا كان يُشترى به؟

وبالنظر إلى كتاب الزكاة نجد أن الروايات عن النبي قد حددت أن ثمن الشاة يعادل عشرة دراهم[1]. وورد في حديث آخر ما

(1) الحَمِيدي؛ ابن أبي نصر (ت 488): الجمع بين الصحيحين 1/ 93.. ويُعْطِيه المُصدق عشْرين درهما أو شاتين.

ينسجم مع هذا حين أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد المسلمين دينارًا (وهو يساوي عشرة دراهم) ليشتري بذلك شاة، فقام بشراء شاتين بهذا المبلغ بذكائه وشطارته[1]. فإن تقدير النبي أن سعر الشاة يساوي هذا المقدار قرينة أخرى على ما نحن بصدده، من أن سعر الشاة قد يكون عشرة دراهم أو دينارًا.

فإذا تم هذا الكلام فتكون خمسمائة درهم هي سعر خمسين شاة، وإذا حسبنا سعر الشاة اليوم وضربنا قيمتها في خمسين يكون ذلك معادلًا للمهر الذي أعطي للسيدة الزهراء عليها السلام. وهو بحسب نفس المنطقة التي حسبناه بالريال فصار 2500 سيتغير الحال بهذه الطريقة الثانية ويكون (لو فرضنا أن الشاة المتوسطة سعرها ما بين 500 إلى 750 ريالا) فسيعادل ذلك مبلغ (25000 إلى 37500 ريال ـ أي حوالي 10 آلاف دولار).

8/ بيت علي وفاطمة عليهما السلام: يكفي عن كل وصفٍ لذلك البيت، وصفُ الله تعالى في القرآن حيث أشار إليه في الآية المباركة ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾[2].

(1) المزني؛ إسماعيل (ت 264): السنن المأثورة للشافعي 1/ 408.. إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أعْطى عُرْوَةَ بْنَ أبِي الجَعْدِ البارِقِيَّ دِينارًا يَشْتَرِيَ لَهُ بِهِ شاةً أوْ أُضْحِيَّةً قالَ: فاشْتَرَيْتُ لَهُ بِهِ شاتَيْنِ فَباعَ إحْداهُما بِدِينارٍ قالَ: فَأتَيْتُهُ بِشاةٍ ودِينارٍ قالَ: فَدَعا لِي بِالبَرَكَةِ فِي البَيْعِ، فَكانَ لَوِ اشْتَرى تُرابًا لَرَبِحَ فِيهِ.

(2) سورة النور: 36

هذا البيت المجاور لبيت رسول الله (والواقع الآن في ضمن سياج قبره الشريف) شهد الكثير من الوقائع والحوادث الجديرة بالتسجيل فهو أول بيت ضم زوجين معصومين في تاريخ البشر، الزوج عليٌّ والزوجة فاطمة، وهو أمر لم يحصل في تاريخ البشر قبله ولا بعده.

وبالتالي فإن ما كان فيه من قوانين وآداب وممارسات يصلح أن يكون منهاجًا يستهدي به المؤمنون، فمنه يتعلمون كيفية الحياة الزوجية السعيدة التي تنتج أن يقول الإمام عليٌّ عليه السلام عن تلك العلاقة «فوالله ما أغضبتها ولا أكرهتها من بعد ذلك على أمر حتى قبضها الله عز وجل إليه ولا أغضبتني ولا عصتْ لي أمرًا، ولقد كنت انظر إليها فتكشف عني الغموم والأحزان بنظري إليها»[1].

وفيه تم وضع أساس في تحمل المسؤولية بين الزوجين، وإن كان لا يعني ذلك ألّا يعين أحدهما الآخر فيما هو خارج مسؤوليته الأصلية[2]، وإنما هو في التقسيم الأساس للمسؤوليات ففي

(1) الموفق الخوارزمي؛ المناقب ص 354

(2) فإننا نجد أن الزهراء ربما أعانت عليًّا عليه السلام في تحصيل القوت من خلال غزلها الصوف كما في رواية جامع أحاديث الشيعة، 17/ 74 من أن الإمام عليه السلام ذهب إلى جار يهودي يقال له شمعون بن حارًا فقال له يا شمعون أعطني ثلاثة أصوع من شعير وجزة من صوف تغزله لك ابنة محمد صلى الله عليه وآله فأعطاه اليهودي الشعير والصوف فانطلق إلى منزل فاطمة فقال لها يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كلي هذا واغزلي هذا.. ومثلما كان يعين هو فاطمة عليها السلام في أعمال البيت؛ ففي نفس الكتاب 139 عن =

الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه: «تقاضى علي وفاطمة عليهما السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخدمة، فقضى على فاطمة عليها السلام بخدمة ما دون الباب وقضى على عليٍّ عليه السلام بما خلفه. قال: فقالت فاطمة عليها السلام: فلا يعلم ما داخلني من السرور إلا الله بإكفائي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحمّل رقاب الرجال»[1].

وبناء على ذلك فـ«إن فاطمة عليها السلام ضمنت لعليٍّ عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقَمّ البيت (كنسه) وضمن لها عليٌّ عليه السلام ما كان خلف الباب من نقل الحطب وأن يجيء بالطعام..»[2].

وقد شهد هذا البيت الشريف تنزل الآيات وتطبيق الأحاديث النبوية، فإنه شهد حديث الكساء وهو المعروف بين الفريقين، فإن سياق الحديث المروي عنها والذي يبدأ بقولها: دخل عليَّ رسول الله ذات يوم.. إلى آخر الحديث يفيد أن الأمر كان في بيتها عليها السلام.

= علي عليه السلام قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر وأنا أنقّي العدس! قال: يا أبا الحسن! قلت: لبيك يا رسول الله! قال اسمع وما أقول الا ما أمَر ربي ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها..

(1) الزنجاني الخوئيني؛ إسماعيل الأنصاري: الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء 17/ 129 وقد ذكر لذلك نحو عشرة مصادر. وبالطبع لا بدَّ أن نفهم كلمة تقاضى في ضمن إطار بعيد عن التنازع بقرينة فما أغضبتها ولا أغضبتني حتى قبضها الله.

(2) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة 20/ 234 ناقلًا عن تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

وحديث الكساء يتضمن شرح آية التطهير[1] وفيمن نزلت، وهي من أهم الآيات التي تشير إلى مرجعية أهل البيت عليهم السلام وطهارتهم وعصمتهم.

ونشهد لهذا البيت شأنًا لا يماثله شأن، لا في بيوت الأنبياء ولا غيرهم، وهو أن سيد الخلق محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم كان يقف على بابه لمدة ستة أشهر كل يوم يعني ما يصل إلى 180 مرة، ليكرر على الأسماع أن أهل البيت هم هؤلاء، وأنهم مطهرون، فـ«عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: كانَ يَمُرُّ بِبابِ فاطِمَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ إذا خَرَجَ إلى صَلاةِ الفَجْرِ، يَقُولُ: الصَّلاةُ يا أَهْلَ البَيْتِ،[2] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[3] وبينما أُغلقت أبواب البيوت المطلة على المسجد، وسُدت

(1) ولا يمنع ذلك أن الآية نفسها قد نزلت في بيت أم سلمة كما هو مفاد حديث عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: نزلت هذه الآية في رسول الله وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام في بيت أم سلمة.

(2) بن حنبل؛ أحمد (ت 241): مسند أحمد مخرجا 21/ 434، والترمذي، محمد بن عيسى (ت 279): سنن الترمذي ت بشار 5/ 205..وفي نص آخر يستفاد أن المدة كانت أطول من هذا وأنها كانت تسعة أشهر وهو ما نقله السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور 6/ 606 فيقول: وأخرج ابْن مرْدَوَيْه عَن ابْن عَبّاس قالَ شَهِدنا رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم تِسْعَة أشهر يَأْتِي كل يَوْم باب عَليّ بن أبي طالب عِنْد وقت كل صَلاة فَيَقُول: السَّلام عَلَيْكُم ورَحْمَة الله وبَرَكاته أهل البَيْت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الصَّلاة رحمكم الله كل يَوْم خمس مَرّات.

(3) سورة الأحزاب: 33.

بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بقي باب هذا البيت مُشرَعا على مسجد رسول الله، وعندما سأل بعض الناس النبي عن ذلك، وكان منهم من هو قرابة النبي فضلاً عن غيرهم أخبرهم بأن الأمر ليس من عنده وإنما هو أمر إلهي![1].

كما أنه ارتبط ببعض القصص التي خلدها القرآن الكريم أو السنة النبوية؛ مثل قصة الإيثار في سورة الإنسان التي ذكر فيها سبحانه إطعام علي وفاطمة المسكين واليتيم والأسير فقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (*) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[2].

هذا البيت شهد ولادة امتداد النبوة، والكوثر النبوي المستمر، وبقاء ذريته وعدم انقطاع نسله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا بدَّ من الإشارة إلى أننا نعتقد أن الأمر تدخلت فيه يد الغيب بشكل واضح، لكي ينحصر نسله وذريته من علي وفاطمة؛ فمع أنه أنجب من خديجة ابنين

(1) النسائي: أحمد بن شعيب (ت 303): خصائص عليٍّ 1/ 62، عقد فيه بابًا بعنوان «ذكر قَول النَّبِي ما أنا أدخلته وأخرجتكم بل الله أدخلهُ وأخرجكم» أورد فيه أربعة أحاديث بأسانيد وعبارات مختلفة منها أن العَبّاس أتى النَّبِي صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: سددت أبوابنا إلّا باب عَليّ؟ فَقَالَ ما أنا فتحتها ولا سددتها!

(2) سورة الإِنسَان: 8 ـ 9.

وأربع بنات[1]، إلا أن إرادة الله تقتضي أن يُتوفى الذكور في وقت مبكر وأن لا يبقى من الإناث نسل، ثم تقتضي إرادة الله وحكمته أن لا يحصل إنجاب من تسع نساء تزوجهن النبي بعد خديجة وفيهن المنجبة والبكر والمتوسطة مع أنه بقي مع بعضهن نحو تسع سنوات! فهل ترى هذا أمرًا عاديًّا؟ لا ريب أنه ليس عاديًّا! هو ما قاله رسول الله ﷺ في وقت مبكر وهو من دلائل نبوته وعلمه بالمستقبل «ذرية كل نبي من صلبه وذريتي من صلب عليّ وابنتي فاطمة»[2].

أنجبت الزهراء عليها السلام في السنة الثالثة ابنها الحسن، وفي السنة الرابعة الحسين وبعدهما زينب وأم كلثوم، وكان خامس الأولاد المحسن[3] الذي أسقط في قضية الهجوم على الدار.

(1) المشهور في المدرستين بين المسلمين هو ذلك، وهناك رأي آخر يرى كونهن ـ باستثناء فاطمة ـ ربيبات للنبي ﷺ، وقد ذكرنا في كتاب أعلام من الأسرة النبوية أدلة الفريقين ورجحنا رأي المشهور.

(2) الصدوق: الأمالي450 عن رسول الله ﷺ: «يا علي، إن الله تبارك وتعالى جعل ذرية كل نبي من صلبه، وجعل ذريتي من صلبك». وفي المعجم الكبير للطبراني 3/ 43 عَنْ جابِرٍ الأنصاري قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِي صُلْبِهِ، وإنَّ اللَّهَ تَعالى جَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِي صُلْبِ عَلِيِّ بْنِ أبِي طالِبٍ».

(3) المجلسي: مرآة العقول 5/ 322 «.. وأسقطت لذلك جنينا كان سماه رسول الله ﷺ محسنًا..» وهو أمر استثنائي فالتسمية عادة ما تكون للطفل بعد ولادته حيًّا لكن النبي ﷺ آثر أن يسميه في وقت مبكر.. فهل لذلك دلالات خاصة؟ الغريب أن الكثير من مصادر مدرسة الخلفاء أشاروا إليه على أنه مات صغيرا!

9/ علاقة زوجات النبي بفاطمة عليها السلام: لم تكن علاقة زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم بابنته فاطمة على نسق واحد وهذا أمر طبيعي، فإن لذلك ارتباطًا بعوامل متعددة، منها الموقف من أمها خديجة، ومنها قضية الغيرة من محبة النبي لفاطمة محبة استثنائية، بل وما هو مهم موقف تلك النساء من موضوع خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها غير ذلك.. وكان من الطبيعي حتى لو تم التغاضي والمجاملة في الجانبين الأولين ألّا يتم ذلك في الجانب الأخير.

بل يستفاد من الروايات وتشير إليه الوقائع التاريخية «أنّ نساءَ رسولِ الله كُنَّ حِزْبَيْنِ، فحِزْبٌ فيه عائشةُ وحفصةُ وصفيةُ وسَودَةُ، والحِزْبُ الآخرُ أمُّ سَلَمَة وسائرُ نساءِ رسولِ الله»[1].

(1) البخاري؛ محمد بن إسماعيل (ت 256): صحيح البخاري3/ 132 روى ذلك عن أم المؤمنين عائشة كما نقله عبد الحق الأشبيلي (ت 581) في الجمع بين الصحيحين3/ 572.أقول: نعتقد أن صفية لم تكن في هذا الحزب الأول وأن علاقتها به لم تكن بشكل تحسب عليهن، فقد روي كما في المعجم الكبير للطبراني 24/ 75 وشرح سنن أبي داود لابن رسلان 18/ 91 أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل على صفية وهي تبكي، فقال لها: «ما يبكيكِ؟» قالت: بلغني أن عائشة وحفصة ينالان مني ويقولان: نحن خير من صفية، نحن بنات عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه. فقال: «ألا قلت لهن: كيف تكن خيرًا مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد صلى الله عليه وآله وسلم». وهذا الحديث منقول في مصادر أخرى بصيغة أشد «ان النساء يعيرنني ويقولون يهودية بنت يهوديين» ومثل هذه الحادثة لا تنم عن وجود علاقة ايجابية، وفي مصادر الامامية ما يشير إلى أن النبي أوصى بأن ترجع بعده إلى أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، ففي الأمالي للشيخ المفيد 271، وأمالي الشيخ الطوسي ص64 في حديث.. قال: فجاءت صفية بنت حيي بن أخطب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله، إني لست كأحد من نسائك، قتلت الأب والأخ والعم، فإن حدث بك شيء فإلى من؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إلى هذا ـ وأشار إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ـ.

والذي تفيده الروايات أن علاقة أم سلمة[1] التي تزوجها الرسول ﷺ في شوال سنة 3 للهجرة، مع فاطمة كانت علاقة إيجابية متميزة، فنحن نجد أنها كانت تتحدث عن أن النبي قد دفع لها فاطمة حتى «تؤدبها وتعلمها»[2] فإذا بها تراها أعلم منها بالأمور وأكثر أدبًا!

(1) وعمومًا فإن مواقف أم سلمة من خط أهل البيت ومن الإمام علي عليه السلام وأبنائه كانت إيجابية جدًا ويظهر ذلك من الكثير من رواياتها في فضائلهم ومناقبهم وممارساتها العملية، ولتفصيل المطلب يمكن مراجعة فصل أم سلمة في كتابنا اعلام من الأسرة النبوية.

(2) الطبري (الشيعي)؛ محمد بن جرير: دلائل الإمامة / 81؛ فيه عن ابن عباس... فقالت أم سلمة: تزوّجني رسول الله ﷺ وفوّض أمر ابنته إليّ؛ فكنت أؤدّبها وأدلّها. وكانت والله آدب مني وأعرف بالأشياء كلها..

وبغض النظر عن سند الرواية فإنه ربما يستشكل فيها بأن النبي مع معرفته بأن فاطمة هي سيدة نساء العالمين كيف يفوض أمر تهذيبها وتأديبها إلى من هي دونها في المنزلة؟ وقد يجاب عن ذلك بأن أمر الآداب يختلف عن الأخلاق بأن الآداب ترتبط غالبًا بالأعراف الاجتماعية بخلاف الأخلاق التي لها نحو ثبات واستقرار، فالآداب في المدينة قد تكون مختلفة عنها في مكة، بينما لا يختلف صدق الحديث في حسنه بين منطقة وأخرى! وإذا لم يقبل هذا الجواب فقد يجاب بنحو آخر وهو أن ذلك من أجل إظهار فضل فاطمة على لسان أم سلمة! فلولا أن النبي فعل ذلك ورأته أم سلمة لما تكلمت وشهدت لها بأن فاطمة «والله آدب مني وأعرف بالأشياء كلها» على طريقة ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: 17]. وهناك ملاحظة أخرى في الحديث وهي أن أم سلمة لم تصبح زوجة للنبي إلا في السنة الثالثة من الهجرة (كما في تاريخ الطبري أو الرابعة كما هو المشهور) بينما تزوجت فاطمة قبلها في السنة الثانية للهجرة.. وحينها كانت فاطمة قد ولدت الإمام الحسن عليه السلام (سنة 3 هـ) بل الإمام الحسين عليه السلام سنة 4 هـ.. فكيف دفعها إليها لتؤدبها؟ إذ من الطبيعي أن تدفع الفتاة للمربية قبل الزواج لتتعلم شؤونه دون ما إذا كان الأمر بعد زواجها بسنة وبعد إنجاب طفلها.. إلا أنه يمكن تجاوز الموضوع التاريخي (زواج النبي بأم سلمة بعد زواج فاطمة بسنتين) بأن يقال بأن أم سلمة لما كانت ابنة عمة النبي (لأن أمها عاتكة بنت عبد المطلب على القول المشهور وزوجها السابق هو ابن عمة رسول الله ورضيعه وأمه برة بنت عبد المطلب كما في تاريخ الطبري، ج 2/ 414) فإن علقتها بالأسرة النبوية كانت قبل تاريخ زواجها بالنبي.. والله العالم.

كما أنه قد نقل عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء عليها السلام؛ أنه قد «اجتمعت نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يومئذ في بيت عائشة ليسألنّه أن يُدخلَ الزهراء على عليّ عليه السلام فاحدقْن به وقلن: فَديناك بآبائنا وأُمهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أنّ خديجة في الأحياء لقرّتْ بذلك عينُها.

قالت أمُ سلمة: فلما ذكرنا خديجة بكى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: خديجة وأين مثل خديجة؟ صدَّقْتني حين كذَّبني الناس ووازرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها..»[1].

أما علاقة زوجة النبي عائشة وهي رأس أحد حزبي نساء النبي كما تقدم عن البخاري، فيختلف الفريقان (مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت) فيها اختلافًا واضحًا فبينما تذهب مصادر مدرسة الخلفاء إلى أنها كانت منسجمة تماما إلى الدرجة التي

(1) الموفق الخوارزمي: المناقب 351، في حديث.. قالت أم سلمة: فلما ذكرنا (خديجة) بكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «خديجة وأين مثل خديجة!، صدقتني حين كذبني الناس وآزرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها، ان الله عز وجل أمرني ان أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب الزمرد، لا صخب فيه ولا نصب قالت أم سلمة: فقلنا فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله إنك لم تذكر من خديجة أمرًا إلا وقد كانت كذلك، غير أنها قد مضت إلى ربها فهنأها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في درجات جنته ورحمته ورضوانه يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا أخوك في الدين وابن عمك في النسب علي بن أبي طالب عليه السلام يحب ان تدخل زوجته فاطمة وتجمع بها شمله..» إلى آخر الحديث.

يخبر النبي فيها ابنته أنه يحب عائشة وأن عليها تصنع مثل صنيعه بل أمرها بحبها في بعض مصادرهم، بعدما أرسلت نساء النبي فاطمة لكي (يعدل) معهن ولا يفضل عائشة عليهن! كما ورد ذلك في المصادر الأصلية عندهم.

«فدعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلنها إلى رسول الله ﷺ فقالت له: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر، فكلمته، فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى. قالَ: (فَأَحِبِّي هَـذِهِ)[1].. فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه فأبت أن ترجع».

وأيضًا فإن مصادر مدرسة الخلفاء تشير إلى أن لعائشة أحاديث في مناقب فاطمة وهو يدل على علاقة إيجابية بينهما مثل قولها: «ما رَأَيْتُ أَحَدًا كانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وهَدْيًا ودَلًّا - وفي رِوايةٍ - حَدِيثًا وكَلامًا بِرَسُولِ الله ﷺ مِن فاطِمَةَ، كانَتْ إذا دَخَلتْ عَلَيْهِ قامَ إليْها فأخَذَ بِيَدها فقبَّلَها وأجْلَسَها في مَجلِسِه، وكانَ إذا دَخَلَ عَلَيْها قامَتْ إليْهِ فأخَذَتْ بِيَدِه فَقَبَّلَتْها وأجْلَسَتْهُ في مجلِسِها».

بل لقد ألّف بعضهم في هذا المبحث وأشار في فصل منه إلى حسن علاقة زوجة النبي عائشة على وجه الخصوص بفاطمة

(1) الأشبيلي عبد الحق (ت 581): الجمع بين الصحيحين 3/ 572.

ليثبت فيه «أنَّ علاقة عائِشَة بفاطمة هي علاقة ود وحب ووئام واحترام وتقدير، ولم يَثْبت في الأحاديث الصحيحة أن واحدة منهما قد حملت شيئًا من البغض أو الكراهية تجاه الأخرى، بل أجمع أصحاب السير ورواة الأحاديث على أن الصلة بين عائِشَة وفاطمة كانت على أحسن ألفة، وأكمل مودة، كأسمى ما يكون من العلاقات بين الأحباء..»[1].

وفي المقابل فإن مصادر الإمامية ترى أن تلك العلاقة بين زوجة النبي عائشة وابنته فاطمة كانت مضطربة وأقرب إلى التشنج منها إلى الانسجام، فإنهم ينقلون كما عن الصدوق في الخصال أن عائشة كانت تزدري خديجة ولا ترى لها فضلًا عليها وتنتقصها أمام ابنتها فاطمة مما أبكى ذلك فاطمة ودخل النبي في هذه الحال فانتصر لابنته فاطمة ولزوجته الراحلة خديجة وانتقد عائشة بحسب هذه المصادر [2].

(1) إجلاء الحقيقة في سيرة عائشة الصديقة 102/ ياسين الخليفة الطيب المحجوب.

(2) الصدوق: الخصال 418 في رواية عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله منزله فإذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة ما ترين إلا أن لأمّكِ علينا فضلًا وأي فضل كان لها علينا ما هي إلا كبعضنا، فسمع مقالتها فاطمة فلما رأت فاطمة رسول الله صلى الله عليه وآله بكت فقال لها: ما يبكيك يا بنت محمد؟ قالت: ذكرت أمي فتنقصتها فبكيت، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: مه يا حميرًا فإن الله تبارك وتعالى بارك في الولود الودود وإن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهرًا وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت مني القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب. إلى آخر الحديث.

بل تلاحظ هذه المصادر أن فاطمة أوصت ألّا يدخل عليها أحد، ولما جاءت عائشة لتدخل منعتها (أسماء بنت عميس الخثعمية) زوجة والدها أبي بكر، وأخبرتها كما أخبرته بأن هذه هي وصية فاطمة عليها السلام[1].

وكأنّ الأمر كان واضحًا حتى أن غير الإمامية قد نقلوه في كتبهم ذلك، فبالإضافة إلى وصيتها السابقة التي نفذتها أسماء بنت عميس (بالرغم من تدخل الخليفة وهو زوجها أيضًا) بمنعها من الدخول، ولولا أن الأمر كان جازمًا واضحًا لما منعت بهذه الصورة، ولعله لهذا السبب لم تحضر عائشة عزاء فاطمة الزهراء، مع حضور باقي نساء النبي كما أورد ذلك في شرح النهج لابن أبي الحديد، فقد «قال: ثم ماتت فاطمة فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهن إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة فإنّها لم تأتِ وأظهرت مرضًا»[2].

وبالنسبة للباقي من نساء النبي فيظهر أنهن كنّ متأثرات بالانتماء إلى حزبهن!

(1) الذهبي: سير أعلام النّبلاء 2/ 129 قالت فاطمة:... إذا مت فغسِّليني أنتِ وعليٌّ، ولا يدخلن أحد عليَّ. فلما توفيت، جاءت عائشة لتدخل، فقالت أسماء: لا تدخلي. فشكت إلى أبي بكر. فجاء، فوقف على الباب، فكلم أسماء. فقالت: هي أمرتني. قال: فاصنعي ما أمرتك، ثم انصرف وكذلك نقله السيوطي في جامع الأحاديث 24/ 450.

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة9/ 198 قال ابن الحديد: هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله ولم يكن يتشيع.

10/ فاطمة من بعد الرسول إلى الرحيل: كان فقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فاطمة عظيم الوطأة وعميق الحزن، ولعل تعبيرها عليها السلام عنه في الشعر المشهور لها:

ماذا على من شم تربة أحمد
ألّا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليَّ مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا[1]

(1) ابن الجوزي (ت 597) مثير الغرام الساكن ط دار الحديث 1/ 489 راويا عن: عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللَّهُ وجْهَهُ، قالَ: «لَمّا رُمِسَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم جاءَتْ فاطِمَةُ فَوَقَفَتْ عَلى قَبْرِهِ وأخَذَتْ قَبْضَةً مِن تُرابِ القَبْرِ فَوَضَعَتْهُ عَلى عَيْنَيْها وبَكَتْ، وأنْشَأتْ تَقُولُ:

ماذا عَلَى مَن شَمِّ تُرْبَةِ أحْمَدَ أنْ لا يُشَمَّ مَدى الزَّمانِ غَوالِيا
صُبَّتْ عَلَيَّ مَصائِبٌ لَوْ أنَّها صُبَّتْ عَلى الأيّامِ عُدْنَ لَيالِيا

لكن الذهبي (ت 748) في سير أعلام النبلاء ط الحديث 3/ 426 وبعد حوالي قرن من الزمان، وكعادته في النفي قال «ومِمّا يُنْسَبُ إلى فاطِمَةَ ولاَ يَصِحُّ» ثم ذكر الأبيات السابقة. ولعل إنكاره إياه لما تحمل تلك الأبيات من إشارة إلى ظلامتها.

مع أنه قد أشار إلى الأبيات كاملة أو خصوص البيتين جمع غفير من المؤلفين منهم ابن النجار البغدادي (ت 643) في كتابه: الدرة الثمينة في أخبار المدينة وعبد الرحمن بن قدامة (ت682) في الشرح الكبير2/ 430.

بل لقد دخلت الحادثة والأبيات ضمن الاستدلال الفقهي على جواز النياحة على الميت، نثرًا وشعرا، وأصبح يستدَل بالأبيات ولا يستدَل عليها!

وأما العلامة الأميني رحمه الله في الغدير 5/ 156 فقد تتبع عددا غير قليل من المصادر التي ذكرته من كتب مدرسة الخلفاء، فقال: رواه ابن الجوزي في (الوفاء) وابن سيد الناس في السيرة النبوية 2 ص 340. والقسطلاني في (المواهب) مختصرا. والقاري في شرح (الشمائل) 2 ص 210. والشبراوي في (الإتحاف) ص 9. والسمهودي في وفاء الوفاء 2 ص 444. والخالدي في صلح الأخوان ص 57. والحمزاوي في (مشارق الأنوار) 63. والسيد أحمد زيني دحلان في =

وإلى هذا المعنى يشير ما ورد في رواية الكافي عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة حتى ظنوا أن لا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتر الأقربين والأبعدين في الله..»[1].

وزادها ألَمًا وحزنًا ما جرى على أمير المؤمنين عليه السلام، من تنحيته من موقعه في القيادة الإسلامية وهو ما أشارت إليه في خطبتها (سيأتي شرحها والإشارة له)، ولا سيما الطريقة التي تعامل معها جهاز الخلافة الجديد مع أمير المؤمنين عليه السلام ومع زوجته فاطمة.

وفي هذا الثاني تختلف مصادر المدرستين اختلافا واضحا؛ إن في أصل الأحداث أو في تفاصيلها..

ففي مصادر مدرسة الخلفاء جاء وصف الحدث ضمن النقاط التالية:

أ/ أن فاطمة والعباس جاءا يطالبان أبا بكر بميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه أخبرهما أنه سمع الرسول يقول بأنه لا يورَث، وأن ما تركه فهو صدقة!

= السيرة النبوية 3 ص 391. وعمر رضا كحالة في (أعلام النساء) 3 ص 1205. وذكر البيتين لها سلام الله عليها ابن حجر في الفتاوى الفقهية 2 ص 18. والخطيب الشربيني في تفسيره 1 ص 349. والقسطلاني في (إرشاد الساري) 2 ص 390.

(1) الكليني: الكافي 1/ 493.

ب/ أن فاطمة على أثر ذلك تأثرت وهجرته! فلم تكلمه حتى ماتت وعندما ماتت جهزها زوجها عليٌّ ولم يخبر أبا بكر حتى دفنها! وربما زادت بعض المصادر أن أبا بكر استرضى فاطمة قبل موتها فرضيت عنه، وانتهت المشكلة.

ج/ أن فاطمة لما ماتت انفضّ الناس عن علي بن أبي طالب ولم يكن له بينهم وجاهة فاضطر إلى مبايعة أبي بكر بالخلافة!

فمثلًا يتحدث الطبري عن الحدث باختصار شديد ويضمنه النقاط المتقدمة في تاريخه والطريف أنه ينقل الخبر عن عائشة أم المؤمنين فيقول: «إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر. فقال لهما أبو بكر: أما إني سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد في هذا المال وإني والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته! قال فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت فدفنها علي ليلًا ولم يؤذن بها أبا بكر وكان لعليٍّ وجه من الناس حياة فاطمة فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن عليٍّ فمكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله ثم توفيت قال معمر قال رجل للزهري أفلم يبايعه علي ستة أشهر قال لا ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي فلما رأى

عليٌّ انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر..»[1].

ومثل هذا النص جاء في البداية والنهاية لابن كثير، فإنه مع عدم المناسبة لذلك، أشار إلى ما اعتبره أحاديث موضوعة في تزويجها (ولعله يقصد رد النبي الأصحاب ومنعهم وتزويجه عليًّا إياها وقد مرت آنفًا) وقال إنه لا يريد ذكرها رغبة عنها! لكنه لم يرغب ولم يعرض عن حديث مكذوب في أن عليا أراد أن يتزوج بنت أبي جهل، ولا أعلم ما الذي يدعوه للرغبة فيها وعنده سيدة نساء العالمين! وهو الذي يقول فيها ما أغضبتني ولا أغضبتها كما تقدم في فقرة الحديث عن زواجهما، وأراد ابن كثير أن يقول إن إغضاب فاطمة وإيذاءها لا يرتبط بما وقع بعد وفاة النبي وإنما هو بسبب علي بن أبي طالب الذي أراد أن يتزوج عليها! ونقل الحديث الذي زعمه عن رسول الله وأن فاطمة تفتن عن دينها! وأن النبي خيره بين أن يطلقها وبين أن يتزوج ابنة أبي جهل! ولم يلتفت في غمرة موقفه السيئ من علي بن أبي طالب أنه بحديثه ذاك يذم فاطمة التي صورها بأهون صورة، فلم تعادل أي امرأة عادية تزوج عليها زوجها وتقبلت الأمر بصورة طبيعية! لكن (دين

(1) الطبري؛ محمد بن جرير: تاريخ الطبري2/ 448

فاطمة) في رأي ابن كثير والمسور بن مخرمة[1] واضع الحديث هو من الضعف والهوان بحيث يتبخر هذا الدين لمجرد أن الزوج قد تزوج عليها! ولم يلتفت إلى أنه يذم رسول الله بذلك حيث أنه لم يلتزم بشريعته التي يباح فيها التعدد والزواج ولم يلتزم بسيرته الشخصية حيث تزوج على زوجاته باستثناء خديجة عليها السلام.

ثم بعد ذلك ذكر هذا النص مركزا فيه على النقاط التي ذكرناها أعلاه فقال:

«ولَمّا ماتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم سَأَلَتْ مِن أبِي بَكْرٍ المِيراثَ، فَأخْبَرَها أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم قالَ: (لا نُورَثُ، ما تَرَكْنا فَهُوَ صَدَقَةٌ). فَسَألَتْ أنْ يَكُونَ زَوْجُها ناظِرًا عَلى هَذِهِ الصَّدَقَةِ[2]، فَأبى ذَلِكَ وقالَ: إنِّي أعُولُ مَن كانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَعُولُ، وإنِّي أخْشى إنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِمّا كانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَفْعَلُهُ أنَّ أضِلَّ، ووااللَّهِ لَقَرابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أحَبُّ إلَيَّ أنْ أصِلَ مِن قَرابَتِي. فَكَأنَّها وجَدَتْ فِي نَفْسِها مِن ذَلِكَ، فَلَمْ تَزَلْ مُغْضَبَةً مُدَّةَ حَيّاتِها،

(1) ذكر العلامة السيد مهدي الخرسان في كتابه عليٌّ إمام البررة: أن أسانيد هذا الحديث تنتهي إلى ثلاثة كلهم من المنحرفين عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهم: أبو هريرة الدوسي، وعبد الله بن الزبير، والمسور بن مخرمة. وهذا الأخير يكفي في «فضائله!!» ما قاله قال عروة بن الزبير أنه «لم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صلى عليه» كما في تاريخ دمشق.

(2) وكأن القضية نزاع على مال أو على ولاية الأرض وعائدها!

فَلَمّا مَرِضَتْ جاءَها الصِّدِّيقُ، فَدَخَلَ عَلَيْها فَجَعَلَ يَتَرَضّاها، وقالَ: واللَّهِ ما تَرَكَتُ الدّارَ والمالَ والأهْلَ والعَشِيرَةَ، إلّا ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ ومَرْضاةِ رَسُولِهِ ومَرْضاتِكُمْ أهْلَ البَيْتِ. فَرَضِيَتْ..».

وقَدْ ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحِ) أنَّ عَلِيًّا كانَ لَهُ وجْهٌ مِنَ النّاسِ حَياةَ فاطِمَةَ، فَلَمّا ماتَتِ التَمَسَ مُبايَعَةَ الصِّدِّيقِ فَبايَعَهُ»[1].

وفي المقابل فإن مصادر الإمامية تذكر أحداثا كثيرة، وفي كل حدث منها تفاصيل كثيرة، نشير إلى بعضها بالنحو التالي:

أولًا: تفصل هذه المصادر بين قضية ميراث الزهراء في فدك وبين منصب الخلافة والإمامة لعلي بن أبي طالب والذي نصبه فيه رسول الله بأحاديث كثيرة كان آخرها وأشهرها حديث الغدير وترى أن اختصار القضية في موضوع فدك أو الولاية عليها كما في بعض نصوص مدرسة الخلفاء هو تزوير للقضية.

نعم موضوع فدك كان تطبيقًا عمليًا واضحًا للتعدي على حق عترة النبي وعنوانًا بارزًا لذلك، وإلا فإن الزهراء التي لم تذكر فدكا بالاسم في خطبتها (كما سيأتي) بل ذكرت «وما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفه وقلة مبالاته بحتفه...».

(1) ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية 9/ ـ487 490 وللقارئ أن يتساءل ما هو الارتباط بين تأخر بيعة علي كما قال وبين موت فاطمة ما دام الخليفة قد ترضاها فرضيت؟

ثانيًا: تصر هذه المصادر على أن عليًّا عليه السلام وهو الأولى بموقع الخلافة والإمامة سواء لكفاءاته الشخصية من العلم والشجاعة وسائر ميزاته أو ـ وهو الأهم ـ لجهة تنصيبه من قبل النبي رفض البيعة ولم يقبلها وصرح في احتجاجات متعددة على أنهم: احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، ونسب له الشعر المعروف:

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم
فكيف بهذا والمشيرون غيب
وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم
فغيرك أولى بالنبي وأقرب

فلم يبايع ـ مثلما أنه لم يسارع لأخذ بيعة الناس وترك جثمان النبي لم يجهز ـ فمضت الأمور في سقيفة بني ساعدة بالنحو المعروف! وسكت عنهم بينما لم يسكتوا عنه بل كان هناك تصميم عند جهاز الخلافة على إلزام كل شخصية مهمة بالبيعة لهم، وإن حدث ما حدث![1].

(1) الطبري: تاريخ الطبري2/ 459.. قال سعد بن عبادة للقرشيين الذين بايعوا أبا بكر في السقيفة: لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسابي! فلما أتي أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتى يبايع! فقال له بشير بن سعد: إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه فليس تركه بضاركم إنما هو رجل واحد! فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدا لهم منه فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم!

ثالثًا: على أثر ذلك فقد حشدت سلطة الخلافة ـ وهو المنطق الطبيعي للدول ـ أنصارها لا سيما وقد تصوروا أن عليَّ بن أبي طالب سيتحصن في بيته ويجمع الجموع لمعارضتهم، فهددوه أولًا بأن يخرج وإلا سيحرقون الدار بمن فيها وإن كان فيها فاطمة!

وعندما لم تتم الاستجابة للتهديد بخروج عليٍّ للبيعة، تم اقتحام الدار بالقوة، وتقول روايات الإمامية هنا أنه ولأجل ألا يهتك ستر فاطمة الزهراء عليها السلام التي فوجئت بالهجوم فقد عملت كما هو شأن كل امرأة عفيفة ستيرة إلى أن تختبئ وراء الباب لكيلا تنكشف على الرجال المهاجمين، فتم عصرها بين الحائط والباب وأجهضت على أثر ذلك جنينها المحسن.

وبالإضافة إلى المصادر في الدائرة الإمامية فإنهم يحشدون عددًا من المصادر التابعة لمدرسة الخلفاء والتي نقل كل منهما جانبًا مفصلًا أو مختصرًا عن الحدث وبجمعها تكتمل الصورة[1].

رابعًا: كان الغرض الأساس هو إلزام عليٍّ عليه السلام بالخلافة ولذلك

(1) فراجع كتاب: الموسوعة الكبرى للشيخ إسماعيل الأنصاري الزنجاني وكتاب مأساة الزهراء للمرحوم السيد جعفر مرتضى العاملي، وكتاب فاطمة من المهد إلى اللحد للمرحوم السيد محمد كاظم القزويني، وكتاب الحجة الغراء على شهادة الزهراء صلوات الله عليها للشيخ جعفر السبحاني، وكتاب مظلومية الزهراء صلوات الله عليها للسيد علي الميلاني، وكتاب الهجوم على بيت فاطمة لعبد الزهراء مهدي، وغيرها من الكتب.

فقد أُخذ من قبل ما نسميه اليوم بالشرطة العسكرية إلى مركز الحكومة ليبايع، مع تهديده إن لم يبايع فسيقتل! وحيث أن مصادر الإمامية تتحدث عن توصية من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لعليٍّ عليه السلام بعدم المواجهة والقتال لكيلا تحدث الحرب الأهلية بين المسلمين بعد النبي، فقد تحمل الإمام كل تلك الآلام وعض على كل الجروح وبايع «وفي العين قذى وفي الحلق شجىً حيث يرى تراثه نهبا»[1].

خامسًا: تتحدث مصادر الإمامية عن أن فاطمة عليها السلام وبعنوان الاحتجاج العلني ذهبت إلى المسجد وخطبت خطبتها المشهورة ـ ستأتي في الصفحات القادمة ـ مسمعةً الرجال وهي الخفرة المحجوبة! واتهمت الاتجاه القرشي بتخطيطه القديم لإقصاء أهل البيت عليهم السلام، مع أن عليًّا ومن معه كانوا الأكثر إخلاصًا وجهادًا وتفانيًا في سبيل الدعوة الإسلامية، كما اتهمتهم بمخالفة القرآن في قضية ميراثها من أبيها، مهددة إياهم بأن عملهم هذا سيفتح أبواب البلاء على الأمة «ثم احتلبوا طلاع القعب دمًا عبيطًا وذعافًا ممضًا، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون، ثم طيبوا بعد ذلك عن أنفسكم نفسًا، ثم اطمئنوا للفتنة جأشًا، وأبشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من

(1) عبّر عليه السلام عن ذلك فيما بعد في الخطبة المعروفة بالشقشقية. راجع نهج البلاغة.

الظالمين، يدع فيئكم زهيدًا، وجمعكم حصيدًا، فيا حسرة لهم وقد عميت عليهم الأنباء ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾»[1].

كما أنها خطبت في نساء الأنصار بحرارة تشبه خطبتها في وسط الرجال ويظهر أن هذا لم يكن بعيدا عن توجيه أمير المؤمنين عليٍّ زوجها، فإنه عندما عيره معاوية بذلك رد عليه بأنك أردت أن تذم فمدحت![2].

سادسًا: ترى هذه المصادر اعتمادًا على روايات عن أهل البيت عليهم السلام أن وفاة الزهراء عليها السلام لم تكن طبيعية لا سيما ولها من العمر ثمانية عشر عامًا (كما مرَّ بيانه في فصل ولادتها) وإنما كانت على أثر مضاعفات الإجهاض الحاصل لها، وإسقاط جنينها، بل يذكرون أنه قد رضت أضلاعها من عصرها، وهو أمر لا يحتاج إلى كثير من الجهد لإثباته إذا ثبت أمر إسقاطها الجنين على أثر عصرها بالباب!

(1) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص 406.

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة2/ 47..ومن كتاب معاوية المشهور إلى علي عليه السلام: وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلًا على حمار، ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق، فلم تدع أحدًا من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك، ومشيت إليهم بامرأتك، وأدليت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله.. إلى آخر كلامه.
وفي رده عليه في كتاب قال الإمام عليه السلام كما في الاحتجاج1/ 272: وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعَمْر الله لقد أردت أن تذم فمدحت، وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلومًا ما لم يكن شاكًّا في دينه، ولا مرتابًا في يقينه..

وأنها لهذا ولغيره ماتت وهي غير راضية على أبي بكر وعمر، وهذا التعبير وإن تم التغيير فيه والتبديل فتارة يقال هي واجدة وأخرى في نفسها شيء وثالثة أنه تم استرضاؤها فرضيت إلا أن الحقيقة هي أنها ماتت وهي غاضبة وأنها لذلك أوصت عليًّا ألّا يؤذن أحدًا من جهاز الخلافة بموتها، وأوصت أسماء بنت عميس ألّا تشارك النساء المنسجمات مع الخلافة في غسلها أو تجهيزها، بل ولا يعلم أولئك بموعد تشييعها ودفنها ولا الصلاة عليها، بل وأن يبقى قبرها مجهولًا!، وهذا ما حصل بالفعل.

الزهراء للإمام عليّ:
اشتملت شملة الجنين

عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: لما انصرفت فاطمة عليها السلام من عند أبي بكر، أقبلت على أمير المؤمنين عليه السلام فقالت: يا بن أبي طالب، اشتملت مشيمة الجنين[1]، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي فلان قد ابتزني نُحيلة أبي وبليغة ابنيَّ، والله لقد أجد في ظلامتي، وألد في خصامي، حتى منعتني قيلةُ نصرها، والمهاجرة

(1) في شرح الكلمات اشتملت شملة الجنين (أو مشيمة الجنين) كلاهما يدل على معنى الاختفاء في شيء كالجنين عندما يشتمل عليه الشيء من ثوب أو غطاء، أو المشيمة عندما تخفي الجنين في البطن، وقعدت حجرة الظنين يعني كأنك متهم مختبىء في حجرة نائية عن النظر، وبعدما كنت تقتل الأبطال وتنزع عن الصقور المحلقة قوادمها وريش قوتها وطيرانها، فإذا بالطير الأعزل غير القادر على الطيران يفوتك ولا تقدر عليه؟ وقد ابتزني وأخذ مني الخليفة نحلة والدي وما يتبلغ به ابناي، وكان ذلك بخصام شديد وعناد كبير ومنعتني قيله نصرها والمهاجرة وصلها، أي لم ينصرني الأنصار وهم الذين جدتهم (قيلة) فنسبوا إليها، وتقاعس عن الوصول إلى حقي المهاجرون، وكنت قد خرجت كاظمة غيظي ورجعت مرغمة من دون نتيجة! هذا وقد مات النبي المعتمد عليه، وعلى أثر ذلك فقد وهن عضدي وساعدي، وإلى الله أشتكي وإلى أبي أتظلم..

وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا مانع ولا دافع، خرجت والله كاظمة، وعدت راغمة، فليتني ولا خيار لي مِتُّ قبل ذلتي، وتوفيت قبل منيتي، عذيري فيك الله حاميا، ومنك عاديا، ويلاه في كل شارق، ويلاه مات المعتمد ووهن العضد، شكواي إلى ربي، وعدواي إلى أبي، اللَّهمّ أنت أشد قوة[1].

أثارت هذه القطعة من كلام الزهراء ـ ولا تزال تثير ـ أسئلة كثيرة تصل إلى حد إنكار صدورها من فاطمة عليها السلام، وعدم قبول أن تتكلم الزهراء الطاهرة بهذه الحدة لأمير المؤمنين صلوات الله عليهما، ويلاحظ الباحث أن هناك توجهين في التعامل مع هذه القطعة من الكلام:

التوجه الأول: إنكار صدورها عنها عليها السلام، ويستدل أصحاب هذا التوجه بما يلي:

1/ عدم وجودها في المصادر الرئيسية في كتب الحديث والرجال والتاريخ، ويشيرون إلى أن الكتب الأربعة المعتمدة عند الشيعة لم تذكر هذه القطعة من الكلام مع أنها ـ كالكافي مثلًا ـ تتبعت سيرة المعصومين وأوردت

(1) الطوسي؛ شيخ الطائفة: الأمالي ص 713.

مصائبهم، ولا سيما خطبتها الأصلية فقد وردت في كثير من تلك المصادر خلية عن هذه القطعة الإضافية.

وأول مصدر شيعي قد نقلت فيه هو كتاب الأمالي لشيخ الطائفة الطوسي (ت 460هـ)، وكتاب الأمالي في رأي أصحاب هذا التوجه لا يعدّ من مصادر الدرجة الأولى في الحديث بل ولا الثانية، مع أن سند الشيخ في هذا الكتاب لهذه القطعة ليس تامًّا. وبعده نقلها أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت 548هـ) في كتابه الاحتجاج من دون سند كما هي طريقته في الكتاب، ثم ابن شهراشوب المازندراني (ت 588هـ)، وما جاء في المصادر التالية اعتمد على هذه السابقة غالبًا. فإذا كان بعضها من غير سند والبعض الآخر سنده ضعيفًا فإن تكثرها في المصادر التالية لا ينفع.

2/ كما يستدلون أيضًا بما ورد في متن هذه القطعة ممّا لا يحتمل صدوره منها عليها السلام، ومن ذلك كما جاء في كتاب أبهى المداد: «شدة التوبيخ الصادر إلى أمير المؤمنين عليه السلام مع علمها بعصمته وكونه مأمورًا من الله تعالى على لسان رسوله الكريم بعدم حمل السلاح لدفع القوم إلّا بعد إتمام العدّة وهي أربعون رجلًا، ممّا يستلزم صدور العبث والجهل منها».

وكذلك «الدعاء على نفسها بالويل والثبور، ولا نتصوّر أن

مؤمنًا يدعو على نفسه بالويل الذي لا يعرف مداه إلّا الله تعالى، فإذا لم يعقل هذا بحق المؤمن فكيف بمن هي سيّدة المؤمنين والتي طهّرها الله في محكم التنزيل»؟

3/ وكذلك ما يفترض صدوره عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه القطعة المنسوبة للزهراء من «اتهام أمير المؤمنين لزوجته الصدّيقة بأنها أرادت البلغة من فدك لتحصيل الرزق ووعظه لها بأن رزقها مضمون وما أعدّ لها خير وأفضل مما قطع عنها، وكل ذلك مخالف لمسلكها في الزهد والتقى، وخلافًا لسيرتها الطاهرة في إيثار الفقراء على نفسها حتى نزلت فيها آيات»

4/ وكذلك فإن كلمات هذه القطعة تخالف ما تقرر من عصمتهما عليهما السلام، فإما أن يكون كلامها وتوبيخها ـ على فرض صدوره ـ صحيحًا وموقف أمير المؤمنين خاطئًا، أو يكون موقفه صحيحًا وكلامها في غير محله! وكلا الاختيارين مخالف لمبدأ عصمتهما عليهما السلام.

هذا غاية ما يمكن للتوجه الأول الاستدلال به على إنكار انتساب هذه القطعة من الكلام للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

وأما **التوجه الثاني**: فلا ينكر انتساب القطعة تلك لفاطمة عليها السلام، ويوجهها بتوجيهات متعددة لا تعود معها هذه القطعة مستنكرة.

ويرى بأن الإشكالات المثارة حولها قد تمَّ التوجه إليها مبكّرًا، فإن العلامة المجلسي رحمه الله في البحار، أشار إليها وحاول الإجابة عليها مثلما صنع غيره، ويمكن لنا أن نشير إلى هذه الجهات في تبين الرأي الأقرب للصواب كما نعتقد:

الأولى: أنه بغض النظر عن الجانب الروائي والذي سيأتي الحديث عنه، فإنه بالنظر إلى النقد المتني الذي يراه بعض العلماء أقرب إلى انتساب الكلام لصاحبه من النقد السندي، فإننا سنلاحظ أن هذه القطعة من الكلام لا تختلف في متانتها وقوة معناها وبلاغة كلماتها عن الخطبة التي سبقتها، بل تراها إذا وضعتها معها نسيجًا واحدًا لا يختلف في شيء! فإن حرارة الخطاب واحدة، وقوة الكلمات واحدة.

وبيان ذلك إن قسمًا من علمائنا يقولون إن بعض النصوص الواصلة إلينا، سنَدُها هو متْنُها، ومتنها هو سندها، وذلك مثل دعاء الصباح أو دعاء كميل أو أدعية الصحيفة السجادية، فإن غير المعصوم لا يتيسر له أن ينشئ نصًّا من هذا القبيل في معانيه ولا في ألفاظه!

وبنفس هذه الطريقة أجاب الكثير من العلماء على تشكيك البعض في نسبة خطب نهج البلاغة أو كتبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام

فقال في الردّ عليهم: «إن من أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفًا من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لا بدَّ أن يفرّق بين الكلام الركيك، والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد، وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلامًا لجماعة من الخطباء أو لاثنين منهم فقط، فلا بدَّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقين، ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام نفسه وطريقته ومذهبه في القريض... إلى أن يقول وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدًا، ونفسًا واحدًا، وأسلوبًا واحدًا، كالجسم البسيط الذي ليس بعضٌ من أبعاضه مخالفًا لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور..»[1].

وما ذكره هنا ينطبق تمامًا على هذه المقطوعة من كلام الزهراء عليها السلام.

الثانية: إنه قد روى هذه القطعة من الكلام شيخ الطائفة الطوسي رحمه الله في كتابه الأمالي، بسنده عن الإمام جعفر

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة1/ 9.

الصادق عليه السلام، كما نقله أيضًا ابن شهر اشوب في المناقب[1]، في سياق نهاية الخطبة الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج[2] كما نقلها أيضًا يوسف بن حاتم الشامي في كتابه الدر النظيم[3] ويظهر منه الإشارة إلى أن ذلك جزء من الخطبة التي رواها ابن عباس عن زينب ابنة أمير المؤمنين عليهما السلام.

كما أنه تنقل عن «هامش نسخة كشف الغمّة في البحار: 29: 311 حيث قال: وجدت في نسخة قديمة لكشف الغمّة منقولة من خطّ المصنّف مكتوبًا على هامشها بعد إيراد خطبتها صلوات الله عليها ما هذا لفظه: وجد بخط السيّد المرتضى عَلَم الهدى الموسوي قدّس الله روحه، أنّه لمّا خرجت...، ثمّ شرح غريبها»[4].

الثالثة: إن تشكيك البعض فيها إنما هو عائد إلى أنهم فهموا أنها تهجم على الإمام عليه السلام، وتعنيف لفظي له، وإساءة أدب في محضره، ولا يمكن أن يكون هذا صادرًا من الصديقة الطاهرة، فإذا كان كذلك فلا بدَّ أن نرد هذه الكلمات ولا نقبلها حتى لو كانت مسندة بأعلى الأسانيد وأصحها!

(1) ابن شهر آشوب (ت 588): المناقب2/ 208.
(2) الطبرسي؛ أحمد بن علي (ت حدود 620 هـ): الاحتجاج1/ 155.
(3) الشامي؛ يوسف بن حاتم (ت 664): الدر النظيم 465.
(4) الإربلي؛ علي بن أبي الفتح (ت693): كشف الغمة في معرفة الائمة 2/ 240.

والجواب على ذلك؛ أنه يصح فيما إذا كان التفسير الوحيد لهذه الكلمات ينتهي إلى ما ذكر، وأما لو احتملت فهما آخر لهذه الكلمات، فقد لا يكون ردها هو الأمر السليم، لا سيما إذا كانت تلك التفاسير على خلاف ما ذكر قبل قليل. فلننظر بِمَ فُسرت تلك الكلمات.

التفسير الأول: ما ذكره العلامة المجلسي وهو: أنه «يمكن أن يجاب عنه بأن هذه الكلمات صدرت منها عليها السلام لبعض المصالح، ولم تكن واقعًا منكرة لما فعله بل كانت راضية، وإنما كان غرضها أن يتبيّن للناس قبح أعمالهم وشناعة أفعالهم، وأن سكوته عليه السلام ليس لرضاه بما أتوا به.

ومثل هذا كثيرًا ما يقع في العاديات والمحاورات، كما أن ملكًا يعاتب بعض خواصه في أمر بعض الرعايا، مع علمه ببراءته من جنايتهم، ليظهر لهم عظم جرمهم، وأنه مما استوجب به أخصّ الناس بالملك منه المعاتبة.

ونظير ذلك ما فعله موسى لما رجع إلى قومه غضبان أسفًا، من إلقائه الألواح وأخذه برأس أخيه يجرّه إليه، ولم يكن غرضه الإنكار على هارون، بل أراد بذلك أن يعرّف القوم عظم جنايتهم وشدة جرمهم، كما مرّ الكلام فيه»[1].

(1) المجلسي: بحار الأنوار29/ 372.

أقول: هذا شبيه بطريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة». فقد وجدنا خطاب ربنا في القرآن الكريم للنبي العظيم ﷺ بمثل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1] ومثل ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (*) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[2] وقد أشارت الرواية المعتبرة عن الإمام الصادق التي نقلها الكليني في الكافي إلى أن هذه الطريقة شائعة في القرآن: «فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزل القرآن بإياك أعني واسمعي يا جارة».

وفي رواية أخرى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معناه ما عاتب الله عز وجل به على نبيه ﷺ. فهو يعني به ما قد مضى في القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ عنى بذلك غيره»[3].

وما نحن فيه من كلام العلامة المجلسي هو من هذا القبيل.

التفسير الثاني: ما ذكره المرجع الديني الروحاني في جواب

(1) سورة الزمر: 65.
(2) سورة الإسراء: 74 ـ 75.
(3) الكليني: الكافي2/ 631.

له على سؤال عن هذه الفقرة وأنها هل يصح صدورها من الصديقة الزهراء عليها السلام فقد قال: «بالتأمّل في تلك الجملة يظهر أنّها مدح عظيم من سيّدة النساء العارفة بمقام الإمام عليه السلام لبطولته وثباته وشرفه فإنّها قد رجعت بعد أداء الوظيفة، وهي تحمل كلّ الإجلال والإكبار لأمير المؤمنين عليه السلام مخاطبة إيّاه لتخفّف عنه من أثقال الإمامة، فقالت: (اشْتَمَلْتَ شِمْلَةَ الْجَنينِ) أي تحمّلت الأذى لمرضاة الله تعالى، ف (اشْتَمَلْتَ شِمْلَةَ الْجَنينِ) لتكون عين الفناء في ذات الله، وتعبيرها ب (اشْتَمَلْتَ) للإشارة إلى أنّه اشتمل بهذا الثوب وهو ثوب الوقاية عن الدنيا وزخارفها، بما في ذلك حبّ الزعامة والسلطة بإرادة واختيار منه، لا لقصور وتقصير، نظرًا لقدرته على المجابهة والمواجهة، ولكنّه عليه السلام في مقابل ذلك اشتمل شملة الجنين، ولم يحرّك ساكنًا؛ لأنّ وظيفته كانت هي السكوت والصبر، وكأنّها عليها السلام تقول له: لقد أدّيت وظيفتك أحسن الأداء، فأنت كما كنت مقدامًا حينما كانت وظيفتك هي الجهاد والمواجهة، كذلك كنت الصابر المحتسب حينما كانت وظيفتك هي الصبر على الأذى في جنب الله تعالى..»[1].

وربما نناقش هذا الجواب؛ بأنها لم تكن في مقام الإقرار بل

(1) الروحاني؛ السيد محمد صادق: السيدة الزهراء (س) بين الفضائل والظلامات61.

ظاهر الالفاظ ولا سيما بعد شرح ذلك بقولها «هذا ابن أبي فلان يبتزني نحلة أبي..» وقولها فيما بعد «ويلاي في كل شارق ويلاي في كل غارب! مات العمد ووهن العضد شكواي إلى ربي..» أنها كانت في مقام الاستنكار والتشكي والتألم! فلا نفهم معنى قوله حفظه الله: وكأنّها ﷺ تقول له: لقد أدّيت وظيفتك أحسن الأداء، فأنت كما كنت مقدامًا حينما كانت وظيفتك هي الجهاد والمواجهة، كذلك كنت الصابر المحتسب حينما كانت وظيفتك هي الصبر على الأذى في جنب الله تعالى!

التفسير الثالث: ما قاله بعضهم من أن هذا الكلام كان على سبيل التقية، وكان حماية للإمام عليٍّ ﷺ فإنها لأجل أن تنفي عن الإمام تهمة أنه هو الذي حركها لتخرج وتخطب بين الناس وتفضح أنظمة الخلافة وقراراتها، كان عليها أن تخاطب الإمام بهذه الكلمات، ولم تكن لتخفى عليهم لا سيما مع كون الخطاب في بيت الزهراء المطل على المسجد النبوي! فكأنها تقول له لكي يسمع أولئك ـ فتزول عنه التهمة ـ ما رددت عائلًا ولا أغنيت طائلًا! ولم تقم بحقي وقد كان باستطاعتك ذلك لكنك افترشت التراب! فهو إذن كلام محمول على التقية! والغرض منه حماية الإمام ﷺ، ورفع التهمة عنه في أنه يحرض على نقض النظام العام أو إثارة الفوضى في وجه الدولة.

والتعليق على هذا التفسير؛ أنه حتى لو قبلناه.. هل هناك حاجة إلى هذا المقدار من الحرارة في الكلام؟ والمبالغة في التوجع والتفجع إلى حد: ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! شكواي إلى ربي! عدواي إلى أبي! فهل تتطلب التقية هذا المقدار من الكلمات وهذا الحجم من الحزن والتظلم؟

التفسير الرابع: ونعتقد أنه أولى الأجوبة بالقبول، ولا ينفي بالضرورة ما سبق، وهو أن الزهراء عليها السلام ومن خلال هذا الكلام الساخن والعنيف تريد أن تعلن وثيقة للتاريخ وصوتا صارخا يقتحم الزمان والمكان بأنها صاحبة حق قد اغتصب علانية أمام الملأ وجمهور الناس سواء أبناء قيلة الأنصار أو المهاجرة! وقد صرحت لهم بذلك وخرجت إليهم - وهي التي لا تخرج - بخطبة عاصفة وطويلة وأقامت الحجة عليهم، فلم يتحرك أحد من الناس الذين كان يتوقع منهم أن يخلفوا النبي في ابنته بحسن الخلف! لكنهم ضيعوه وضيعوها فلم ينصروها في أول تظلم وخذلوها في أول قضية!

فهي بهذا تريد أن تعلن للتاريخ غضبتها! لكي تقطع على مزوريه والكذبة فيه ـ كما قالوا فيما بعد ـ أنها كانت قد اشتبهت في مطالبتها فلما عرفها الخليفة أمام الناس اشتباهها عرفت الحقيقة! أو أنها رضيت بعد ذلك!

ستقول كلا.. ياليتني مت قبل ساعتي هذه! لا تزال الحرقة في قلبي والغصة في حلقي! وإني لم أرضَ ولن أرضى على هضمي وظلمي وأخذ نحلة أبي وبلغة ابنيّ! بل وتنحية إمام الأمة فما الذي نقموه منه؟

ستواصل الاحتجاج بكل الوسائل! فإذا سألتها نساء الأنصار عن علتها ستقول لهن: أصبحت قالية (مبغضة) لرجالكن.. أولئك أصحاب المواقف الخاذلة! وإذا أراد زعماء الخلافة استرضاءها سترفض ذلك وتخبر الجميع أنها ما رضيت وستموت وهي غاضبة! وكان هذا الكلام للإمام عليٍّ عليه السلام في ضمن هذا السياق، فهو شهادة ووثيقة! وإعلان صريح ونهائي لموقفها من الخلافة وخطواتها!

عدم دفع الإمام الهجوم... ألا يعد جبنًا؟

من الأمور التي ركز عليها الطائفيون في الجدل المذهبي لنفي موضوع الهجوم على بيت الزهراء، الضرب على وتر أن ذلك يقتضي كون الإمام عليٍّ عليه السلام جبانًا وليس بصاحب غيرة على أهله، فإن الرجل الغيور - يقولون - لا يجلس ينظر إلى رجل يقتحم عليه داره ويعصر زوجته ويلطم وجهها وهو جالس يتفرج عليه فلا يحرك ساكنًا!

وإذا نقل الإمامية رواية أو روايات الهجوم وعصرها وإسقاطها، فإما أن يقولوا إن الإمام عليًّا عديم الغيرة أو ليس بشجاع أو لا بدَّ أن يكذبوا هذه الروايات ولا يقبلوها!

ونقول قبل الجواب عليه، نحن نعتقد أن هؤلاء الطائفيين لا يهمهم كثيرًا أن يوصف الإمام عليٌّ عليه السلام بغير الشجاعة بل بعدم الغيرة، فهم لا يعتقدون فيه إلا ما يعتقد في أقل الصحابة، فإنهم ينقلون (ويؤمنون أيضًا) بما ذكر عن بعض مبغضي الإمام أنه لا

يفضل غيره من الناس بشيء[1] بل ربما زاد بعضهم في طنبور التنكر للإمام نغمات[2] ومن قال بأن الإمام كان مخذولاً ـ خذل الله قائلها ـ أينما توجه! أو أنه أخطأ في سبعة عشر موردا وأنه خالف القرآن! يقول هذا مع قول النبي علي مع القرآن والقرآن مع علي، ويدل على عدم افتراقهما حديث الثقلين.

وعلى كل حال فإن هؤلاء لا ننظر إليهم ولا إلى الحديث معهم، إذ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[3]. وإنما نتحدث مع من تصل إليهم هذه الشبهات، وقد تفسد عليهم اطمئنان قلوبهم وهدوء أنفسهم، وتثير فيهم غبار الشك. فنقول:

1/ إننا لا نستغرب من تركيزهم على هذه النقطة (موضوع الهجوم)، وذلك لأنها ستنقل القضية من كونها حادثة تاريخية إلى قضية عقدية، فإن ثبت موضوع الهجوم بأي

(1) العسقلاني؛ ابن حجر فتح الباري7/ 14؛ في رواية عبيد الله بن عمر «كنا لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب رسول الله ﷺ فلا نفاضل بينهم..».

(2) الميلاني؛ السيد علي: محاضرات في الاعتقادات 2/ 352 في مناقشته لابن تيمية نقل عنه أن عليًّا ﷺ: «أخطأ في سبعة عشر شيئا ـ ولقوله: إنه ـ أي علي ـ كان مخذولًا حيثما توجه، وأنه حاول الخلافة مرارًا فلم ينلها، وإنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله: إنه كان يحب الرئاسة، ولقوله: أسلم أبو بكر شيخًا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيًّا، والصبي لا يصح إسلامه، وبكلامه في قصة خطبة بنت أبي جهل، وأن عليا مات وما نسيها».

(3) سورة النمل: 80.

درجة من درجاته فإنه سيكون حجة قوية ضد خط الخلافة ومدرسة الخلفاء، إذ دشنت عهدها بالهجوم على بيت هو كبيت الرسول، ومدح في القرآن بما مدح، وكان فيه سادة الجنة؛ سبطا النبي وهما سيدا شباب أهل الجنة وفيه فاطمة وهي سيدة نساء الجنة، وهذا عند المسلمين جميعا وفيه علي (وهو سيد المسلمين بعد رسول الله عند الإمامية) فكيف يكون هذا البيت عرضة للهجوم والكبس «والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر!».

لذلك جهدوا وجاهدوا من أجل إنكار الحادثة من رأسها، وحاربوا من أجل إلغائها من التاريخ والكتب! لكنهم كانوا كمن يغطي الشمس بغربال أو يحجبها بخيمة!

فالطريق الأسلم أن تنفى من داخلها، بجعلها شنيعة غير ممكنة، وهنا ركزوا على موضوع شجاعة عليّ مع أنهم لا يرونه أشجع الأصحاب ويقدمون عليه من يقدمون! وركزوا على غيرة الإمام عليه السلام! وسيأتي الجواب عليها في النقاط التالية.

2/ يقدم الإمامية جوابين: نقضيًّا ويهدف إلى إلزام الخصم، وحلّيًّا وهو يحل العقدة التي طرحها السؤال.

أما الجواب النقضي: فإننا نسأل هؤلاء هل أن الله قادر وغيور

أو ليس كذلك؟ فإذا كان الله على كل شيء قدير، وهو خالق الغيرة في البشر فلماذا لم ينتصر لأنبيائه ورسله وأوصيائهم والمؤمنين المخلصين به؟ لقد نشر بعض الأنبياء بالمناشير وألقي بعضهم وبعض الأوصياء في حمم النيران، وعذب المؤمنون بالله العذاب الأشد، من قبل الطغاة. وكل ذلك بعين الله لحظة بلحظة. فلماذا لم تتحرك قوة الله وقدرته لتدمر على الظالمين وتغل أيديهم عن فعل ذلك العذاب؟

ثم ننزل إلى العباد.. أليس رسول الله ﷺ هو القائل: «كان أبي إبراهيم غيورًا وأنا أغيرُ منه وأرغم الله أنف من لا يغار من المؤمنين»[1]. فلماذا ترك النبي آل ياسر وهم يعانون أمرّ العذاب حتى لقد طعن أبو جهل سمية (أم عمار) بالحربة في قلبها (وقيل تحت بطنها) ولم يجرد السيف في وجه جلاديها ومعذبيها؟ واكتفى بالقول: صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة؟

إننا نعتقد أن رسول الله أقوى وأشجع من علي بن أبي طالب ومن سائر الناس، وكان بإمكانه من الناحية الذاتية في ذلك الوقت أن يلقن هؤلاء درسًا لا ينسونه.. فلماذا لم يفعل؟

(1) الحر العاملي: وسائل الشيعة (الإسلامية) 14/ 109.

بل لماذا لم يفعل ذلك معهم وهو القوي الشديد والشجاع المنصلت عندما كانوا يرمون عليه سلا البعير ويؤذونه؟ بل لقد رجموا منزله بالحجارة؟ ألم يكن غيورًا على أصحابه والمؤمنين به؟ أليس غيورًا على حرمة بيته؟ ألم يكن شجاعًا يرد الأذى عن نفسه؟

كل هذه الأسئلة التي توجه حول الخالق تارة، وإلى النبي أخرى هي نفسها توجه للإمام أمير المؤمنين، والجواب عليها في الجميع واحد، وهو أنه ليس الأمر أمر وجود القوة أو الغيرة وإنما كل الأمر في استخدام تلك القوة والشجاعة وعاطفة الغيرة والاندفاع.. وأنه لا بدَّ أن يكون منبعثًا من الأمر الشرعي وبحسب مقتضيات الحكمة ولخدمة الهدف الذي يعتني به هذا الشجاع الغيور، فإذا كان استعمال الشجاعة مخالفًا لأحكامه الشرعية، أو لا يتناسب مع خدمة أهدافه، فإنه يعتبر خرقًا وحمقًا!

3/ وأما الجواب الحَلّي: فإن الإمامية يعتقدون أن أمير المؤمنين عليه السلام، كان أشجع الكل وأغير الكل، ولكن شجاعته وغيرته لم تكن منفلتة ودون ضوابط وإنما هي محكومة بالحكم الشرعي وبالحكمة العملية.

وذلك أننا قد نجد أناسًا لديهم قوة وشجاعة، ولكنهم يستعملونها ضمن الروح الجاهلية ذات منطق:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فإذا اعتدى عليهم شخص وقتل منهم واحدًا، ردوا عليه بقتل عشرة من عشيرته، وإذا سبهم بكلمة شتموه بمئات من الكلمات، وإذا جر الأمر إلى القتال فلا مانع لديهم، وهذه هي الروح الجاهلية التي كانت تحكم الناس سابقًا، وآثارها إلى اليوم مركوزة في نفوس البعض.

وهناك شجعان وفرسان لا يقوم لهم أحد في ميدان القوة والمواجهة، ولكنهم مع ذلك لا يحركونها إلا ضمن إطار الجائز شرعا بل الواجب، ولا يرسلونها انتقامًا لأنفسهم أو تحقيقًا لغضبهم! ومنهم أمير المؤمنين عليه السلام. فهو صاحب «لا فتى إلا عليٌّ لا سيف إلا ذو الفقار» و«برز الإيمان كله إلى الشرك كله». ولكنه في الموارد التي ليس مأمورًا فيها بسل السيف بل هو مأمور شرعًا بإغماده، لا يستطيع أن يتخذ قرارًا بحظ النفس وإنما هو يقرر ضمن أمر الشرع، والحكمة.

إننا نعتقد أن بطولة عليٍّ عليه السلام كانت هي البطولة المنضبطة ضمن إطار أهدافه، بل قوته هي في انضباط قوته، ولذلك لما رأى أن مصلحة الدين تقتضي ألّا يقاوم تيار الخلافة، فعل ذلك وقعد.

بل لا مانع لديه أن يكون مظلوما كما أجاب معاوية بن أبي

سفيان «.. وقلت: إني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع، ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت، وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكا في دينه، ولا مرتابًا في يقينه..»[1].

لم يكن صلوات الله عليه عاجزًا، وإنما كان حكمه الشرعي ألا يفجر الحرب الأهلية بين المسلمين، مع تربص الأعداء بدولة النبي وتحينهم الفرصة للقضاء على إنجازاته صلى الله عليه وآله وسلم.

تماما مثلما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقيدا في الفترة المكية ألّا يقاتل وألّا يدفع المسلمين إلى القتال والمقاومة، وإنما إلى الصبر مهما ارتكب منهم، ثم إلى الهرب بدينهم والهجرة من وطنهم، بل هو صلوات الله عليه وآله، كان من أوائل المهاجرين بعد أن أمر المؤمنين به بذلك.

فلماذا لم يقاوم النبي ويقاتل الكفّار في مكة، والله قادر على نصره؟ السبب أنه لم تأت أحكام القتال ولم يحصل تحقق في الظروف الخارجية إلى أن جاءت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (*) ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2].

(1) ابن حمدون: التذكرة الحمدونية7/ 166، والطبرسي في الاحتجاج: مصدر سابق.

(2) سورة الحج: 39 ـ 40.

4/ إن بعض الباحثين يعتقد أن طرف الخلافة كان مستعدا للذهاب في أمر السيطرة إلى آخر المشوار فلا مانع عنده أن يقتل المعارضين إن لم يبايعوا (!!) مهما تكلف الأمر وكأن القضية قضية موت أو حياة! ويظهر هذا من الطريقة التي تعاملوا بها مع سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار في المدينة والشخصية الأكبر فيهم حينئذ، فقد أمروا أنصارهم بأن «اقتلوه قتله الله ثم قام بعضهم على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك»! وبعد فترة قصيرة «قتلته الجن»[1]!!

وقد تمَّ تهديد الإمام أكثر من مرة بأنه سيقتل! فإما كان على الإمام أن يذهب معهم في المشوار إلى آخره مهما حصل وعلى طريقة (عليّ وعلى أعدائي)، فإما قاتل أو مقتول! وهو ما حذر منه سعد بن بشير جهاز الخلافة في شأن قتل سعد بن عبادة علانية، كما مر في الصفحات السابقة، فإنه لولا إشعارهم بأن مقتله سيؤدي إلى مقتل من معه، لربما لم يتوقفوا عن قتله علانية.

(1) زعموا أن سعدَ بن عبادة قد قتلته الجن وأنشدوا على لسانها أبياتا في هذا المعنى، ولأن الأمر أشبه بالنكتة، فقد قال مؤمن الطاق (عبد الله بن جندب) وكان ممن يناظر في الإمامة وشؤونها، لسائل سأله: ما منع عليًّا أن يخاصم أبا بكر في الخلافة؟ فقال: يا بن أخي، خاف أن تقتله الجن!! كما نقل ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة17/ 223.. وقد عقب عليه ابن أبي الحديد بقول: أما أنا فلا أعتقد أن الجن قتلت سعدًا، ولا أن هذا شعر الجن، ولا أرتاب أن البشر قتلوه، وأن هذا الشعر شعر البشر.. الى آخر كلامه.

5/ إن هناك من الروايات ما يفيد بأن الإمام عليه السلام قد واجه القوم[1] لكن لا إلى الحد الذي يصنع معركة عسكرية ويسال فيه الدماء، وأن عدم تصعيده ومواجهته التامة لهم كانت على أثر «كتاب سبق» وعهد وتوجيه حصل من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تماما مثلما كان هناك توجيه لرسول الله من ربه بأن لا يواجه قوم قريش في مكة إلى حد القتال.

وعلى كل تقدير فإن عليًّا عليه السلام كان يعمل ويتحرك من خلال الحكمة التي تقتضي ألّا يستسلم لنداء القوة المجردة وأن يقلبها على رأسها مهما حصل! حتى لو قتل وإنما أن يحسبها بشكل دقيق. ولا ريب أن الذي صنعه أمير المؤمنين عليه السلام وإن كان مؤلمًا للغاية، وهو ما عبرت عنه الصديقة الزهراء، إلا أنه كان في الوقت نفسه له أبلغ الأثر في بقاء الدين والشريعة المحمدية.

(1) الهلالي؛ سليم بن قيس: كتاب سليم بن قيس 2/ 38 فَوَثَبَ عَلِيٌّ عليه السلام فَأَخَذَ بِتَلَابِيبِهِ ثُمَّ نَتَرَهُ فَصَرَعَهُ وَوَجَأَ أَنْفَهُ وَرَقَبَتَهُ وَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَذَكَرَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَمَا أَوْصَاهُ بِهِ فَقَالَ وَالَّذِي كَرَّمَ مُحَمَّدًا بِالنُّبُوَّةِ لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ وَعَهْدٌ عَهِدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لَعَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تَدْخُلُ بَيْتِي..

مناقب الزهراء
وتنكر الاتجاه الأموي

ينكر البعض مقامات الأنبياء والمرسلين والأوصياء والمعصومين، ولكن بدرجات متفاوتة فقد يقبل منزلة للنبي ولكنه لا يقبلها في الوصي، وهكذا.

والنبي أو الوصي الذي يستكثر عليه هذه المرتبة أو تلك لا يتضرر بجهل الآخرين منزلته وإنما المتضرر هو جاهل تلك المنزلة والغائب عن إدراكها، فإنه بمقدار ما (يعرف) الشخص النبي أو الوصي فإنه بنفس المقدار سيزداد اعتقاده به وإيمانه، وربما اقتداؤه وتأسيه به. تمامًا مثلما أنّ الشخص كلما ازداد معرفة بالله تعالى، ازداد خوفه منه ورجاؤه إيّاه، وتعظيمه في نفسه وطاعته. فقد ورد في الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه»[1] وفي

(1) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: علل الشرائع 1/ 47.

حديث آخر يبين الجهة السلبية لعدم المعرفة، فقد قال قوم للإمام الصادق عليه السلام: ندعو فلا يُستجاب لنا؟ قال: لأنّكم تدعون من لا تعرفونه»[1] وبالطبع ليس المقصود هنا من لا تعرفونه أصلا، وإنما من لا تعرفونه كما ينبغي.

ولهذا السبب كانت درجات العباد تتفاوت بأمور؛ منها درجة معرفتهم لله تعالى ثم للنبي وبعده للوصي!

وإنكار المراتب العالية والمقامات السامية للذوات المقدسة تارة يتخذ شعار العقلنة، وأخرى التجديد في الثقافة، وتارة ثالثة الانعتاق من الموروث الديني.. وهكذا! وسيأتي ذكر بعض الأسباب الداعية إليه.

والأمر أوضح حين يتعلق بمراتب ومقامات الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام. فإننا رأينا التنكر من قبل أتباع النهج الأموي لهذه المقامات والفضائل بشكل واضح.. حتى أن رواياتها ترمى بالغلو تارة وبالكذب والوضع أخرى!

ويهمنا هنا أن نشير إلى بعض أسباب ذلك التنكر والرفض:

(1) الصدوق: التوحيد 289.

1/ اختلاف مصادر المرجعية الدينية في المدرسة:

وذلك أن كل فئة لها مدرسة خاصة ومصادر فكرية ومرجعية دينية، تعتمدها فتثبت ما تثبته وترفض ما لا تثبته، فمثلاً عندما نتحدث عن عظمة النبي ﷺ وعصمته وأنه أول الخلائق منزلة وعظمة، وأن اصطفاءه واختياره للنبوة كان وآدم منجدل في طينته.. فإن كل ذلك مما لا يتعقله المسيحي واليهودي، فإنهما حتى لو كانا ـ فرضًا ـ يعتقدان بأنه من رسل الله، إلا أنهما لا يعتقدان فيه هذه المراتب والدرجات!

وبنفس الصورة يكون غير الشيعي الذي مصادره لا تحتوي على منازل ومقامات المعصومين الأربعة عشر، إلا بالنحو اليسير، بل هو يتعامل معهم باعتبارهم أناسًا عاديين! وفي أحسن الفروض على أنهم علماء متقون ورواة صادقون! ولكنهم في باقي القضايا كسائر الناس لا يمتازون عنهم بشيء!

وقد التفت لهذه الجهة شيعة أهل البيت عليهم السلام، فحاولوا إثبات المقامات والفضائل للمعصومين وخصوصًا السيدة الزهراء من كتب خصومهم، ومن مصادر مدرسة الخلفاء.

وقد ظن بعض من لا دراية له، أن هذا دليل على أن الشيعة لا يعتقدون بكتب مدرستهم الخاصة، ولا يثقون بها وإنما يثقون

بمصداقية كتب مدرسة الخلفاء ولذلك يستدلون بها! وهذا توهمٌ وقلة معرفة فإن من أصول النقاش المذهبي والجدل وقواعد الالزام هو أن تستدل على الخصم بما يقبله هو، لا بما لا يقبله! ومن المعلوم أن أتباع مدرسة الخلفاء لا يقبلون أحاديث الأئمة كحجة شرعية. فكان المناسب أن يُحتج عليهم بما هو ثابت عندهم.

2/ محدودية البشر في مقاييسهم:

فإنه لما كانت هذه المناقب والدرجات تنتمي إلى عالم الغيب، وكان الانسان في هذه الحياة محدودا بحدود الحواس الخمس وأقصى آفاقه لا تصل إلا إلى حاجاته عادة؛ حيث تمَّ تزويده ليعيش في هذه الدنيا ضمن هذه الحواس وبمقدارها! فكانت آفاق الغيب وعوالمه بعيدة عن هذه المقاييس وأكبر منها.

بل إنه حتى في حدود دائرة الشهود والواقع الخارجي لم يعطَ من الإمكانات إلا بمقدار ما يحتاج إليه، فبصره لا يستطيع أن يكتشف ما كان على بعد عشرات الكيلومترات، وأذنه لا تستطيع أن تسمع دبيب النمل أو خطاب الحشرات فيما بينها ولا يسمع صوت الأرض وهي تتحرك أو الأجرام وهي تدور! هذا في الواقع الخارجي المشاهد والمعاين! فكيف يستطيع أن يتعامل مع قضايا الغيب والتي لا يمكن تناولها بهذه الحواس أصلًا؟

نعم وضع الله سبحانه طريقًا للإيمان بذلك هو طريق السمع من الأنبياء والأوصياء الصادقين، وهو جزء من الإيمان به سبحانه وبهم. فإذا قال النبي محمد ﷺ: إن فاطمة سيدة نساء العالمين، أو أن نورها خلق قبل خلق السماوات والأرض أو أن مهرها هو خمس الأرض! فسواء كان هذا متوافقًا مع استيعاب البشر أو لم يكن، ينبغي تصديقه ما دام قد ورد بطرق معتبرة عن النبي محمد ﷺ، وعن أهل البيت فيما يعتقده الشيعة حيث لا يفرقون بين قولهم وقوله.

3/ اختلاط الصحيح من المناقب بالسقيم:

فقد عمل الأعداء لتشويه صورة الدين ورموزه على وضع أخبار غير صحيحة فيما يرتبط بالمناقب، وسربوها إلى المصادر الحديثية في الطائفتين، وهذا أدى إلى اختلاطها بالصحيح من الروايات، على نحو يعسر فيه الفرز بينهما من قبل عامة الناس؛ فأثّر هذا على المناقب الصحيحة والروايات السليمة بحيث أصبح كل حديث يأتي فيه احتمال أن يكون موضوعًا أو كذبًا.

وهكذا فعل الغلاة في تاريخ المسلمين، فقد كان تيار الغلو موجودا بل لا يزال كذلك. وقد قام هذا التيار بدور سيئ في وضع الروايات الباطلة أو تفسير الروايات الصحيحة بنحو غير صحيح.

وقد أثر الفعل القبيح لهذين الفريقين في رد روايات المناقب والمراتب العالية لرموز الدين، وشخصياته العظيمة.

4/ القياس على الذات:

قسم من الناس يعرفون الآخرين بمقاساتهم هم، ويظنون أن ما عند الآخرين لا يزيد عليهم، وأن ما يخضع له هؤلاء يخضع له الآخرون، ولأنه لا يرى فاصلة كبيرة بينه وبين الذوات المقدسة، لذلك لا يستطيع أن يتعقل مراتب تلك الذوات! فكيف يستطيع أن يتصور أن فاطمة قد خلقت من طعام الجنة؟ وأنها حوراء إنسية؟ وأنها معصومة من كل زلل؟ وأنها يشرق نورها كما تشرق الكواكب الدرية لأهل الأرض؟

وهي في الواقع نفس عقلية ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]. فإذا كان الشخص يعرف نفسه، ويعرف خضوعه لهواه، ومعصيته ربه، وتقصيره وقصوره.. فإنه غالبًا لا يتوقع تصديقه بأن هذا المعصوم أو ذاك قد وهب الله من القدرة والولاية ما يحير العقول!

(1) المؤمنون: 24.

الاتجاه الأموي المتنكر لفضائل المعصومين:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره وهو ـ بشكل كامل أو جزئي ـ قد يحصل بشكل طبيعي، فإننا نشهد أن هناك اتجاهًا (في التاريخ الإسلامي بين المحدثين والرجاليين، أطلقنا عليه عنوان الاتجاه الأموي (مع أنه لا يتوقف في حدود أيام الدولة الأموية) كان يتعمد ـ بشكل واضح ـ محو وإنكار فضائل ومناقب المعصومين الثلاثة عشر (باستثناء الرسول ﷺ) منطلقا في ذلك من خلفيات عقائدية، واتجاهات مذهبية، فهم في البداية رفضوا أن ينقلوا هذه الأخبار والمناقب في كتبهم حتى تُنسى بتقادم الأيام، وما بقي على رغمهم تعاملوا معه بشكل خاص فإذا رأى فضيلة في أحدهم قد تمس الموضوع العقائدي أو تشير إلى الإمامة أو إلى اختصاص الله لأسرة النبي وعترته، أو إلى وصايته لهم، أو لتخطئة مخالفيهم، أو تعلي منازلهم فإنه يصيبهم ما يشبه الجنون في السعي لنفيها وتكذيبها بشتى الوسائل والطرق.

وقد تعرضت مناقب الزهراء وفضائلها لهذا الأمور مجتمعة:

1/ فقد تمَّ إخفاء أحاديثها عن النبي وأحاديثه في فضلها! فإنك لتعجب أن فاطمة التي عاشت مع النبي لصيقة به، إذ هي ابنته وبضعته ومهجة قلبه، بل روحه التي بين جنبيه، مدة هي عند

أتباع مدرسة الخلفاء تصل إلى ثماني وعشرين سنة (حيث قالوا إنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات) ومع ذلك فكل الذي نقلته عن رسول الله من الأحاديث في صحاحهم هو حديث واحد لا غير! ونحن لو فرضنا أنها سمعت من أبيها من حين أصبحت بعمر السادسة إلى نهاية حياتها في كل يوم حديثًا واحدًا لبلغت أحاديثها عنه قرابة ثمانية آلاف! كيف؟ وقد رأينا بعض رواتهم لم يصاحبوه غير سنة ونصف فإذا بهم يروون عنهم نحو خمسة آلاف حديث! والصديقة الزهراء الملازمة له مذ كان في مكة يروون عنها حديثًا واحدًا![1].

وأما الأحاديث التي جاءت عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فإما أنهم ضعفوها أو وهنوها أو صرفوها عن معانيها الحقيقية أو غيروا مناسباتها.

ومن أمثلة الحذف ما صنعوه في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم «كمل من

(1) وأعجب من الفعل نفسه تبريره وتعليله! فقد جاء في جواب أحدهم على سؤال سائلة بأن: الأحاديث الموجودة في صحيح البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من كتب الأحاديث الصحيحة لا أعرف غير حديث واحد لفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأجاب: بأن السبب في قلة أحاديث فاطمة عليها السلام هو أنها لم تعش طويلًا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تتمكن من رواية ما سمعته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كغيرها من الصحابة المعمرين؟؟ ونقول للمجيب: هل كان ضروريا أن يتوفى النبي حتى تروي عنه فاطمة؟ لماذا لم ترو أحاديثه وهو على قيد الحياة؟ لماذا لم تعلم النساء ما كان يعلمها أبوها؟

https://www.islamweb.net>fatwa

الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد..»[1] لكن هذا الحديث عندما صار في صحيح البخاري اختفت منه خديجة وفاطمة!!

وجاء ابن كثير في تفسيره ليجعل الكاملات ثلاث نساء مستكثرًا على فاطمة أن تكون بينهن فقد نقل الحديث هكذا «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد!!.

2/ وفي مقابل ذلك نظرنا أنهم نقلوا عن رسول الله ﷺ ما قد يستفيد منه السامع أو القارئ شيئًا من الذم لفاطمة! وذلك مثل زعمهم أن رسول الله قال لها: لَمّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:

(1) الزيلعي، جمال الدين (ت 762) تخريج أحاديث الكشاف 4/ 67 وقال: قلت رَواهُ أَبُو نعيم فِي الحِلْية وبِهَذا السَّنَد والمتن رَواهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره، ورَوى ابْن حبان فِي صَحِيحه والحاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث ابْن عَبّاس قالَ: قالَ رَسُول الله ﷺ أفضل نساء العالمين أربع ... فَذَكرهنَّ وصَححهُ الحاكِم، ورَواهُ الباقُونَ إلّا مُسلما فالتِّرمِذِي وابْن ماجة فِي الأطْعِمَة والنَّسائِيّ فِي المناقب.
والحَدِيث رَواهُ البُخارِيّ فِي صَحِيحه لَيْسَ فِيهِ خَدِيجَة ولا فاطِمَة رَواهُ فِي بَدْء الخلق فِي باب قَوْله تَعالى وضرب الله مثلًا للَّذين آمنُوا امْرَأة فِرْعَوْن ... من حَدِيث مرّة الهَمدانِي عَن أبي مُوسى قالَ قالَ رَسُول الله ﷺ كمل من الرِّجال كثير ولم يكمل من النِّساء إلّا آسِيَة امْرَأة فِرْعَوْن ومَرْيَم ابنة عمران وإن فضل عائِشَة عَلى النِّساء كفضل الثَّرِيد عَلى سائِر الطَّعام انْتَهى..

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] «يا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، يا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ إنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِن مالِي ما شِئْتُمْ»[2]. وفي نص آخر: يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار!

ومثل هذا الحديث في ظلاله الملتبسة، والتي تشير إلى أنها وهي سيدة نساء العالمين وكأنها على وشك الوقوع في النار ولا بدَّ أن تنقذ نفسها وأن عليها ألّا تعتمد على أبيها وقرابتها منه.. إلى آخر هذه المعزوفة السيئة التي قالها بعضهم على أنها (استفادات) من الحديث!!

مثل هذا الحديث أحاديث أخر؛ تشير إلى أن فاطمة عملت أعمالًا كادت تمنعها من الجنة؛ مثل ما نقل عن عبد الله بن عمرو بن العاص ناسبًا إياه إلى النبي حيث قال: «بينما نحن نمشي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ بصر بامرأة لا نظن أنه عرفها، فلما توجهنا إلى

(1) سورة الشعراء: 214.

(2) الطبري، أبو جعفر (ت 310) تفسير الطبري 17/ 654 ولنا أن نسأل الطبري الناقل: كيف يقول النبي لفاطمة لا أملك لك من الله شيئًا، والحال أن ولادتها كانت بعد بداية البعثة بنحو خمس سنوات على رأي الإمامية وقد تقدم ذكره. وحديث الإنذار والآية المباركة كانت في بداية البعثة، فكيف يخاطبها بأن تنقذ نفسها من النار وهي لم تولد بعد؟ بل حتى لو صدقنا ما قاله مؤرخو مدرسة الخلفاء من أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات سيكون عمرها حين آية الإنذار ست سنوات.. وهي غير مكلفة ولا مخاطبة بالخطابات فماذا يعني أن يقول لها أنقذي نفسك من النار؟

الطريق وقف حتى انتهت إليه، فإذا فاطمة ﷺ فقال: ما أخرجك من بيتك يا فاطمة؟ قالت: أتيت أهل هذا البيت فرحمت إليهم ميتهم وعزيتهم، فقال: لعلكِ بلغتِ معهم الكُدى (المقبرة)، قالت: معاذ الله أن أكون قد بلغتها معهم وقد سمعتك تذكر في ذلك ما تذكر. قال: لو بلغتِها ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك»[1].

ولم يجدوا لتدريس الناشئة في صفوف الابتدائية والمتوسطة من حديث يناسب فاطمة إلا أنها لو سرقت (!) لقطع محمد يدها فترى هذا الحديث الذي زعموه عن رسول ﷺ من أنه قال: «أيُّها النّاسُ، إنَّما هَلَكَ الَّذِينَ كانُوا مِن قَبْلِكُمْ أنَّهُمْ كانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ

(1) بن حنبل؛ أحمد (ت 241) مسند أحمد مخرجا 11/ 137 وفي هذا الحديث من الملاحظات ما يطول الكلام بذكره بكامله ولكن نشير لبعضها، فمنها ما يتنزه عنه النبي (جل مقامه) من الأسلوب في آخر الكلام، أنه لا ترى فاطمة الجنة حتى يراها جد أبيها، وهذا في العرف العام نوع من الشتم والتهجم يجل عنه ويتنزه عنه مقام رسول الله. بالإضافة إلى أنه يستتبع الإقرار بأن عبد المطلب ﷺ لا يدخل الجنة (وهذا على ما يراه أتباع النهج الأموي واقع) بينما يرى الإمامية وأكثر المسلمين غير ذلك، وللتفصيل يراجع كتابنا: أعلام من الأسرة النبوية. ومن الملاحظات أن المسلمين لا يتصورون أن يحرم مسلم من الجنة لأنه قام بالذهاب إلى المقبرة، فإن غاية ذلك أن يكون قد أتى بمكروه أو محرم، وهو لا يستوجب الحرمان من الجنة! وثالثا فإن فاطمة عليها السلام كانت تذهب لزيارة قبر أبيها، ولزيارة قبر عمها حمزة كما هو الثابت عند الفريقين فهل يعني ذلك أنها لا تدخل الجنة والحال أنها سيدة نساء الجنة؟ إن من يقرأ هذا الحديث ثم يجد أنها عليها السلام كانت تزور مقبرة شهداء أحد لزيارة عمها حمزة وقد بلغت (الكُدى) ماذا يقول عنها؟

لَوْ أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَها»[1] منهجًا دراسيًا مقررًا، ودرسًا محفوظًا.

3/ وأما تكذيب الأحاديث الواردة في فضائلها فيحتاج إلى تخصيص كتاب حول هذا الموضوع لكننا نورد بعض الأمثلة على ذلك:

فمنها تكذيبهم الحديث المروي عنْ أمير المؤمنين عَلِيٍّ عليه السلام قالَ: «قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لِفاطِمَةَ: «إنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ لِغَضَبِكِ، ويَرْضى لِرِضاكِ»[2]. لكن ابن تيمية الذي رأى أن مدلول هذا الحديث خطر على عقيدته المذهبية وكذا الذهبي[3]، لا سيما مع ما ثبت في صحاحهم من أنها ماتت غاضبة على رموزهم وأئمتهم وهذا يقتضي أن يكون الله كذلك غاضبًا، فلا سبيل لهم إلا تضعيف الحديث وجعله موضوعًا وكذبًا إلى غير ذلك..

(1) السنن الصغير للبيهقي 3/ 320 ـ أبو بكر البيهقي (ت 458) ويهش له بعضهم ويغتبط بأن النبي لا يجامل في الحق أحدا وأنه يجري الحدود حتى على أقرب الناس إليه!

(2) الطبراني؛ أبو القاسم (ت 360) المعجم الكبير 1/ 108 ومعجم أبي يعلى الموصلي (ت 307) 1/ 190 والحاكم النيسابوري، في المستدرك 3/ 154وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

(3) (فقال ابن تيمية (728هـ) في كتابه منهاج السنة 4/ 249 تعليقا عليه: هذا كذب منه (العلامة الحلي)! ما رووا هذا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعرف هذا في شيء من كتب الحديث المعروفة ولا له إسناد معروف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا صحيح ولا حسن!!.
وأما شمس الدين الذهبي (ت 748) فقال بعد أن نقل كلام النيشابوري في أنه حديث صحيح، قُلْتُ (الذهبي): بَلْ غَيْرُ صَحِيحٍ، وحُسَيْنٌ تالِفٌ.

بل الأسوأ من هذا أنهم غيروا اتجاهه وصنعوا له مناسبة[1] فجعلوا عليًّا هو الذي آذى فاطمة وأغضبها وآذى رسول الله بالتالي!! فانظر إلى تنمر الاتجاه الأموي على آل بيت النبي.

ومنها تكذيب خبر تزويجها عليًّا: حيث قال رسول الله «إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي»، وقد نقلنا تفصيله في الحديث عن تزويجها سلام الله عليها، وأن ذلك كان عن أمر الله «وهذه فضيلة اختص بها علي وفاطمة وقد كان خطبها جماعة من أعيان الصحابة ويجيب عليهم الرسول ﷺ بأنه منتظر للوحي فيها»[2].

ولأن للحديث دلالاته المهمة التي تحدثنا عنها سابقًا، لذلك اعلن الخط الأموي قديمًا وحديثًا حالة الاستنفار لرفضه وتضعيفه، وفي أسوأ الأحوال تقصيصه واختصاره إلى الحد الذي

(1) ابن تيمية: المصدر السابق 4/ 250 وأمّا قَوْلُهُ: رَوَوْا جَمِيعًا «أَنَّ فاطِمَةَ بِضْعَةٌ مِنِّي مَن آذاها آذانِي، ومَن آذانِي آذى الله «فإن هَذا الحَدِيثَ لَمْ يُرْوَ بِهَذا اللَّفْظِ، بَلْ [رُوِيَ] بِغَيْرِهِ، كَما رُوِيَ فِي سِياقِ حَدِيثِ خِطْبَةِ عَلِيٍّ لِابْنَةِ أَبِي جَهْلٍ، لَمّا قامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا فَقالَ: «إنَّ بَنِي هِشامِ بْنِ المُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يَنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالِبٍ، وإنِّي لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، إنَّما فاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يُرِيبُنِي ما رابَها، ويُؤْذِينِي ما آذاها، إلّا أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِي طالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي ويَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ».
أقول: قد ذكر المحدثون والمصنفون الكثير عن فرية هذه الحادثة وكذبها! بل والنتائج الخطيرة المترتبة على نسبة عدم رضا النبي بتشريع جاء به من عند ربه، لو فرض جدلًا صحة الحديث وهو غير صحيح.

(2) الصنعاني (ت 1182): التنوير شرح الجامع الصغير 3/ 277. والحديث قد نقله ـ بصور متعددة ـ المحدثون وقال فيه نور الدين الهيثمي (ت 807) في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 9/ 204: رَواهُ الطَّبَرانِيُّ، ورِجالُهُ ثِقاتٌ. وذكره الحاكم في المستدرك 2 / 181بعد جعله خفيف الدسم، وحذف ما يخالف عقائد مذهبهم، «هَذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ولَمْ يُخَرِّجاهُ».. ولعلك تعلم أيها القارئ لماذا لم يخرّجاه!

يبقى بلا لون ولا طعم ولا رائحة.. فيصبح الحديث حكاية أن فلانًا وفلانًا خطباها فقال النبي: إنها صغيرة![1] وانتهى الأمر..

وبناء على ذلك فقد حكم ابن الجوزي (ت 597) عليه بالوضع وقال: هذا حديث موضوع[2] وزاد عليه الذهبي نغمة، فقال: وهَذا مَوْضُوع فِيهِ من الركة أشياء[3].

وهذه الأحاديث غيض من فيض وقطرة من بحر فيما يفعله الاتجاه الأموي في التنكر لأحاديث مناقب أهل البيت عليهم السلام سواء بإلغائها من الأصل وعدم نقلها، أو بتضعيف المنقول منها، أو بتغيير نصوص تلك الأحاديث واللعب بألفاظها واختصارها أو الزيادة فيها، أو تغيير مناسباتها وهكذا..

وهذا باب يستحق أن يكتب فيه بالتفصيل وبالشواهد، ولعل الله سبحانه يوفق أحد الباحثين وأهل العلم للبحث فيه فيكون نافعًا ومفيدًا للأمة.

(1) نذكر بالعودة إلى العنوان الخاص بزواجها، وقلنا فيه: إنهم نسوا هنا (!) قولهم هناك أن ولادتها كانت قبل البعثة بخمس سنين فيكون عمرها الآن نحو 19 سنة! فكيف تكون صغيرة؟ فهل كان النبي لا يعرف سن ابنته؟ أو كان ـ نعوذ بالله ـ غير صادق في ذلك وكيف سمح لنفسه أن يتزوج عائشة وهي بنت التسع كما قالوا ولم يقبل ذلك في حق بنته؟ إلى آخر الأسئلة التي وجهناها في موضعها.

(2) الموضوعات لابن الجوزي 1/ 418

(3) الذهبي، شمس الدين: تلخيص كتاب الموضوعات 1/ 148. وكذلك ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (1566) والسلسلة الضعيفة (1549).أقول: نحن لا نرى فيه من الركة إلا أنه يصدم عقيدتهم فماذا يعني أن يردهم النبي وهو القائل: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه..» لولا أن أمر التزويج بها كان سماويًا ربانيًا؟

أسانيد خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام

روى المحدثون أنه لما أجمع القوم على منعها فدكًا، جاءت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى المسجد في لُمة من حفدتها، حتى إذا وصلت نيطت بينها وبين القوم مُلاءة، فأنّت أنّة ثم قالت: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام نِعَمٍ أولاها، جلّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها».

من خلال الخطبة التي أنشأتها الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتي عرفت فيما بعد بالخطبة الفدكية بالرغم من أنها لم تذكر فدكا فيها! ـ سوف نتعرض إلى جملة من العقائد التي يؤمن بها أتباع أهل البيت عليهم السلام الشيعة الإمامية، حيث تناولت في هذه الخطبة شيئًا عن صفات الله عز وجل وخلقه الكون والأشياء، كما تعرضت أيضًا إلى شخصية والدها النبي محمد المصطفى صلوات الله عليه، وبيئته التي كان فيها، ومقدار الجهد الذي بذله في سبيل تأسيس الإسلام، ثم إنها أيضًا

شخصت الخطوط التي كانت في زمان النبي، ومن خلالها يمكن رصد نشوء التشيع للإمام علي عليه السلام، وعرف فيما بعد وتبلور باسم (الشيعة).. وأيضًا حديثها المبكر عن مقاصد التشريع الإسلامي، حيث نلتقي مع نص من أقدم النصوص بعد القرآن وحديث النبي والوصي حول أهداف العبادات والتشريعات الإسلامية عموما.. وفي الأخير نرى محاكمة رصينة منها عليها السلام، لمنهج الخلافة الأولى التي أرادت، بحديث عليه ملاحظات، تأسيس حكم شرعي خاص في موضوع الميراث، وحجب ميراث فاطمة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم.. ونتعلم من كلماتها طريق الاستدلال الفقهي على هذا الموضوع.

ومن الضروري بصورة منهجية أن نقدم مقدمة تثبت انتساب هذه الخطبة إلى السيدة الزهراء عليها السلام؛ فإن هذا ضروري، لمن كان يعتقد بعصمتها كما يرى ذلك أتباع أهل البيت، حيث تكون فقراتها مع ثبوت النسبة من ضمن الأدلة الشرعية باعتبارها تدخل ضمن دائرة السنة[1] بل وحتى من لا يعتقد بعصمتها فإن من الضروري ثبوت نسبة الخطبة لها، باعتبارها أنها ستدخل حينئذ

(1) يعتقد المسلمون عموما بحجية السنة وكونها من مثبتات الأحكام الشرعية، وبينما يقتصر أتباع مدرسة الخلفاء على سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يعمم شيعة أهل البيت عليهم السلام الأمر ليشمل فاطمة الزهراء والأئمة الاثني عشر، ويلتزمون لهم بالعصمة.

في قول الصحابي والصحابية وهو عند المدرسة الأخرى أيضًا من مثبتات الأحكام، وفي أقل الفروض فإنها ستكون شهادة عيان على ذلك العصر وما جرى فيه، ومواقف الأطراف المختلفة فيه.

حقيقة نسبة الخطبة للزهراء عليها السلام :

يلحظ الناظر أن هناك توجها من قبل مخالفي المدرسة الإمامية، ينفي أو يشكك في ثبوت نسبة الخطبة للزهراء عليها السلام، ويُعتقَد أن هذا التشكيك ليس منطلقًا من واقع تاريخي أو قرائن واضحة على النفي وإنما هو راجع كما يعتقد باحثون إلى جهة عقدية، تكون محرجة أمام ثبوت مضامين هذه الخطبة، حيث تعارض مسلمات عقدية، وأفكار تقوم عليها تلك المدرسة.. ومن نفس المنطلق كانت هذه الفئة تنفي ارتباط المنقول في نهج البلاغة، بالإمام علي عليه السلام[1].

ولنفس الأسباب التي دعت إلى إنكار نسبة النهج إلى الإمام، والتشكيك في ذلك، فقد تم التشكيك في انتساب خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام.. وتلك الأسباب منها ما يرتبط بالعقائد العامة (كالتوحيد وصفات الله تعالى، كما هو الحال في نهج البلاغة

(1) قيل أن أول من أشار إلى التشكيك في انتساب كلمات (نهج البلاغة) الذي ألفه الشريف الرضي ت 406 هـ إلى الإمام علي عليه السلام كان: ابن خلكان ت 681 هـ.. وتابعه في ذلك الذهبي ت 748 هـ..

حيث فيه من الخطب ما يخالف التوجه الرسمي لمدرسة الخلفاء في صفات الله وتوحيده، ونفس الكلام يأتي في خطبة الزهراء عليها السلام كما سنشير لذلك..) وأيضًا العقائد بالمعنى الخاص المذهبي، ففي نهج البلاغة في مواضع كثيرة، بيّن الإمام علي عليه السلام تقدمه وأفضليته على من سبقه بل على جميع أصحاب النبي، كما بيّن في نفس الوقت خطأ تصدي من سبقه للخلافة، وتحليله للأوضاع التي آلت إليها الأمة على أثر ذلك. ولا سيما في الخطبة المعروفة بالشقشقية. وهذا بعينه يجري هنا في قضية فاطمة ومحاكمتها الخليفة بين الملأ بالبرهان والدليل.. كما سنشير إليه أيضًا.

فمن الطبيعي أنه لا يسمح بنشر ما يخالف التوجه الرسمي الذي تم وضع التاريخ وكتابته على أساسه، وكان من الإنصاف لو تم أخذ وجهة النظر المغايرة بعين الاعتبار وموازنة الأمرين واصلاح الخطأ، إلا أنه وللأسف بدلًا من ذلك، تم إشهار ذلك التوجه الرسمي والتعمية على الرأي الآخر المغاير بل تكذيب صدوره، فإن اصحاب هذا التوجه لا يستطيعون أن يغضوا من شأن أمير المؤمنين علي عليه السلام، وإن حاولوا.. ولا يمكن لهم أن يقولوا لا يهمنا كلام علي بن أبي طالب!! فهو في الحد الأدنى

عندهم صحابي، وخليفة راشد! وإن حاولوا ذلك بالنسبة لفاطمة حيث قالوا هي ليست معصومة وإنما النساء عاطفيات تغلبهن المشاعر!!

المهم: أننا سوف نرى من القرائن ما يثبت انتساب الخطبة للسيدة الزهراء عليها السلام، من خلال ذكر عدة نقاط:

الأولى: هل البرهان العقلي يحتاج إلى سند لإثباته؟

بالرغم إجهاد بعض المخالفين نفسه للخدش في أسانيد الخطبة.. إلا أن بعض الباحثين يقولون: إننا لا نحتاج إلى سند للخطبة في شأن الاحتجاج وهو الأمر الذي استأسد الطرف الآخر لنفيه وذلك لأن طريقة الاحتجاج والمناظرة لا تقوم على أساس النقول، والأخبار أو الأسانيد وإنما تقوم بشكل أساس على سلامة البرهان والدليل الذي يحتج به هذا الطرف أو ذاك! هذا هو قانون الاحتجاج والمناظرة والمحاكمة..

فإن برهان النظم ودلالته على التوحيد، ليس نابعا من أن الله قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1] وإنما لأن هذه المعادلة تامة، ومتى عرضتها على أي

(1) سورة الأنبياء: آية 22.

عقل سليم فإنه ينتهي إلى نفس النتيجة! وهي أن وجود الألهة المتعددة نتيجته خراب الكون، فما دام الكون صالحًا فلا بدَّ أن لا يكون هناك آلهة وإنما هو إله واحد. وسواء جاء به القرآن أو لم يأت به، فهذا القانون صحيح وسليم.

والدليل الذي قام على عصمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أنه لو لم يكن معصوما لكان صدور الذنب منه ممكنًا ـ كأن يكذب ويرتكب المحرمات بل أن يكفر بالله والعياذ بالله ـ. وفي هذا من نقض الغرض في رسالته ما هو واضح، بل لكان آحاد رعيته أفضل منه، ولكان عليه أن يتبعهم لا أن يتبعوه لو أذنب وهم غير مذنبين!

وهكذا عندما تناقش فاطمةُ الخليفة بأدلة قرآنية، وترد قوله الذي تفرد بنقله من أن الأنبياء لا يورثون أبناءهم، بآيات محكمات متعددة من القرآن الكريم تثبت فيها وراثة الأنبياء بعضهم من بعض وفيها إطلاق شامل للمال، بل المصداق الأبرز للإرث هو المال إذ النبوة ليست مما يورث! وحتى لو جاءت لابن نبي فليس لأجل الوراثة! فكم من أبناء الأنبياء وآبائهم لم ينالوا نبوة؟ فإذن هذا الاحتجاج ليس بمفتقر إلى أن يكون هناك سند له أو ليس له سند! لأن موضوع الاحتجاج عقلي وربما لهذا

السبب ولأسباب أخرى ترك الطبرسي[1] في كتابه الاحتجاج الاعتماد على الأسانيد، وجاء بالوقائع مجردة عن الأسانيد.

إذن هذا هو الرأي الأول الذي يقوله بعض العلماء بأننا لا نحتاج أساسًا في قضايا الاحتجاج والمناظرات والعقائد إلى سند وإنما نحتاج إلى نفس الدليل.

وربما لهذا السبب أثنى الإمام الصادق على كلام هشام بن الحكم، وحواره مع عمرو بن عبيد[2]، مع أنه لم يكن بحسب

(1) ذكره الشيخ عباس القمي في كتابه الكنى والألقاب 2/ 444 بما ملخصه: المحدث الثقة الجليل أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صاحب كتاب الاحتجاج على أهل اللجاج وهو كتاب معروف فعن المجلسي رحمه الله أنه قال وكتاب الاحتجاج وان كان أكثر اخباره مراسيل لكنه من الكتب المعروفة وقد أثنى السيد ابن طاووس على الكتاب وعلى مؤلفه وقد اخذ عنه أكثر المتأخرين قال رضي الله عنه وكثيرًا ما ينقل الشهيد في شرح الإرشاد فتاواه وأقواله انتهى. وله الكافي في الفقه وفضائل الزهراء عليها السلام وغير ذلك وهو من مشايخ ابن شهرآشوب المتوفى سنة 588.

(2) العلامة المجلسي؛ بحار الأنوار 58/ 248 عن مجالس الصدوق: كان عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام جماعة من أصحابه فيهم حمران بن أعين، ومؤمن الطاق وهشام بن سالم، والطيار، وجماعة من أصحابه فيهم هشام بن الحكم وهو شاب.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام، قال: لبيك يا بن رسول الله، قال: ألا تحدثني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ قال هشام: جعلت فداك يا بن رسول الله، إني اجلك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا. قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة. وعظم ذلك علي، فخرجت إليه ودخلت البصرة في يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة، وإذا أنا بعمرو بن عبيد عليه شملة سوداء متزر بها من صوف، وشملة مرتد بها. فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت: أيها العالم، أنا رجل غريب، تأذن لي فأسألك عن مسألة؟ قال: فقال: نعم، قال: قلت له: ألك عين؟ قال: يا بني أي شيء هذا من السؤال؟! فقلت: هكذا مسألتي. =

الفرض قد قرأه في كتاب أو نقله عن معصوم! فقد جاء هشام بن الحكم إلى الإمام الصادق عليه السلام ـ وهشام هذا هو أحد أصحاب الإمام ـ فقال له الإمام: أخبرني كيف صنعت مع عمرو بن عبيد ـ أحد المتكلمين من المدرسة الأخرى ـ في الاستدلال على الإمامة؟ فيقول قلت له: عندك يد؟ فقال نعم، عندي يد.

= فقال: يا بني سل وإن كانت مسألتك حمقاء. قلت: أجبني فيها، قال: فقال لي:
سل، قلت: ألك عين؟ قال: نعم، قلت: فما ترى بها؟ قال: الألوان والاشخاص. قال: قلت: فلك أنف؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أتشمم بها الرائحة.
قال: قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: وما تصنع به؟ قال: أعرف به طعم الأشياء. قال: قلت: ألك لسان؟ قال: نعم، قلت: وما تصنع به؟ قال: أتكلم به، قال: قلت: ألك اذن؟ قال: نعم، قلت: وما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الأصوات. قال: قلت: ألك يد؟ قال: نعم، قلت: وما تصنع بها؟ قال: أبطش بها. قال: قلت: ألك قلب؟ قال: نعم، قلت: وما تصنع به؟ قال: أميز كل ما ورد على هذه الجوارح. قال: قلت:
أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ قال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بني إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته أو لمسته رد ته إلى القلب فييقن اليقين ويبطل الشك. قال: فقلت: إنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم، قال: قلت: فلا بدَّ من القلب وإلا لم تستقم الجوارح؟
قال: نعم، قال: فقلت: يا أبا مروان إن الله ـ تعالى ذكره ـ لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح وييقن ما شك فيه ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماما يردون إليه شكهم وحيرتهم ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟! قال: فسكت ولم يقل شيئا. قال: ثم التفت إلي فقال: أنت هشام؟ فقلت: لا، فقال لي: أجالسته؟ فقلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: فأنت إذا هو، قال: ثم ضمني إليه وأقعدني في مجلسه وما نطق حتى قمت. فضحك أبو عبد الله الصادق عليه السلام ثم قال: يا هشام من علمك هذا؟ قال: قلت: يا ابن رسول الله جرى على لساني. قال: يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى.

فقال له: عندك عين؟ قال: نعم. قال له: ماذا تفعل بها؟ قال: كذا أصنع. قال له: عندك أنف؟ قال: نعم كذا أصنع به. قال له: عندك فم؟ قال: نعم كذا أصنع به. قال له: عندك قلب ـاي عقلـ قال: بلى. قال له: ما تفعل به. قال: يسيطر على كل هذه ويوجهها. قال له: موقع الإمام هو موقع القلب من البدن. العين ترى والأنف يشم واليد تبطش لكن يوجد هنالك ناظم يجمع هؤلاء ويحرك هذه حسب وظيفتها فموقع الإمام هو هكذا.

لم يكن هشام بن الحكم قد سمع نص هذا الكلام من أحد ولكن هذا الكلام منطقي ومبرهن لا يحتاج أن يقول أنا سمعته من الإمام وأنقله عبر الروايات والأسانيد، ومن هذا الباب ترك صاحب كتاب الاحتجاج الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي رضوان الله تعالى عليه الاعتماد على الأسانيد فقال في مقدمة كتابه:.. ولا نأتي في أكثر ما نورده من الأخبار بإسناده إما لوجود الإجماع عليه أو موافقته لما دلت العقول إليه، أو لاشتهاره في السير والكتب بين المخالف والمؤالف [1]..

(1) الطبرسي: الاحتجاج 1/ 10 مقدمة الكتاب.

الثانية: استفاضة الخطبة تغني عن تتبع سندها

يعتقد بعض الباحثين أن هذه الخطبة لا تحتاج إلى تحقيق السند نظرًا لكثرة الأسانيد وتظاهرها وتظافرها واشتهار الخطبة بحيث أصبح يستدل بها ولا يستدل عليها. ومن المعروف بين العلماء أن اشتهار كلام وتظافر رواياته، يكون من أقوى القرائن على صحة انتسابه، بل يراه البعض أقوى من ثبوته بسند واحد صحيح، وجهة ذلك أنه إذا تعددت الطرق، واشتهرت الرواية في الأجيال المختلفة تفيد علما عرفيا بانتسابها إلى قائلها، وهذا أقوى من صحة السند الذي يبقى في دائرة الظن - وإن كان معتبرًا - كما هو مفاد خبر الثقة.

سيأتي بعد قليل الإشارة إلى أن أهل اللغة تطرقوا إلى الخطبة وأشاروا إليها عند حديثهم عن عدد من الكلمات التي سبق وأن وردت في خطبة الزهراء عليها السلام، وأن الفقهاء أيضًا تعرضوا لها واستشهدوا بما ورد فيها مما يتصل بالأحكام الشرعية، وهكذا أهل التاريخ..

وأما أهل الحديث والرواية فقد ذكروا أن لها طرقًا كثيرةً، بعضها ينهيها إلى ابن عباس وبعضها ينهيها إلى زينب بنت أمير المؤمنين إلى فاطمة وهذه نفسها بعدة طرق أيضًا بعضها ينتهي

إلى زيد بن علي بن الحسين الشهيد وبعضها الآخر ينتهي إلى الإمام الباقر عليه السلام وبعضها إلى عبد الله بن الحسن من بني هاشم، بالإضافة ـ وهذا من الغريب ولم أعثر عليه ولكن مذكور في بعض الكتب ـ أن بعض هذه الطرق تنتهي إلى عائشة بنت أبي بكر، فإذاً هنالك طرق مختلفة متعددة متظافرة وآنئذ لا نحتاج إلى أن نروي بسند واحد عن فلان عن فلان عن فلان[1].

الثالثة: متن الخطبة يصحح سندها

مما يذكر في هذا الاتجاه أننا نستطيع تصحيح السند بالمتن.. فلو أردنا أن نأخذ مثلاً القرآن الكريم والذي جاء به سيد الأنبياء

(1) وقد صرح بذلك المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه أبو هريرة ص 139 فقال: السلف من بني علي وفاطمة يروى خطبتها في ذلك اليوم لمن بعده ومن بعده رواها لمن بعده، حتى انتهت إلينا يدا عن يد، فنحن الفاطميين نرويها عن آبائنا وآباؤنا يروونها عن آبائهم، وهكذا كانت الحال في جميع الأجيال إلى زمن الأئمة من أبناء علي وفاطمة ودونكموها في كتاب احتجاج الطبرسي وفي بحار الأنوار وقد أخرجها من أثبات الجمهور وأعلامهم أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة وفدك بطرق وأسانيد ينتهي بعضها إلى السيدة زينب بنت علي وفاطمة وبعضها إلى الإمام أبي جعفر محمد الباقر، وبعضها إلى عبد الله بن الحسن بن الحسن يرفعونها جميعا إلى الزهراء كما في ص 87 من المجلد الرابع من شرح النهج الحميدي، وأخرجها أيضًا أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني بالإسناد إلى عروة ابن الزبير عن عائشة ترفعها إلى الزهراء كما في ص 93 من المجلد الرابع من شرح النهج وأخرجها المرزباني أيضًا كما في ص 94 من المجلد المذكور بالإسناد إلى أبي الحسين زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده يبلغ بها فاطمة عليها السلام، ونقل ثمة عن زيد أنه قال رأيت مشائخ آل أبي طالب يروونها عن آبائهم ويعلمونها أولادهم..

محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كان العامل الرئيس في إثبات أنه من الله عز وجل أنه كلام معجز من حيث المعنى ومن حيث الصياغة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

وبالرغم من أن النبي كان عند الناس وخصوصا عند قريش صادقًا وأمينًا ولكن الأساس الوثيق لهذا القرآن كان إعجاز القرآن معنىً ولغةً، فحتى الذي كان لا يعتقد بصدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما يأتي ويعرض عليه القرآن بإعجازه يخضع له ويقتنع به[2].

وهذا الأمر بنسبة من النسب صادق في أخبار المعصومين عليهم السلام[3]، فإن لكل متكلم سبكا وصياغة خاصة للكلام، ومن خلاله يعرف أن هذا صحيح النسبة لفلان، أو غير صحيح، إن من السهل على العارفين بأساليب اللغة أن يميزوا مثلًا بين شعر المتنبي وشعر نزار قباني! وما بين كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام وكلام غيره[4].. وتمت

(1) سورة الإسراء: آية 88.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، 3/ 78 قال الوليد بن المغيرة المخزومي لما سمع من النبي بعض آيات القرآن: ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته..

(3) عن الإمام الصادق عليه السلام: أعربوا حديثنا فإنا قوم فُصَحاء.

(4) قال ابن ابي الحديد في سياق رده على زعم أن نهج البلاغة منحول للإمام عليه السلام: إن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفا من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لابد أن يفرق بين =

الإشارة إليه فعندما نخرج من الأمر القرآني إلى باقي النصوص، نجد أن بعض العلماء يقولون أن ما ورد من الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن على كل حقٍ حقيقةً وعلى كل صوابٍ نورًا فما جاءكم عني فاعرضوه على القرآن فما وافق القرآن فخذوه وما خالف القرآن فدعوه» هو أحد المقاييس التي يعرف بها العالم صحة وسقم الرواية، فإنه عندما نجد لغة رواية من الروايات متهالكة متهافتة، نقول هذه الرواية ليست عليها مسحة البلاغة النبوية، أو قد يكون معناها معنىً ضعيفًا ركيكًا، نقول هذا المعنى ليس من المعاني التي يطرقها النبي أو الإمام، وهذا مما ذكروه في نهج البلاغة، فإنه عندما حدث التشكيك في كون خطبه وكلماته لأمير المؤمنين عليه السلام، كان أحد الأجوبة هذا الذي ذكرناه.

= الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد، وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاما لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بد أن يفرق بين الكلامين، ويميز بين الطريقتين، ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه، وطريقته ومذهبه في القريض، ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئا كثيرًا، لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه، ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة.

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماء واحدا، ونفسا واحدا، وأسلوبًا واحدا، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفا لباقي الابعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره....).

عندما تقرأ قصيدة لشخصٍ ما ويأتي من يقول لك هذه القصيدة لأبي الطيب المتنبي فإذا كنت عارفًا باللغة وبالشعر تتأمل فيها قليلًا فتقول هذه القصيدة لا تخرج من فم المتنبي!، مستوى المتنبي أكبر وأعظم من هذه القصيدة.

وشاهد ذلك القريب أنه انتشرت قبل مدة من الزمان قصيدة[1] في موضوع علاقة الشيعة بالبكاء على الحسين ونسبت القصيدة لنزار قباني وعندما عرضت على العارفين قالوا ليس هذا أسلوب الشاعر ولا هو فكره ولا هي مفرداته ولا ألفاظه، ولا يمكن أن تخرج هذه الألفاظ من عنده، وبعد البحث تبين أنها لشاعر من شعراء البحرين ولا ترتبط بنزار قباني، فيستطيع العارفون بالأدب وباللغة تمييز قصيدة المتنبي وقصيدة شاعر من هذا الزمان، وخطبة علي بن ابي طالب وخطبة فلان بن فلان في معانيها وفي أساليبها.

عندما نتأمل خطبة الزهراء عليها السلام نرى فيها من المعاني الراقية والعميقة التي لا تتيسر إلا لمن كان يفرغ عن معدن الوحي والنبوة

(1) هي من قصائد الشاعر البحراني علي الغسرة ومنها:

سأل المخالف حين أنهكه العجب هل للحسين مع الروافض من نسب
لا ينقضي ذكر الحسين بثغرهم وعلى امتداد الدهر يُوقِدُ كاللَّهب!
وكأنَّ لا أكَلَ الزمانُ على دم كدم الحسين بكربلاء ولا شرب
أوَلَمْ يَحِنْ كفُّ البكاء فما عسىً يُبدي ويُجدي والحسين قد احتسب؟
فأجبته ما للحسين وما لكم يا رائدي ندوات آلية الطرب

ولا تأتي إلا لمن أخذ هذا العلم من سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ونسبتها إلى فاطمة الزهراء عليها السلام هي كما قال الشاعر المتنبي عن ناقته: سَبوحٌ لها منها عليها شواهد.

وقسم من فقراتها قد ورد في كلمات أمير المؤمنين، والإمام الرضا عليهما السلام كما ورد أمثالها في خطبتها الثانية وهي تشكل نسيجًا واحدًا وقماشة متجانسة.

الرابعة: هل القضايا التاريخية كالقضايا الفقهية تحتاج لسند متصل لإثباتها؟

هنا أريد أن يلتفت القارئ معي إلى الفرق بين الاثبات الفقهي والإثبات التاريخي، فقد يتصور قسم من الناس أن القضايا التاريخية هي كالقضايا الفقهية لا بدَّ لكل شيء فيها من سند متصل وذلك لأنه سيترتب عليها أن يتم نسبة حكم لله تعالى. إلا أن الأمر في البحث التاريخي مختلف عن المنهج في البحث الفقهي فهو يعتمد على أساس القرائن ولذلك لا يستطيع المؤرخ أن يطلب في كل قضية تاريخية تفصيلية سندًا متصلًا معتبرًا لمن شهدها ولو كان كذلك لانعدمت التفاصيل التاريخية.

الآن لو نأخذ مثلًا غزوة بدر ـ ولا يوجد أشهر منها مع ذلك لا يستطيع مؤرخ أن يأتي بكل ما ورد فيها بأسانيد صحيحة، ولو

أراد أن يقتصر على الأسانيد فإنه لا يستطيع إلا أن يأتي بعشر معلومات عنها، أما هذه التفاصيل الكثيرة فلا؛ وإنما هي تعضدها القرائن التاريخية، فلان قال هكذا وهذه النقطة حدثت في مكان ما، تتعاضد فتعطي انطباعًا عند المؤرخ واطمئنانًا بمثل هذا الموضوع.

حادثة إلقاء فاطمة الزهراء عليها السلام للخطبة هي قضية تاريخية بهذا المعنى، وليست حادثة فقهية أو حكم فقهي، فحينما أجمع القوم على منعها فدكًا خرجت إلى المسجد وألقت هذه الخطبة.

الموضوع التاريخي يحتاج إلى منهج تاريخي، ومن المنهج التاريخي كثرة القرائن مثلًا: نحن نأتي ونرى في كتب اللغة، كتاب اللغة ليس موضوعًا للموضوع التاريخي ولكن مع ذلك نستطيع أن نستفيد منه، فنأتي ونرى بعض اللغويين في كلمة لُمّة، «جاءت فاطمة في لُمّة من نسائها» فإنه يذكر في لسان العرب[1] وفي النهاية لابن الأثير وفي غيره، مفردة لُمّة: جماعة من ثلاثة إلى عشرة، وقد ورد في الأخبار أن فاطمة عليها السلام لما أجمع الخليفة على منعها فدكًا أنها خرجت في لُمّة من نسائها، هذا الناقل ليس بشيعي وليس بصدد إثبات الأمر العقائدي، وأيضًا

(1) ابن منظور: لسان العرب 1/ 203 وتاج العروس 1/ 42 وتهذيب اللغة 1/ 288 والفائق 213

كلمة هَنْبَثَة لأنها قالت في آخر الخطبة:

قد كان بعدك أنباء وهنبثةٌ

لو كنت شاهدها لم تكثر الخُطُبُ

ورود الخطبة في الكتب اللغوية والتاريخية:

من خلال هذه الخطبة نأتي ونرى كتب اللغة قد تحدثت عنها، أيضًا كتب البلاغة التي تتحدث عن الأمور البلاغية مثل كتاب بلاغات النساء لابن طيفور أحمد بن طاهر البغدادي المتوفى سنة 280 هجرية تقريبًا وهو ليس من الشيعة وعنده كتاب خاص بالنساء البليغات وخطبهن البليغة وهو ليس في صدد الحديث عن موضوع ديني أو عقائدي وإنما في صدد الحديث على أن عددًا من النساء المسلمات كن بليغات في اللغة العربية ومتضلعات، فأورد خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام باعتبارها نموذجًا أعلى في البلاغة. فهو ليس هو في أمر عقائدي وإنما في صدد الاستشهاد على الموضوع البلاغي.

كما أوردتها الكتب التاريخية مثل كتاب السقيفة وفدك لأحمد بن عبد العزيز الجوهري المتوفى سنة 323 هجرية، وهذا من مشائخ الطبراني صاحب المعجم وهو كما وصفه ابن أبي الحديد وغيره أنه رجل حافظ للأخبار، كثير العلم، حسن

التصانيف، ورعٌ في النقل وبالرغم من أنه لم يكن على مذهب الإمامية إلا أنه أثبت هذه الخطبة في كتابه السقيفة وفدك.

هذه القرائن منضمة بعضها إلى البعض الآخر من استشهادات لغوية، ومن إيرادها كنموذج من نماذج البلاغة وأمثال ذلك من إيرادها في الكتب التاريخية لغير المؤرخين الإمامية، تفيد حصول هذه الخطبة وإلقاء فاطمة عليها السلام لها، وهذا بناء على المنهج التاريخي في البحث يكون من القرائن القوية، وبالطبع هنالك قرائن كثيرة أخر لا يسع المقام لذكرها.

أخيرًا .. فإنّ بعض الطرق التي ذكرها محمد بن جرير الطبري الإمامي، هي حتى بالمعنى الفقهي الخاص على بعض المسالك الرجالية لها أسانيد معتبرة وصحيحة، وبالتالي من زوايا مختلفة يُصَحّحُ انتساب وانتماء هذه الخطبة إلى سيدتنا الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام ولقد نقلها كثير من المؤرخين في كتبهم. لقد كانت هذه الخطبة منذ وقت مبكر محل الاهتمام؛ فقد كتبت على الرغم من أن في تلك الفترات كان أمر التدوين والكتابة ممنوعا من الناحية الرسمية.

بعد هذا كما ذكرنا بمدة كان ابن طيفور، وبعده كان الجوهري في كتابه السقيفة، وبعده كان الشيخ الصدوق ـ أعلى الله مقامه ـ

صاحب من لا يحضره الفقيه أورد فقرات منها في كتابه علل الشرائع، وبعده كان محمد بن جرير الطبري صاحب دلائل الإمامة، وبعده كان الطبرسي صاحب الاحتجاج، وبعده ابن أبي الحديد المعتزلي شارح النهج وهكذا، وهي من حيث المعاني الموجودة فيها سبكًا ومضمونًا لا يمكن إلا أن تأتي من هذا المعين ومن هذا المعدن الذي يغرف من لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

طبعا تكتسب الخطبة أهميتها من شخصية المتحدثة فيها وهي سيدة النساء المعصومة التي لا تنطق جُزافا ولا تجاوز الحق قيد أنملة وهي المطهرة بنص آية التطهير وهي الممثلة لكل نساء المسلمين بنص آية المباهلة وهي التي يرضى الله لرضاها ويسخط لسخطها.

الخطبة الفدكية
ميزاتها ومواضيعها

من خطبة سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في ردها على أبي بكر أنها قالت في جواب لما أورد الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، قالت عليها السلام:

«سُبْحانَ اللَّه! ما كانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم عَنْ كِتابِ الله صادِفًا، وَلا لِأحكامِهِ مُخالِفًا، بَلْ كانَ يَتَّبِعُ أَثَرَهُ، وَيَقْفُو سُورَهُ، أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اعْتِلالًا عَلَيْهِ بِالزُّورِ؛ وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ. هذا كِتابُ اللَّه حَكَمًا عَدْلًا، وَناطِقًا فَصْلًا، يَقُولُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[1]، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[2]».

نتناول بعض مميزات خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام وإجمال مواضيعها، هذه الخطبة التي لم تستغرق فترة زمنية طويلة بحسب

(1) سورة مريم: آية 6.
(2) سورة النمل: آية 16.

مقدار الكلمات التي قيلت فيها إلا أنها احتوت على كثير من المميزات التي جعلتها فريدة من نوعها.

هل الظروف ساعدت الزهراء عليها السلام في صياغة هذه الخطبة البليغة:

يلاحظ أن كل الظروف كانت تعاكس أن تنتج الزهراء عليها السلام هذا الكلام البليغ لفظا، القوي تركيبا، العظيم مضمونًا، إن كل الظروف التي أحاطت بالسيدة الزهراء عليها السلام تقتضي خلاف هذا الأمر، فإنها من الناحية النفسية في ذلك الوقت كانت فاقدة لأبيها ومظلومة في حق زوجها، وأيضًا بناء على أن الخطبة بعد الهجوم على دارها وهذا سوف نتحدث عنه إن شاء الله فيما بعد كيف تسلسل الأحداث من وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى شهادتها عليها السلام، أقول هذه الظروف لا تساعد المتكلم على أن يكون بليغ اللفظ أو مُرَكَّز الفكر ولا أن يكون قوي التركيب، تصور أن يكون بالك مشغولًا بشيء معين حينها أنت لا تستطيع أن تنظم الكلام تنظيمًا قويًّا، ربما لا تستطيع أن تخوض في أعماق المعاني، الزهراء عليها السلام لم تكن هكذا، بل كانت في وضع نفسي غير حسن، أضف إلى ذلك جانب الارتجال، المتكلمون يعرفون أن الإنسان عندما يرتجل كلامًا على البديهة من غير إعداد واستعداد، من الممكن أن يقدم

ويؤخر ويتخبط ولا يركز، ونفترض أن هذه الخطبة أيضًا كانت على البداهة والارتجال، هذا أمر آخر.

بالإضافة إلى ما مرَّ، كونها امرأة في محضر رجال بالتالي فالمسجد كان مليئًا بالرجال المسلمين مهاجرين وأنصارًا، والزهراء عليها السلام جاءت ونيطت دونها ملاءة (قطعة قماش) حتى تستتر عنهم ثم خاطبتهم، ومع ذلك فإن هذه الخطبة احتوت على ميزات كثيرة جدًا نشير إلى قسم منها بمقدار ما يتسع له الوقت هذا من جهة وبمقدار ما نفهمه نحن من جهة أخرى.

الخطبة بين الخطاب العقلي والعاطفي:

من هذه الميزات أننا نلاحظ تزاوجًا في هذه الخطبة بين العقل والعاطفة بدرجة كبيرة، بعض الخطابات تكون خطابات عاطفية تحتاج إلى أسلوب معين وبعضها الآخر خطابات علمية (دروس، أبحاث، محاضرات عميقة)، فهذه تحتاج إلى أسلوب خاص وتلك الخطبة العاطفية المشاعرية تحتاج إلى أسلوب آخر، ومن العسير عادة أن يجعل الإنسان نفس الخطبة العلمية كأن يلقي مثلاً بحثًا في الأصول أو درسًا في الفيزياء أو غير ذلك ويستخدم أسلوبًا عاطفيًّا ومشاعريًّا محركًا للإنسان، وكذا العكس فعندما يريد أن يحرك عواطف المستمع يصعب عليه أن يخوض في أمور علمية دقيقة ومركزة.

خاضت الزهراء عليها السلام في هذه الخطبة في أدق المباحث العلمية فيما يرتبط بمعرفة الله عز وجل، فقالت عليها السلام: «اِبْتَدَعَ الأشياء لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها» يتساءل العلماء عن هذه الجملة لماذا قالت «لا من شيء كان قبلها» ولم تقل: ابتدع الأشياء من لا شيء كان قبلها؟، وهذا بحث مهم في العقائد، وهكذا عند استدلالها بآيات القرآن استدلالًا فقهيًا، ومعالجتها للآيات العامة والمطلقة ودعوى التخصيص وهل هناك مانع من انعقاد العموم؟ وغير ذلك من المباحث التي يذكرها علماء الفقه والأصول فهذا الجانب العلمي نراه موجودًا في خطبة الزهراء عليها السلام.

كذلك فإن الجانب العاطفي والمشاعري والإثارة القلبية أيضًا كان موجودا في ثنايا هذه الخطبة، ولذلك تفاعل الناس بالبكاء عند استماعهم للخطبة، «إيْهًا بَنِي قَيْلَةَ! أأُهْضَمُ تُراثَ أبِي وَأنْتُمْ بِمَرْأى مِنّي وَمَسْمَعٍ، ومُنتدىَ وَمَجْمَعٍ؟! تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ، وتَشْمُلُكُمُ الْخَبْرَةُ، وَأنْتُمْ ذَوُو الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالأَداةِ وَالْقُوَّةِ، وَعِنْدَكُمُ السِّلاحُ وَالْجُنَّةُ؛ تُوافيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلا تُجِيبُونَ، وَتَأْتيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلا تُغيثُونَ» أو في موضع آخر تقول: «ألا وَقَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ عَلى مَعْرِفَةٍ مِنّي بِالْخَذْلَةِ الَّتِي خامَرَتْكُمْ».

كما أنها تضمنت تقريع المخاطبين من خلال التذكير بالماضي

المشرق الذي كان للأنصار في نصرة النبي ورسالته والحاضر السيئ من الخذلان والتراجع «نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ حَتَّى دَارَتْ بِنا رَحَى الإسلام، وَدَرَّ حَلَبُ الأَيَّامِ»، أو قولها: «فمججتم الذي شربتم فأنّى حرتم بعد البيان؟، ونكصتم بعد الإقدام، وَدَسَعْتُمُ الَّذِي تَسَوَّغْتُمْ» ـ أي تقيأتم ذلك وتراجعتم عن كل تلك المواقف السابقة ـ هذه الجهة العاطفية هنا في أرقى درجاتها وهناك الجهة العلمية كذلك.

المنهج المنطقي لإحداث التغيير في المجتمع:

هذه الخطبة تجمع بين خطابين، خطاب لعامة الناس وخطاب لرئيس الدولة:

إننا نلاحظ في العمل السياسي أن هناك أحد منهجين لتحقيق المطالب من قِبل الشعوب:

الأول: يقول بأنك إذا أردت أن تحقق مطالبك اكتب لرئيس الدولة، خاطب رئيس الدولة مباشرة ليس لك شغل بعامة الناس، لا تتحدث بشكل علني وجماهيري لعامة الناس.

والآخر: أن تحقق مطالبك من خلال تحويل القضية إلى قضية رأي عام، وهذا يشكل ضغطًا على رئاسة الدولة، فلا ترى طريقًا

لها إلا الاستجابة لتلك المطالب، وهذا ملحوظ في الغرب والدول الديمقراطية يلاحظ كيف أن بعض الزعماء الدينيين أو السياسيين يخاطبون جماهير الناس فينزل الجمهور إلى الشارع ويضغطون على الرؤساء والحكام، فهذان منهجان مختلفان.

وقد جمعت الزهراء عليها السلام في هذه الخطبة بين النهجين، في نفس الوقت الذي خاطبت الأنصار وهم القوة الكبرى في المدينة الذين كانوا محل اعتماد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حتى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما يريد أن يتخذ قرارًا عامًا كان ينتظر خبر الأنصار.

ففي قضية بدر مثلًا حينما وصل الخبر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قريشًا حركت قواتها باتجاه المدينة المنورة للقتال مع أصحابه، أخبرهم بذلك وقال لهم أشيروا علي، فقام بعض الصحابة وقال: «هذه قريش وخيلاؤها ما ذلت منذ عزت» أي أن قريشًا ليست بالأمر السهل، فلم يعجب ذلك القول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعدها قام آخر وقال نفس الكلام أو قريبًا منه ولم يعجب الرسول فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا: هيه! فقام سعد بن عبادة وقيل سعد بن معاذ ـ وهما أنصاريان ـ فقال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: وكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: بلى، فقال يا رسول الله إنا آمنا بك، صدقناك واتبعناك فخض بنا البحر فلو أمرتنا أن نخوضه

لخضناه معك ـ يعني أي شيء تريده يا رسول الله نفعله تريد أن نخرج للقتال نخرج، أو تريد أن نتحصن سوف نتحصن، نحن رهن إشارتك وطوع أمرك ـ فَسُر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، وهؤلاء الأنصار كانوا يشكلون القوة الكبرى في المدينة.

السيدة الزهراء عليها السلام أيضًا خاطبت الأنصار «إيْهًا بَنِي قَيْلَةَ»[1] في هذا الموضع وفي موضع آخر كما سيأتي.

وكذلك خاطبت رئيس الدولة: «أفي كِتابِ اللّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[2]، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللّهِ، وَنَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أمام الناس».

ولما رد عليها أيضًا بعد هذا فَقَالَ: «يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّه، لَقَدْ كانَ أَبُوكِ بالمُؤْمِنِينَ عَطُوفًا كَرِيمًا، رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَعَلَىَ الْكافِرِينَ عَذابًا أَلِيمًا وَعِقابًا عَظِيمًا ما عَدَوْتُ رَأْيَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: نَحْنُ مَعاشِرَ الْأَنْبِياءِ لا نُوَرِّثُ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً وَلا دارًا وَلا عِقارًا، وَإِنَّما نُوَرِّثُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ، وَالْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

هنا انبرت إليه الزهراء عليها السلام مرة أخرى وقالت له «سُبْحانَ

(1) ذكروا أن قيلة هي جدة الأوس والخزرج، وهما فرعا الانصار، وهذا من ذكاء الخطاب حيث خاطبتهم باعتبارهم وحدة واحدة.

(2) سورة مريم: آية 27.

اللَّه! ما كانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنْ كِتابِ الله صادِفًا، وَلا لِأحكامهِ مُخالِفًا»، فهي عليها السلام تشير له في كلامها هذا أنه هل أنت واع لما تقول وملتفت؟ كيف يخالف الرسول ﷺ كتاب الله ولا يتبعه فأنت تتهم النبي بشيء عظيم.

إذن جمعت الزهراء عليها السلام في هذه الخطبة بين خطين في الخطاب السياسي وهذا معروف عند المعاصرين بين خطاب الجمهور وإثارة الجمهور بل وتحريضه، ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، وهذه ميزة أخرى في خطبة الزهراء عليها السلام.

جمع الزهراء بين تحليل القضية وتحميل المسؤولية:

هناك ميزة أخرى وهي أنها جمعت بين التحليل في القضية والتحميل للمسؤولية، فقد تجد عند المتكلم أو الكاتب منهج التحليل بعد التوصيف، كما يصنع الخبير الذي يحلل القضية تحليلاً علميًا ولا يرتبط حديثه بتحريك الناس أو تحميلهم المسؤولية، فربما يتحدث عن الأزمة الاقتصادية في بلد ما ويشير إلى أسبابها العالمية أو المحلية، لكنه لا يتوجه بخطاب للناس.

(1) سورة التوبة: آية 13.

بينما يأتي آخر يحرص في خطابه على الحديث مع الناس، فالواعظ الديني أو المربي الأخلاقي أو الزعيم السياسي الذي يريد إشراك الناس في حل الأزمة الاقتصادية سوف يتحدث في خطابه عن عدم الإسراف وحسن التدبير في المعيشة فهو يحمل الناس مسؤوليتهم ويأمرهم بفعل كذا وترك كذا لمواجهة هذه الأزمة الاقتصادية، فهناك كان الخطاب تحليليًا وهو كشف الأسباب التي أدت لهذه الأزمة وهنا اختلف المنهج ليصبح توجيهيًا افعلوا كذا أو اتركوا كذا.

جمعت الزهراء عليها السلام في هذا الخطاب بين الأمرين، فبينت لماذا حصل الانقلاب؟ وكيف تحقق الانحراف؟ وأن القضية غير منفصلة عن سياقها التاريخي، إذ يوجد تأريخ لهذه الفئة وكان ذلك كما خاطبتهم «تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ».

بينما تأريخنا أهل البيت هو «قَذَفَ أخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ» هذا تحليل للقضية وفي الطرف الآخر تحميل للمسؤولية، مسؤولية الحاضرين وأنهم لا بدَّ لهم بأن يتحركوا ويواجهوا وإلا فإنهم مسؤولون.

هذه وما سبقها من ميزات الخطبة الشريفة. وأمَّا:

مجمل مواضيع الخطبة:

فبالرغم من أن في كل فقرة موضوعا، وهداية، وإرشادًا وفكرة، إلا أننا سوف نجمل المواضيع بشكل عام.

بداية خطبة الزهراء عليها السلام بالحمد والثناء

افتتحت الزهراء عليها السلام حديثها بـ «الْحَمْدُ للَّهِ» ثم تعريف الله بعد الشهادتين.

كلمة الحمد هذه، هي بداية القرآن وبداية سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وهي كما ورد في الروايات خلاصة التنزيل والقرآن. وهي بعد البسملة افتتاح الفاتحة. وقد لا يتسع المجال للبحث المفصل في مفهوم الحمد ومركز هذا المفهوم في المنظومة الدينية، لكن بملاحظة عابرة لو نظرنا إلى خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وخطب أمير المؤمنين عليه السلام بل حتى الأدعية، نجدها تبدأ بالحمد، وهذا يبين أهمية هذا المفهوم.

وإذا أردنا أن نستفيد درسًا أخلاقيًّا من ذلك فإننا نقول: ينبغي أن يكون موقف الإنسان حامدًا لله عز وجل في كل أحواله، وبهذا ننتقد حالة بعضهم ممن تسأله عن أحواله فإذا به يتبرم بأوضاعه

(1) سورة الفاتحة: آية 2

ويسرد عليك قائمة طويلة مما يفقده ويعاني منه فهو مريض بالسكري! وأوضاعه الزوجية سيئة وأمره المالي متعسر. بينما لو نظر إلى ما لديه ونعم الله عليه لعجز عن عدها! فمن المهم أن يتعلم الإنسان الحمد لرب العالمين في كل أحواله! بل حتى التشكي هو نعمة!! فإن شكواه تشير إلى أنه يستطيع أن يدرك سوء حاله ويعبر عن ذلك بالشكوى فلو نظر إلى من هو أسوأ حالًا منه ممن لا يشعر ولا يدرك أو يدرك ولا يستطيع الكلام لرأى نفسه في خير حال. احمد الله على ما أنت فيه واطلب منه سبحانه المزيد.

بدأت السيدة الزهراء عليها السلام بقضية الحمد« الْحَمْدُ للَّهِ عَلى ما أَنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأَها ـ ليس أنت من ذهب وراءها بل هو عز وجل ابتدأك بها ـ وَسُبُوغ آلاءٍ أَسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها» هذه النعم لا حدود لها وليس أنت من حصلتها لنفسك بل هو الذي ابتدأك بها، عندما أنعم عليك بالوجود في هذه الحياة لقد خلقك ربك حين خلقك كاملًا في أعضائك وفي أجهزتك الداخلية والخارجية. في وقت لم تكن شيئا مذكورًا، «لم تشهدني شيئًا من خلقي ولم تجعل إليّ شيئًا من

أمري» كما يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة، الله الذي أنعم عليك وأعطاك وأعطانا فالحمد لله على جميع نعمه.

تعريف الزهراء عليها السلام لله تعالى وتنزيهه عن الرؤية:

ثم بعد ذلك عطفت الزهراء عليها السلام بالشهادة «وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخلاص تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الأبْصارِ رُؤْيَتُهُ»، فلا يأتي أحد ويقول روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الصحاح[1] أنكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون البدر ليلة كماله وتمامه، وللأسف فإن هذه عقيدة الأكثر من المسلمين (باستثناء الشيعة والمعتزلة وقسم قليل من المحققين من الأشاعرة) وإلا فإن الأمر كما جاء في الحديث بل هو أكثر فإذا كان الحديث المذكور يثبت رؤية الناس الله (والعياذ بالله) يوم القيامة، فإن هناك من أتباع المدرسة السلفية من يقول إن رؤيته (سبحانه وتعالى عن ذلك) في المنام ممكنة[2] بل هي حاصلة!

(1) الحَمِيدي، ابن أبي نصر: الجمع بين الصحيحين 1/ 324 عَن جرير بن عبد الله قالَ: كُنّا جُلُوسًا لَيْلًا مَعَ النَّبِي صلى الله عليه وآله وسلم، فَنظر إلى القَمَر لَيْلَة أربع عشرَة فَقالَ: «إنَّكُم سَتَرَوْنَ ربكُم كَما تَرَوْنَ هَذا، لا تضامون فِي رُؤْيَته. فَإن اسْتَطَعْتُم ألا تغلبُوا على صَلاة قبل طُلُوع الشَّمْس وقبل غُرُوبها فافعلوا. ثمَّ قَرَأ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾[ق: 39]. وفِي رِوايَة: «إنَّكُم سَتَرَوْنَ ربكُم عيانًا».

(2) الراجحي، عبد العزيز: شرح الاقتصاد في الاعتقاد ـ 10/ 9: رؤية الله في المنام ثابتة، يثبتها =

بل لقد صرح أحد الدعاة بقوله كما هو مسجل بالصوت والصورة على الانترنت بقوله «سابقا كنت مترددا في أن الله يرى أو لا يرى ولكن الموضوع الآن عندي شيء طبيعي لأني رأيت الله عشر مرات»!!.

هنا تأتي الهداية المعصومة، حيث تقول الزهراء عليها السلام «الْمُمْتَنِعُ مِنَ الأَبْصارِ رُؤْيِتُهُ»، استحالة عقلية فلسفية، يمتنع على الأبصار أن تراه سواء كان ذلك في الدنيا أو الآخرة! وكذلك يمتنع «مِنَ الْأَلْسُنِ صِفَتُهُ»، بل «وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ»، لاحظ التدرج في المراحل السابقة.

= جميع الطوائف، إلا الجهمية من شدة إنكارهم للرؤية حتى أنكروا رؤية الله في المنام، قال شيخ الإسلام: إن جميع الطوائف أثبتوا رؤية الله في المنام إلا الجهمية؛ لشدة إنكارهم لرؤية الله حتى أنكروا رؤية الله في المنام..

ولكن في جواب للشيخ عبد العزيز بن باز ما لو تم التوجه له بدقة لكان ينتهي إلى إنكار هذه الرؤية المنامية فقد سئل: ما حكم من يدعي أنه قد رأى رب العزة في المنام؟ وهل كما يزعم البعض أن الإمام أحمد بن حنبل قد رأى رب العزة والجلال في المنام أكثر من مائة مرة؟ وكان [الجَوابُ] الحمد لله: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وآخرون أنه يمكن أنه يرى الإنسان ربه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: 11] فليس يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن قد يرى في النوم أنه يكلمه ربه، ومهما رأى من الصور فليست هي الله جل وعلا؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، فلا شبيه له ولا كفو له.

أقول: هذا الاستدراك من بعد لكن.. يعني أنه مهما رأى من الصور فليست هي الله.. وإنما صورة خلقها النائم ووهم وصل إليه، مثلما يصور حيوانًا بألف رأس وبحرًا من الذهب.. فهي لا تتجاوز الأوهام فكيف يقول شخص إنه رأى الله في المنام؟ إنما رأى أوهامه وخيالاته!

وما جرى على لسان الصدّيقة فاطمة هو المطابق للقرآن الكريم الذي يصرح بأنه ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1]، ويقول لنبيه الكريم موسى بن عمران بعد أن طلب منه الرؤية لما سأله اليهود ذلك ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[2] و(لن تراني) نفيٌ تأبيديٌّ في هذه النشأة وما بعدها.

تعريف الزهراء عليها السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

فالزهراء عليها السلام بعد الحديث عن معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته، عطفت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتشهد له بالنبوة والرسالة «وَأَشْهَدُ أنّ أبي مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجْتبَلَهُ، وَاصْطفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ» وهذا لا يعني أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يعلم بنفسه وفجأة نزل عليه جبريل وغطه ثلاث مرات وأرسله! وأن النبي كما يقولون هرول قائلًا زملوني دثروني! لا، بل اصطفاه الله بالرسالة وانتجبه قبل خلق الخلق والوجود، وهذا يفسر قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

(1) سورة الأنعام: 103.

(2) سورة الأعراف: 143.

«كنت نبيا وآدم بين الماء والطين». وكان يتراءى له الملك ويسلم عليه الشجر والحجر ويعرف الآخرون فيه علامات النبوة.. أفكان يجهل نفسه في ذلك بينما عرفه الأحبار والرهبان؟.

وصف الزهراء عليها السلام لحالة الأمم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

ثم تطرقت الزهراء للحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووصف حالة الأمم قبل بعثته:«فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ظُلَمَها».

حديثها عن القرآن الكريم:

انتقلت الزهراء عليها السلام بالحديث عن القرآن، فلاحظوا التسلسل بالحديث عن الأصول أولًا الله تعالى، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم القرآن الكريم باعتباره معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث التفتت إلى أهل المجلس وقالت:

«أَنْتُمْ عِبادَ الله نُصْبُ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَمَلَةُ دينِهِ وَوَحْيِهِ، وأُمَناءُ اللَّه عَلى أنْفُسِكُمْ، وَبُلَغاؤُهُ إلى الأُمَم، وَزَعَمْتُمْ حَقٌّ لَكُمْ للهِ فِيكُمْ، عَهْدٌ قَدَّمَهُ إِلَيْكُمْ، وَبَقِيَّةٌ استَخْلَفَها عَلَيْكُم، كِتابُ اللَّهِ النّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ. بِهِ تُنالُ حُجَجُ الله المُنَوَّرَةُ، وَعَزائِمُهُ المُفَسَّرَةُ، وَمَحارِمُهُ المُحَذَّرَةُ، وَبَيِّناتُهُ الجالِيَةُ، وَبَراهِينُهُ الكافِيَةُ،

وَفَضائِلُهُ المَنْدوبَةُ، وَرُخَصُهُ المَوْهُوبَةُ، وَشَرائعُهُ المَكْتُوبَةُ». فهذا العهد الذي قدمه الله تعالى للمسلمين الذين يفترض أن يكونوا منتصبين لأمره واجتناب نهيه في حياتهم الشخصية مخلصين أمناء في ذلك، بل وهم حملة القرآن وأحكامه إلى بقية الأمم والمبلغون، لما فيه فهو كتاب ولكنه ناطق وقرآن صادق ونور ساطع، وهو لكل الناس لا لفئة دينية خاصة تقرأه وتخبر سائر الناس بما فيه، كما هو حال اليهود وإنما هو بصائر بينة وظواهر ألفاظه جلية فهو حجة على كل من يؤمن به إذ أنه مخاطب به وظواهر القرآن مفهومة عنده. وهذه العبارات يمكن الاستدلال بها على حجية ظواهر القرآن الكريم، وهذا الكتاب المجيد فيه حُجَجُ اللَّه والأدلة عليه، وعَزائِمُهُ وَرُخَصُهُ وَفَضائِلُهُ، وَبيان مَحارِمه وتحذيراته، وَبَيِّناتُهُ، وَبَراهِينُهُ، وَشَرائعُهُ فهذه كلها يجدها الناظر في القرآن، وكلٌّ يغترف بمقدار وعائه منها.

حديث الزهراء عليها السلام عن التشريع وفلسفته:

من خلال القرآن الكريم نفذت عليها السلام إلى الحديث عن التشريع: «فَجَعَلَ اللَّهُ الإيمان تَطْهيرًا لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهًا لَكُمْ عَنِ الكِبْرِ، والزَّكاةَ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وَنَماءً في الرِّزْق، والصِّيامَ تَثْبيتًا للإخلاص، والحَجَّ تَشْييدًا لِلدّينِ، وَالعَدْلَ تَنْسيقًا

لِلْقُلوبِ، وَطاعَتَنا نِظامًا لِلْمِلَّةِ، وَإمامَتَنا أمانًا مِنَ الْفُرْقَةِ، وَالْجِهادَ عِزًا لِلإسلام، وَالصَّبْرَ مَعُونَةً عَلَى اسْتِيجابِ الأَجْرِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعامَّةِ، وَبِرَّ الْوالِدَيْنِ وِقايَةً مِنَ السَّخَطِ، وَصِلَةَ الأَرْحامِ مَنْماةً لِلْعَدَدِ».

حيث بينت أن لكل تشريع في الإسلام حكمة وأن هذه العبادات ليست من غير فلسفة، فثبتت وجود التشريع ولزومه مما ينفي قول بعض المتصوفة ومن يؤمن بأفكارهم من أن الغاية هي الإيمان والتقوى وإنما العبادة طريق إلى ذلك وجسر للوصول، فإذا حصل المرء على الغاية فلا داعي للطريق وهو العبادة، وقد نجد أمثالًا معاصرة لهؤلاء عندما يقول إن قلبه عامر بالإيمان ولذلك فلا داعي للصلاة! أو تقول إنها مؤمنة في قلبها فلا داعي للحجاب لأن المهم هو الجوهر.. كل ذلك كلام باطل! فإن الله شرع الدين وجعل العبادات الطريق الوحيد للوصول إليه، فلا يقبل منه طريق آخر ولذلك عاقب على تركها وكان الانبياء أول المطالبين بها مع كمال إيمانهم!.

نعم هذه العبادات ليست بلا غرض وإنما هي بهدف أن توصل الإنسان للتكامل كما ذكرت الزهراء ويأتي تفصيلها في صفحات قادمة.

إعلموا أني فاطمة:

وبعد أن انتهت عليها السلام من الحديث عن التشريعات الإسلامية والعبادات وأنها ذات حكمة وذات فلسفة، عادت مرة أخرى لذكر النبي وذكر الإمام علي صلوات الله عليهما حيث لا تكتمل معرفة القرآن الكريم ولا معرفة الله عز وجل ومعرفة النبي إلا بمعرفة الولي والوصي، فهنا عطفت على ذكر الإمام علي عليه السلام وقالت مخاطبة الناس «أيُّها النّاسُ! اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أقُولُ ما أقُولُ غَلَطًا، وَلا أفْعَلُ ما أفْعَلُ شَطَطًا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فَإنْ تَعْزُوه - أي تنسبوه - وَتَعْرِفُوهُ تَجِدُوهُ أبي دُونَ نِسائِكُمْ، وَأخا ابْنِ عَمّي دُونَ رِجالِكُمْ، وَ لَنِعْمَ الْمَعْزِيُّ إلَيْهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعًا بِالنِّذارَةِ، مائِلًا عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضارِبًا ثَبَجَهُمْ، آخِذًا بِأكْظامِهِمْ، داعِيًا إلى سَبيلِ رَبِّهِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ، يَكْسِرُ الأَصْنامَ، وَيَنْكُتُ الْهامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلَّوا الدُّبُرَ، حَتّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ».

(1) سورة التوبة: آية 128

حديثها عليها السلام عن جهاد علي عليه السلام بين يدي رسول الله:

بعد ذلك تثني عليها السلام على علي عليه السلام فتقول: «كُلَّما أَوْقَدُوا نارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَها اللَّهُ، أَوْنَجَمَ قَرْنٌ لِلْشَّيْطانِ، وَفَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخاهُ في لَهَواتِها، فَلا يَنْكَفِئُ حَتَّى يَطَأَ صِماخَها بِأَخْمَصِهِ، وَيُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ، مَكْدُودًا في ذاتِ اللّهِ، مُجْتَهِدًا في أَمْرِ اللَّه، قَرِيبًا مِنْ رِسُولِ اللّهِ سِيِّدَ أَوْلِياءِ اللّهِ، مُشْمِّرًا ناصِحًا، مُجِدًّا كادِحًا، وأَنْتُمْ فِي رَفاهِيَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَادِعُونَ فاكِهُونَ آمِنُونَ، تَتَرَبَّصُونَ بِنا الدَّوائِرَ، وتَتَوَكَّفُونَ الأَخْبارَ، وَتَنْكُصُونَ عِنْدَ النِّزالِ، وَتَفِرُّونَ عِنْدَ القِتالِ».

نحن منا التضحية فمنا حمزة عليه السلام ومنا جعفر وبقية هذه الأسرة الطيبة، وجروح أمير المؤمنين التي لا تحصى خير دليل على ذلك.

في الطرف المقابل «تتوكفون الأخبار ـ أي تسألون ماذا حصل ماهي الأخبار هل انتصر جيش المسلمين أو انهزم ـ وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال ـ كما حصل في معركة حنين حيث انهزم بعضهم هزيمة صلعاء تذكر إلى يومنا هذا».

احتجاجها على الخليفة الأول:

تنتقل الزهراء عليها السلام بعد هذا بالاحتجاج على الخليفة الأول بالقرآن وتقول «أفي كِتابِ اللّهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، ولا أرِثَ أبي؟ ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[1]، أفَعَلى عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتابَ اللّهِ، ونَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ إذْ يَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[2]، وَقالَ فيمَا اخْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيّا عليه السلام اذْ قالَ رَبِّ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (*) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[3]».

هكذا بدأت تتلوا الآيات على الخليفة وعلى الجهاز الحاكم وتضيق عليه وإذا قام بالرد عليها، تقول عليها السلام «أفَخَصَّكُمُ اللَّهُ بِآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبِي؟ أمْ هَلْ تَقُولونَ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ لا يَتَوارَثَانِ، أوَ لَسْتُ أنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! ـ إلا إذا وصل بكم الأمر أن تخرجوني عن ملة الإسلام ـ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمّي؟ فَدُونكَها مَخْطُومَةً مَرْحُولَةً، تَلْقاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ، وَالزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيامَةُ، وَعِنْدَ السّاعَةِ يخسَرُ المبطلون ـ فيوم القيامة هناك نتقابل ولا ينفع

(1) سورة مريم: 27.
(2) سورة النمل: 16.
(3) سورة مريم: 5 ـ 6.

هناك حرق الدار أو السيف أو.. أو..، هناك فقط عدل الله عز وجل ليس إلا ـ وَلا يَنْفَعُكُمْ إِذْ تَنْدَمُونَ، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾»[2].

استنهاض المهاجرين والأنصار للنصرة:

ثم عطفت على الحاضرين تستنهضهم مرة أخرى: فقالت «يا مَعاشِرَ الْفِتْيَةِ، وَأَعْضادَ الْمِلَّةِ، وَأَنْصارَ الإسلام، ما هذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي؟ وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلامَتِي؟ ـ السِنة معناها بدايات النوم ـ أما كانَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أَبِي يَقُولُ: اَلْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ؟ سَرْعانَ ما أَحْدَثْتُمْ، وَعَجْلانَ ذا إهالَةً، وَلَكُمْ طاقَةٌ بِما اُحاوِلُ، وَقُوَّةٌ عَلى ما أَطْلُبُ وَاُزاوِلُ».

وهكذا ظلت تقرع الموقف المتخاذل من الأنصار تقريعا بعد تقريع، أقول ولعل هذا مما جعل موقف الأنصار على مدى التأريخ أنهم يشعرون بالندم وأنهم لم يقوموا بواجبهم تجاه أهل البيت عليهم السلام فكانت مواقفهم بعد ذلك إجمالًا أفضل من غيرهم، فربما هذا الكلام لم يؤثر فيهم في نفس الوقت ولكنه ظل يجري في نفوس الأنصار وأبنائهم في المستقبل إلى أن غيّروا مواقفهم.

(1) سورة الأنعام: آية 67.

(2) سورة هود: آية 39.

ثم رجعت مرة أخرى لمناقشة الخليفة عندما جاء بحديث غير معروف عند أهل البيت عليهم السلام في أن النبي لا يورث، فردت عليه بما ذكرناه سابقًا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يخالف كتاب الله ولا يمكن أن يصدف ويترك أحكام الله عز وجل وأن هذا انتحال منكم عليه «أَفَتَجْمَعُونَ إلى الْغَدْرِ اْعتِلالًا عَلَيْهِ بِالزُّورِ؛ وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ».

علاوة على أنكم ما قبلتم بالوصية يوم الغدير، فما بين الغدير والغدر سوى سبعين يومًا، فيوم الغدير كان في الثامن عشر من ذي الحجة، والغدر كان في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر، أيضًا قمتم بتزوير وتحريف هذه الأحاديث، وفي هذا المقطع أيضًا «وَهذا بَعْدَ وَفاتِهِ شَبِيهٌ بِما بُغِيَ لَهُ مِنَ الْغَوائِلِ فِي حَياتِهِ» إشارة إلى «تتربصون بنا الدوائر» أي أنها مؤامرات منذ زمن كانت موجودة.

وبهذا انتهت الزهراء عليها السلام من خطبتها إلى هذا المدى.

الاقتباس القرآني
في خطبة فاطمة الزهراء

تتناول هذه الصفحات أحد شؤون القرآن الكريم في خطبة الزهراء وهو قضية الاقتباس القرآني في خطبة هذه الصديقة الطاهرة السيدة الزهراء عليها السلام.

وللتذكير والتأمل في كلماتها سلام الله عليه فإنها قد وصفت القرآن بأنه «كِتابُ اللَّه النّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ، بَيِّنَةٌ بَصائِرُهُ، مُنْكَشِفَةٌ سَرائِرُهُ، مُتَجَلِّيَةٌ ظَواهِرُهُ، مُغْتَبِطَةٌ بِهِ أَشْياعُهُ، قائِدٌ إلى الرِّضْوانِ اتّباعُهُ، مُؤَدٍّ إلى النَّجاةِ إسْماعُهُ..» إلى أواخر كلماتها صلوات الله عليها، في هذا المعنى يستفيد العلماء عدة أمور:

سلامة القرآن الكريم من التحريف

إنّ القرآن الكريم لم يطرأ عليه تحريف لا بالزيادة ولا بالنقيصة، هذا الأمر الذي يؤكد عليه القرآن من جهة بوعد الله له بالحفظ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]، هذا المعنى أكّد عليه كل المعصومين عليهم السلام، أن هذا القرآن هذا الكتاب مصدر هداية للبشر ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كان سليمًا عن التحريف زيادة ونقيصة، وذلك لأن أي نوع من أنواع النقص في القرآن الكريم أو أي نوع من أنواع الزيادة فيه لا ريب أنها لن تهدي الإنسان وإنما تضله، فلو افترضنا مثلًا أن هناك آية أو آيتين أو عشر آيات أو أكثر أو أقل بأنّها ناقصة من القرآن الكريم فإن معنى ذلك أنّ الإنسان المسلم عندما يقرأ هذه السورة لن يصل إلى الهداية، ستكون هدايته ناقصة بنقص هذه الآيات.

والأمر أوضح عندما يكون فيه زيادة، فلو أن شخصًا ادعى أن القرآن فيه آيات وضعت من قبل أشخاص وعمل على طبقها هذا الإنسان فإنه يعمل على غير هُدى الله سبحانه وتعالى وآنئذٍ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ ﴾[2]، فمن جملة ما يستفاد من كلمات الصديقة الطاهرة عليها السلام، أن هذا القرآن الكريم هو عهد الله عز وجل، هو بقية الاستخلاف الإلهي عند الناس بعد أن كان

(1) سورة الحجر: آية 9.

(2) سورة يونس: آية.35

النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يبقى بمقتضى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، لكن هذا العهد الإلهي الكتاب الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع الذي له هذه الصفات متجلية ظواهره منكشفة سرائره قائد إلى الرضوان اتباعه مؤدي إلى النجاة استماعه هذا لا يمكن إلا أن يكون كاملًا لا يتطرق إليه نقص أو زيادة.

ظواهر القرآن الكريم حجة على الإنسان المسلم

وهذه النقطة من الأهمية بمكان وهي أن الظاهر القرآني حجة على الإنسان المسلم فقد أُعطي القرآن الكريم لكي يكون دستورًا له، وحتى يكون دستورًا فلابد أن يكون مفهومًا بالنسبة إليه. لا يمكن أن تعطي دليل استعمال لجهاز مثلًا ويكون غير مفهوم لصاحبه، لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

هناك بحث عند علمائنا وهو هل أن ظواهر القرآن الكريم حجة للفقيه يستطيع أن يستنبط منها الأحكام، فإذا رأى مثلًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[3]، يقول

(1) سورة الزمر: آية 30.
(2) سورة القمر: آية 22.
(3) سورة المائدة: آية 6.

لك لفظة اغسلوا تدل على الإلزام والوجوب فإذن غسل الوجه واجب بنص القرآن الكريم، هذا لا يتيسر إلا إذا قلنا أن ظاهر القرآن الكريم حجة وهذا ما التزم به أغلب المسلمين من مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن المدارس الإسلامية الأخرى، ولذلك فإنهم يجعلون ظواهر القرآن من الأدلة على الحكم الشرعي.

نعم بعض أتباع أهل البيت عليهم السلام من إخوتنا في المدرسة الأخبارية وهي مدرسة رديفة للمدرسة الأصولية. وفيها علماء فحول كبار بل إن أصحاب المجاميع الحديثية الكبرى هم محسوبون على هذه المدرسة، هؤلاء قالوا نحن لا نستطيع أن نفهم القرآن الكريم، وإنما يفهمه من نزل عليهم وهم محمد وآل محمد صلى الله عليهم أجمعين، فإذن لا بدَّ ونحن نريد فهم القرآن الكريم أن ننظر إلى أخبار وروايات أهل البيت عليهم السلام، وهذا الكلام حسب رأي علمائنا جزء منه صحيح وجزء منه غير صحيح .

الجزء الصحيح منه أنه لا شك ولا ريب أن العلم بكل القرآن والإحاطة بكل ما فيه محصور في محمد وأهل بيته فلا يستطيع أحد من المسلمين كائنًا من كان، علمًا وفهمًا، أن يقول أنا أحيط بعلوم القرآن الكريم ولو ادعى ذلك يمتحن ويسقط في الامتحان

إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطيبين الطاهرين، الذين ورثوا هذا العلم من جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا المقدار من الكلام صحيح وهو أن الإحاطة بعلم القرآن من أوله إلى آخره منحصر في أهل البيت، أما باقي العلماء يعلمون شيئا كثيرًا من القرآن الكريم ولكن لا يحيطون بعلم القرآن كله.

والقسم الآخر الصحيح أيضًا أن أعماق القرآن الكريم وكل بطونه المختلفة إنما يعرفها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومون عليهم السلام، أما سائر الناس بمن فيهم من العلماء المتبحرين ليسوا بهذا المقدار، هذا المقدار الصحيح من كلام إخواننا علماء المدرسة الأخبارية من الإمامية.

وأما القسم الآخر غير الصحيح فإننا نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة منه آيات محكمات هن أم الكتاب وهذه الآيات المحكمات ميسرة للناس على اختلاف منازلهم ودرجاتهم وقد أُمروا أن يتدبروا فيها ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2]، هذا المقدار من الحث والتشجيع والدعوة إلى الانفتاح على القرآن يعني

(1) سورة محمد: آية 24.

(2) سورة القمر: آية 22.

أن بإمكان الناس على اختلاف درجاتهم العلمية أن يتناولوا من القرآن الكريم بحسب مستوياتهم، فالفقيه يجد في مائدة القرآن ما يشبع نهمه، وكذلك يستفيد الإنسان العامي عندما تقول له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]، هذه واضحة بالنسبة له يفهم عندما تقول له ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾[2]، وأمثال ذلك.

فالإحاطة بالقرآن الكريم من أوله إلى آخره وبأعماقه هي من اختصاص أهل البيت عليهم السلام وفي طليعتهم سيدهم وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا كان المقصود أننا لا نفهم شيئًا من القرآن الكريم فهذا يخالفه الوجدان.

بل نجد مفسرين من مختلف المدارس الفقهية، يفسرون القرآن الكريم وفي كثير من الآيات يكون تفسيرهم صائبًا، وذلك أن من يعرف اللغة العربية عندما يقرأ القرآن لا يقرأ ألغازًا وإنما يقرأ آيات يعرف معانيها بحسب تعقله وقدرته الذهنية، فإذن ظواهر القرآن الكريم بهذا المعنى حجة لذلك.

قالت سيدتنا الزهراء عليها السلام بعد ما وصفت القرآن الكريم كِتابُ اللَّه النّاطِقُ، والقُرْآنُ الصّادِقُ، وَالنُّورُ السّاطِعُ، وَالضِّياءُ اللاّمِعُ

(1) سورة النحل: آية 90.

(2) سورة الإسراء: آية 32.

تقول بينة بصائره متجلية ظواهره، هذه الظواهر والبصائر واضحة للناس يستطيع الإنسان أن يصل إليها.

بلاغة الزهراء عليها السلام في طريقة الاقتباس من القرآن الكريم:

قسم آخر من أحاديث السيدة الزهراء عليها السلام حول القرآن في هذه الخطبة ما يرتبط بالاقتباس القرآني وهذا من آيات البلاغة العجيبة في لسان هذه المرأة الجليلة صلوات الله وسلامه عليها، الاقتباس في اللغة العربية من فنون الشعر والنثر وآيات البلاغة، أن يكون الخطيب أو الشاعر قادرًا على اقتباس كلام لغيره وتضمينه في كلام هذا يسمى اقتباسًا.

والكلمة جاءت من القبس في قضية نبينا موسى على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[1]، عندما خرج مع زوجته بعد أن وفى لنبي الله شعيب بما اتفقا عليه من الأجرة ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾[2]، نبي الله موسى عليه السلام مع أن الاتفاق كان على ثمان سنوات من العمل لكن أتمها عشر سنوات.

(1) سورة طه: آية 10.

(2) سورة القصص: آية 27.

وإذا كان لنا أن نأخذ من درس تربوي من هذه الآية، فإننا نقول بأن المطلوب من الإنسان أن يتم للطرف الأخر ما توافقا عليه، على خلاف ما قد يوجد عند البعض، حيث يكون لديه سائق يعمل عنده بألف ريال مثلا، فيحاسبه حين الراتب على النقير والقطمير. لأنك فعلت كذا ينقص من راتبك كذا، ولأنك تركت كذا يخصم عليك كذا. غير أن نبي الله موسى يجعل تمامًا ووفاءً فوق الاتفاق عشرين في المائة تقريبًا أصل الاتفاق ثمان سنوات عمل مقابل أن أتزوج ابنتك هذا هو الوفاء، ويعلمنا القرآن من خلال ذلك أنه عندما تريد أن تعطي فأوف الكيل، ولا تكن من المطففين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (*) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1].

نبي الله موسى خرج في ليلة برد شاتية ومعه زوجته وأغنامه فلاحت له نار من مكان بعيد في الصحراء قال: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[2] فذهب موسى عليه السلام ليقتبس نارًا أي يأخذ قبسًا، ومن هنا أُخذ هذا المصطلح في اللغة العربية. فحينما يتكلم إنسان ويستشهد بكلام شاعر أفضل منه، يقال اقتبس منه وهكذا متحدث يتحدث فيقتبس من كلام الله عز وجل أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليقوي المطلب.

(1) سورة المطففين: آية 2ـ3.

(2) سورة طه: 10.

ثلاثة عشر اقتباساً بديعًا للزهراء عليها السلام من القرآن الكريم:

قامت الزهراء عليها السلام بالاقتباس من آيات القرآن الكريم في عملٍ بلاغيٍ لا نظير له، لأن الاقتباس درجات؛ أعلاها ما إذا كان الكلام المأخوذ من القرآن الكريم يجري مع كلام المتكلم، بحيث أنك للوهلة الأولى تظنه من عبارة المتكلم.

نقول للوهلة الأولى وإلا فإن بلاغة القرآن، وإعجاز كلماته وتراكيبه لا يصل إليها كائن من البشر بمن فيهم الأنبياء والأوصياء، بل ما لديهم من بلاغة هو ظلال لذلك الأصل. وفرع من تلك الشجرة.

سوف نلاحظ أن مساحة الاقتباس التي مرت عليها سيدة النساء واسعة حيث تمددت اقتباساتها على إحدى عشرة سورة، فقد اقتبست من آل عمران والنساء وفاطر والتوبة والمائدة والكهف وإبراهيم والشعراء وسبأ وهود والهمزة، واختصت التوبة بأكثر من اقتباس ولا غرابة فإن سورة التوبة من أسمائها الفاضحة.

ونشير إلى أن هناك اختلافًا بين الاقتباس من القرآن والاستدلال بآياته، فبالرغم من اجتماع هذين الأمرين في خطبة الزهراء عليها السلام إلا أن بينهما فرقًا، فإن الاقتباس كما ذكرنا هو جانب بلاغي وأدبي يجعل المقتبِسُ النص المقتبَسَ وكأنه جزء من

كلامه، ويوصله به حتى يغدو أشبه بالنسيج الواحد، كما ستأتي أمثلته. وأما الاستدلال فهو أن يأتي المتحدث بنص يستفيد منه في الاستدلال ويتكئ عليه في إثبات مطلبه من غير التزام بأن يتسانخ في اللفظ مع لفظ المستدل. كاستدلال الزهراء بآيات الميراث بشكل عام أو في خصوص وراثة الأنبياء.

بعد كل هذا لا بدَّ أن نشير إلى أن كل ما سنأتي به وهو جزء بسيط من جهات البلاغة الفاطمية كان في ظرف معاكس لوضع السيدة الزهراء عليها السلام فإنها في ذلك الوقت لتوها قد فقدت أباها رسول الله ومن يبتلى بمصيبة بهذا النحو يتأثر عادة في تركيز كلامه وبديع نظامه، كما أنها تعيش أزمة الاعتداء على منصب وموقع زوجها أمير المؤمنين عليه السلام وإبعاده عن الخلافة وقيادة الناس، وهي إلى ذلك تخطب في المسجد بين الرجال وإن كانت هناك ملاءة قد جعلت بينها وبينهم.

ولنعود إلى أصل الموضوع نقول: وُجد في خطبة الزهراء عليها السلام اثنا عشر اقتباسًا من القرآن الكريم بعضه آية أو جزء من آية وربط بنحو تظنه كلامًا واحدًا.

ولعل هذا هو الذي خفي على البعض عندما زعم بعضهم بأن هناك خطأ في دعاء أبي حمزة الثمالي، وبالغ بعض المخالفين

عندما قال إما أن يكون هذا الدعاء غير صحيح الانتساب للسجاد أو أنه لم يكن حافظًا للقرآن! قالوا: إن هناك آية في الدعاء [واسألوا الله من فضله إن الله كان [بكم رحيما]] ولا توجد آية في القرآن هكذا إنما الآية الموجودة ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1] والجواب: أنهم لو كانوا يعرفون معنى الاقتباس في أساليب الخطاب باللغة العربية ما كان لهم أن يعترضوا بهذا الاعتراض!.

وتفصيل الجواب:

أن هاتين آيتان، ولشدة المناسبة بينهما ألصقهما في الدعاء، وفي الكتابة يتبين ذلك بوضوح عندما يقوم الكاتب بفتح قوس للآية الأولى ثم يغلقه ويفتح قوسا للآية الأخرى فهنا يتبين الأمر بوضوح لكن الأمر ليس كذلك عندما يكون الدعاء بصورة القراءة، فلا يمكن للداعي أن يقول مثلًا: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ (نغلق القوس) ثم يقول (نفتح قوسًا جديدًا) ويقرأ الآية الثانية! ولكن من يعرف قانون الاقتباس وشدة المناسبة بين الفقرتين يعرف لماذا ألصقهما الداعي أو المتحدث!.

(1) سورة النساء: آية 32.

الآية في سورة النساء ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1]، وفي آية أخرى قبلها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2]، وذيل الآية الأولى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لا يتناسب مع مسار الدعاء، الدعاء يحتاج إلى ماذا؟ يحتاج إلى فضل ورحمة لذلك جاء بذيل الآية السابقة على طريقة الاقتباس والإلصاق، فاستفاد من الآية الأولى من مقطعها الأول ومن الآية الثانية من مقطعها الثاني وسيأتي أمثاله في خطبة الزهراء عليها السلام.

هاتان فقرتان من آيتين ولكن سياق الحديث جعلهما هكذا لا أن هذه آية واحدة، ولو أن الإمام زين العابدين عليه السلام جاء بالآية ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، لا ينسجم مع حالة الاسترحام والاستعطاف في الدعاء الموجود.

الاقتباس الأول:

«وحرّم الله الشرك إخلاصًا له بالربوبيّة فـ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»[3].

(1) سورة النساء: آية 32.

(2) سورة النساء:29.

(3) سورة آل عمران: آية 102.

بعد هذه المقدمة القصيرة، فلنرَ الآن كيف اقتبست فاطمة الزهراء عليها السلام العديد من الآيات المباركات من ذلك فذكرت أول شيء «وحرّم الله الشرك إخلاصًا له بالربوبيّة فاتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون»، فإن مقتضى الإخلاص لله بالربوبية أمران: أن تكون كيفية العمل بما يؤدى فيه حق الله تعالى، فالتقوى ينبغي أن تكون حق تقاته، والجهاد ينبغي أن يكون حق جهاده، وهكذا والآخر أن يستمر المؤمن على ذلك فلا يكفي أن يقوم بهذا الأمر لمرة واحدة أو في شهر واحد وإنما أن يستمر عليه حتى يضمن أن لا يأتيه الموت إلا وهو مسلم.

الاقتباس الثاني:

«وأطيعُوا اللَّهَ فيما أمَرَكُمْ بِهِ وَنَهاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾»[1].

ويعلم القارئ الكريم أنه تم تقديم لفظ الجلالة (الله) مع أن اللفظ في موضع المفعول به وهو مؤخر لاقتضاء الحصر والقصر ذلك، فلو قالت الآية المباركة إنما يخشى العلماءُ الله لما أفاد نفس المعنى المطلوب فيه القصر، فغاية ما تثبت هذه الجملة أن

(1) سورة فاطر: آية 28

العلماء يخشون الله، لكن هل يخشاه غيرهم أو لا فإن الجملة هذه لا تتعرض له، ولا تؤدي نفس المعنى، مع أن المطلوب في الآية المباركة هو القول أن خشية الله فرع عن العلم به فمن لا يكون عالما بالله تعالى لا يخشاه ولا يخافه، وبمقدار ما يعلم به يخشى ويخاف ويتقي.

وفيما يرتبط بالخطبة فإن الصديقة الطاهرة فاطمة قد طوت مقدمة هي أنكم بتبليغ النبي الرسالة وجهاد الوصي في سبيلها قد أصبحتم عالمين بربكم عارفين بواجباته عليكم وبنواهيه لكم، فيقتضي هذا أن تستجيبوا بالعمل وأن تخشوه حق الخشية لأنه إنما يخشى اللَّهَ العلماءُ به والعارفون بعظمته والواعون بواجبهم تجاهه.

الاقتباس الثالث:

«اعْلَمُوا أنِّي فاطِمَةُ، وَأبي مُحمَّدٌ ﷺ، أَقُولُ عَوْدًا وَبَدْءًا، وَلا أَقُولُ ما أَقُولُ غَلَطًا، وَلا أَفْعَلُ ما أَفْعَلُ شَطَطًا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»[1].

(1) سورة التوبة: آية 128

في تعريفها صلوات الله عليها لنفسها، وتوجيهها لفعلها وخطبتها ومحتوى تلك الخطبة، فهي تخبرهم أنها فاطمة بنت النبي، حتى يستذكر المهاجرون والأنصار أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقها، والفرض أنهم لا يزالون يتذكرونها، وحتى لا يتوهم بعض الحاضرين آنئذ أنها لا ينبغي أن تخرج أو تخطب، بل حتى لا يتخرص بعض أتباع مدرسة الخلفاء في المستقبل في تخطئتها وهي التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها فقد استبقت كل هذا وقالت: إنها تقول ذلك عودًا وبدءًا، وأن ما تقوم به من الاحتجاج عليهم ليس عملًا خاطئًا وأن كلامها ليس غلطًا.

في هذه الحالة أكملت كلامها بآية مباركة وقد جاءت شديدة المناسبة حتى يتصور السامع لأول مرة أنها جزء من الكلام ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

الاقتباس الرابع:

«وَأَنْتُمْ تزْعُمُونَ أن لاّ ارْثَ لَنا، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»[2].

(1) سورة التوبة: 128.

(2) سورة المائدة: آية 50.

تذكّر عليها السلام الحاضرين بأن هناك منهجين: جاهليا يمنع على المرأة أن ترث من أبيها لمبررات خاطئة وكانوا يسيرون عليه قبل أن يأتي الإسلام فيقول قرآنه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[1] والمنهج الآخر هو ما جاء به القرآن، والقضية ليست قضية أسماء وشعارات وإنما هو التزام ببرامج فمن يلتزم بالمنهج الأول في حياته فهو جاهلي وإن قال بسم الله، والله أكبر!

وهذا هو ما أشارت إليه الصديقة بأنكم «تزْعُمُونَ أن لاّ ارْثَ لَنا» ومن يعتقد هكذا ويطبقه عمليًّا فهو صاحب منهج جاهلي، بعدما رغب عن المنهج الإلهي وابتغى المنهج الجاهلي. وقد استعانت في فكرتها تلك بالآية القرآنية ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»[2].

الاقتباس الخامس:

«ابتدارًا زعمتُم خوفَ الفِتنَة، ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[3].

(1) سورة النساء:7.

(2) سورة المائدة: آية 50.

(3) سورة التوبة: آية 49.

في هذا الموضع تقول «ابتدارًا زعمتُم خوفَ الفِتنَة» يعني بادرتم وذهبتم سراعًا خلف السقيفة والبيعة، فلم تراعوا وصية النبي ولا حتى انتظار دفن جنازته، بحجة ألّا تكون هناك فتنة! لكن الحقيقة هي أنكم سقطتم في الفتنة، وما خفتم من وقوع الناس فيها نظريًا واحتمالًا وقعتم فيه وسقطتم في مستنقعه عمليًا وواقعًا! وبينما شخصت الواقع الخارجي من أنهم وهي تخاطب أهل السلطة الحاضرين بقولها «ابتدارًا زعمتُم خوفَ الفِتنَة» لكن الواقع هو ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾»[1]، وهذا القسم آية قرآنية من سورة التوبة ولكن الناظر إليها يرى لشدة المناسبة والسلاسة في الانتقال كأن الجميع جملة واحدة.

الاقتباس السادس والسابع:

«وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرةٌ، وأحكامهُ زاهرةٌ، وأعلامه باهرةٌ، وزواجرُهُ لائحةٌ، وأوامره واضحة، وقد خلفتُموه وراء ظهوركم، أرغبةً عنه تُريدون؟ أم بغيره تحكُمُون؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[3].

(1) سورة التوبة: آية 49.
(2) سورة الكهف: آية 50
(3) سورة آل عمران: آية 85

وهنا الاقتباس في أعلى درجاته بحيث بعد أن مهدت بوصف القرآن بأوصاف عالية، قرعت أهل السلطة وأنصارهم بأنهم قد خلفوه وراء ظهورهم ولم يعملوا به لا في اتباع وصية رسول الله بتأمير علي بن أبي طالب عليه السلام وقد أمر القرآن باتباعها بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1] ولا في توريث فاطمة من أبيها وقد صرح القرآن به. ثم تخاطبهم حيث كانوا بهذا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم، «أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون»؟ وهنا تقتبس من القرآن شعلة ضياء من موردين وسورتين، فتأتي بآية من سورة الكهف ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[2] وتردفها مباشرة بأخرى من سورة آل عمران ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.[3]

(1) سورة الحشر: 7/ وقد يقول بعضهم بأن الآية واردة في سياق الحديث عن الغنائم والفيء والعطايا وأن ما يعطيهم الرسول فليأخذوه وما ينهاهم عنه فلينتهوا، وفي الرد على هذا يقال أن المورد لا يخصص الوارد كما اتفق عليه العلماء وإلا لكانت أكثر الآيات الواردة في موارد محددة ومعينة لا ينبغي العمل بها في غير تلك الموارد، وهذا يعني تجميد أحكام القرآن في عصرها الذي نزلت فيه فلا يكون شريعة مستمرة ليوم القيامة. هذا بالإضافة إلى أن قياس الأولوية حاكم هنا فإذا كان الأمر بالنسبة للقضايا المالية وهي لا تساوي شيئا عند الخالق ولا عند الرسول، وكان يجب الأخذ بها والانتهاء عما نهى عنها فمن باب أولى أن يكون الأمر كذلك في أمور الدين والعقيدة والطريق إلى الأخرة. ولا يمكن أن نتصور أن الأمر جزمي وثابت في أخذ خمسة دراهم والانتهاء عن مثلها في الأمر والنهي لكنه في أحكام الصلاة يكون الأمر غير واجب أو في ترك التصدي للقيادة والإمامة من غير استحقاق يكون النهي هنا غير لازم.

(2) سورة الكهف: 50.

(3) سورة آل عمران: 85.

وهنا نعيد إلى الأذهان ما ذكرناه في ذيل الاقتباس الأول من أن بعضهم لما لم يطلع على هذا الفن البلاغي نسب إلى الدعاء أن فيه آية غير صحيحة، فلا ينبغي أن يتصدى أحد هنا ليقول إن الآية الثانية ليست تكملة للأولى وأنهما في سورتين مختلفتين!

الاقتباس الثامن:

في قولها عليها السلام «فأنى حِرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

إنها عليها السلام بعد أن خاطبت الأنصار بالقول: إيها بني قيلة.. وذكرت جهادهم في سبيل الدين وتضحيتهم في نصرة رسول الله ودعوته ومعاضدتهم لبني هاشم في رفع راية الدين، تتساءل مستنكرة ما الذي حدث بكم؟ ولماذا نكصتم بعد إقدامكم السابق، وتحيرتم بعدما اتضحت لكم الرؤية، وأن هناك خطين في الأمة، وكان ينبغي عليكم مواجهة التيار القرشي الذي كان على خط العداء معكم ومع رسول الله وهاهم الآن يبعدون وصيه

(1) سورة التوبة: آية 13.

ويحرمون ابنته! هل تخشون منهم؟ والحال أنكم هزمتموهم في ما سبق من المعارك في تأسيس الدين؟ وأيضًا فإن الله هو الأحق بالخشية لا هؤلاء!

الاقتباس التاسع:

ولا تزال الزهراء عليها السلام في صدد تقريع وتوبيخ الفئة الأكبر وهي الأنصار فتصفهم بأنهم قد أخلدوا إلى الراحة وتراجعوا عن العزيمة والنصرة فكأنهم قد أخرجوا ما ابتلعوه وتقيأوا ما تسوغوه لكن هذا لا يؤثر في المؤمنين بقضيتهم لأن الله معهم والله غني عمن يخذل دينه فها هي تقول: «ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم، فـ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾»[1].

الاقتباس العاشر إلى الثالث عشر:

وحيث وصلت إلى نهاية خطبتها أخبرتهم بما صدقته الوقائع من أنها لا تتوقع منهم شيئًا ذا بال ولكنها تقدمة الحجة حتى لا يتعلل أحد بأنه لم يعلم بالقضية أو لم يحط بها خُبرًا، وهي إلى ذلك فيضة النفس ونفثة الغيظ لا لأجل موضوع مادي وشخصي

(1) سورة إبراهيم: 8.

وإنما للغضب مما وصلت إليه حال المسلمين بعد كل تلك الجهود التي بذلت! «ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القنا، وبثة الصدور، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الله، وشنار الأبد، موصولة بـ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (*) ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[1]، فبعين الله ما تفعلون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] وأنا ابنة نذير ﴿لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[3]، فاعملوا ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ (*) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾»[4]

(1) سورة الهمزة: 6ـ7.
(2) سورة الشعراء: 227.
(3) سورة سبأ:46.
(4) سورة هود: 121 ـ 122.

التوحيد في خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام

حين ابتدأت بالحديث عن التوحيد قالت:

«الْحَمْدُ للَّهِ عَلى ما أنْعَمَ، وَلَهُ الشُّكْرُ على ما أَلْهَمَ، وَالثَّناءُ بِما قَدَّمَ، مِنْ عُمومِ نِعَمٍ ابْتَدَأها، وَسُبُوغ آلاءٍ أسْداها، وَتَمامِ مِنَنٍ والاها، جَمَّ عَنِ الإحْصاءِ عدَدُها، وَنأى عَنِ الْجَزاءِ أَمَدُها، وَتَفاوَتَ عَنِ الإِدْراكِ أَبَدُها، وَنَدَبَهُمْ لِاسْتِزادَتِها بالشُّكْرِ لِاتِّصالِها، وَاسْتَحْمَدَ إلَى الْخَلايِقِ بِإجْزالِها، وَثَنّى بِالنَّدْبِ إلى أمْثالِها، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، كَلِمَةٌ جَعَلَ الإخلاص تَأْويلَها، وَضَمَّنَ الْقُلُوبَ مَوْصُولَها، وَأَنارَ في الْفِكَرِ مَعْقُولَها. الْمُمْتَنِعُ مِنَ الأبْصارِ رُؤْيتُهُ، وَمِنَ الْألْسُنِ صِفَتُهُ، وَمِنَ الأَوْهامِ كَيْفِيَّتُهُ. اِبْتَدَعَ الأشياء لا مِنْ شَيْءٍ كانَ قَبْلَها، وَأَنْشَأَها بِلا احْتِذاءِ أَمْثِلَةٍ امْتَثَلَها، كَوَّنَها بِقُدْرَتِهِ، وَذَرَأَها بِمَشِيَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ حاجَةٍ مِنْهُ إلى تكْوينِها، وَلا فائِدَةٍ لَهُ في تَصْويرِها إلاّ تَثْبيتًا لِحِكْمَتِهِ، وَتَنْبيهًا عَلى طاعَتِهِ، وَإظْهارًا لِقُدْرَتِهِ، وَتَعَبُّدًا لِبَرِيَّتِهِ، وإعزازًا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ

جَعَلَ الثَّوابَ على طاعَتِهِ، وَوَضَعَ العِقابَ عَلى مَعْصِيتَهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِياشَةً مِنْهُ إلى جَنَّتِهِ». صدقت مولاتنا فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

الابتداء بالحمد ميزة الخطاب الإسلامي:

تبدأ السيدة الصديقة عليها السلام أولًا بالحمد لله، الحمد لله على ما أنعم.. هذا الابتداء في الخطاب هو أسلوب إسلامي متميز لم يُعهد في الديانات الأخرى السابقة أو في الخطابات بهذا التركيز والكثافة، لكن في الحالة الإسلامية نحن نجد الابتداء بالحمد لله حاضرًا في القرآن الكريم فهنالك عدة سور تبتدئ بالحمد لله أولها وأهمها سورة الفاتحة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (*) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] بدء الفاتحة التي هي أم الكتاب وخلاصة القرآن كما يقول المفسرون بدؤها ومطلعها بالحمد، فكان بداية الكتاب الكريم بداية القرآن العظيم هي بداية حمدية لماذا هذا التعبير والاستخدام بالحمد؟ وماذا يعني؟.

حضور البداية بالحمد لله عز وجل في الأدعية حضورًا كبيرًا، راجعوا الصحيفة السجادية وغيرها من الكتب المخصصة للأدعية

(1) سورة الفاتحة: 1 ـ 2.

سوف تجدون الأدعية التي تبدأ بالحمد أدعية كثيرة منها دعاء عظيم للإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة بلغنا الله وإياكم موقف عرفات وحج بيت الله الحرام، يبدأ بـ «الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع ولا لعطائه مانع» وهكذا، حينما يخطب أمير المؤمنين عليه السلام نجد الحمد أيضًا حاضرًا في خطبه «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي نعماءه العادّون».

فالبداية الحمدية التي هي أسلوب إسلامي متميز نجدها في أعظم النصوص وهو القرآن الكريم وهو خطاب الله للإنسان، كما نجدها في الأدعية التي هي خطاب الإنسان لله تعالى، أيضًا جملة وافرة من الأدعية تبدأ بالحمد وخطب المعصومين عليهم السلام كما ذكرنا، بل وغيرهم ممن تأثر بمنهجهم يبدؤون بالحمد، فالسيدة فاطمة تستخدم هذا الأسلوب «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم - من ماذا؟ - من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء اسداها وتمام منن والاها».

عموم النعم قد تكون ناظرة إلى عموم المنعم عليهم، وهذا من فضل الله عز وجل إذ لم يجعل نعمته محصورة في طائعيه وعابديه، وإنما فضل الله كان اوسع من ذلك وعطاؤه أعظم، فجعل نعمته عامة لكل من خلق حتى ذلك العاصي بل الملحد،

وقد تكون ناظرة إلى نفس النعم، إنها نعم عامة لا تختص بجهة دون أخرى، ليست في جانب دون جانب.

وأيضًا «سبوغ آلاء» السبوغ هو الاتساع والانتشار يقال درع سابغة يعني درع واسع منتشر غير ضيق، كذلك آلاء الله سبحانه وتعالى آلاء منتشرة، يعني أنا وأنت حياتنا قد تقوم بالماء وشيء من الرز والخبز وشيء من اللحم، لكن تعال وأنظر إلى نعم الله المختلفة، تجد في الطعام الفواكه التي خلقت بأشكال مختلفة وأطعمة متعددة وألوان كثيرة، مع أن الإنسان قد لا يحتاجها كلها حاجة أساسية بمعنى انه لو انقطعت عنه لا تقوم حياته، ولكن هذا من انتشار النعمة الإلهية وسبوغها في كل شيء فالحمد لله رب العالمين، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[1].

«وتمام منن والاها» نعمة الله حين تأتي إليك تأتي تامة فهي في منتهى الكمال ولا يوجد من ورائها غاية، الخلقة التي أنت عليها أيها الإنسان هي في ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[2] جمالًا وكمالًا وأداء، ولو اجتمع البشر لكي يشكّلوا آلة تخدم الإنسان بغير هذا الشكل فيها يجتمع جمال الشكل وكمال الأداء والتكامل مع سائر الأجهزة،

(1) سورة النحل: 18.

(2) سورة التين: 4.

لا يستطيعون أبدًا، مع أن الله تعالى قادر أن يجعله يؤدي الغرض لكن من غير جمال أو تناسق كأن يجعل أنفًا للتنفس لكن ليس بالضرورة أن يكون جميلًا رائعًا يتغنى به، أو يخلق وسيلة إبصار لكن لا بهذا النحو الجميل والكامل.. إلا أن الله سبحانه جعل نعمه تامة بحيث لا يستطاع القول بأن يا ليت كان هكذا أو على ذلك النحو المختلف! ولك للمقارنة أنك حين تذهب إلى منزل في غاية الجمال، يبقى في ذهنك اقتراح أن لو كان هكذا أو بذلك الشكل أو.. لكان أفضل. لكن في نعم الله سبحانه وتعالى جعل هذا الأنف نقطة جمال وكمال في نفس الوقت، فالنعم هنا تامة لا يوجد من ورائها قول يا ليت كان بهذا الشكل، فمثلًا أنت حينما تذهب إلى بيت وتقول هذا البيت جميل لكن لو كان الترتيب بهذا الشكل لكان أجمل، لكن بالنسبة إلى نعم الله عز وجل لا يوجد لمثل هذا الكلام أبدًا.

لم أكن أريد أن أطيل في المقدمة لتعداد السيدة الزهراء عليها السلام لهذه النعم بأشكالها المختلفة وبتعبيرات متعددة كل تعبير يفيد معنى غير التعبير السابق وتحمّل الإنسان مسؤولية هذه النعم ثم تأتي في قضية معرفة الله عز وجل.

لاحظ أن السيدة الزهراء جاءت تناظر في موضوع الخلافة

والإمامة ابتداءً من التعريف بالله عز وجل ثم التعريف بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم التعريف بسيرة أمير المؤمنين عليه السلام ونشأة التشيع ثم تأتي إلى البحث الخاص في الإمامة والميراث.

التعريف بالله تعالى: أشهد أن لا إله إلا الله:

«أشهد أن لا إله إلا الله؛ كلمة» تقرأ كلمة بنحوين؛ بالضم؛ وبالفتح «جعل الإخلاص تأويلها وضمّن القلوب موصولها وأنار في التفكر معقولها» أشهد أن لا إله الله: لها جهتان؛ جهة ظاهرية هي هذه الكلمة التي إذا قالها الإنسان وأتبعها بالشهادة لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يترتب على هذه الكلمة مجموعة من الآثار، منها أن هذا الإنسان يكون مسلمًا ويكون ماله حرامًا محترمًا وعرضه كذلك، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ولكن هناك جانبًا أعمق لها، فهذا يحتاج إلى التأويل والغوص في هذه الكلمة وينتهي إلى تخليصها من شوائب المعرفة الخاطئة لله عز وجل، إذا أردت أن تعرف الله معرفة عميقة تحتاج إلى أن تجرد هذه المعرفة من الشوائب، كيف يعرف اليهود ربهم بشكلٍ، ويعرف بعض المسلمين ربهم بشكلٍ آخر؟ كما سيأتي؟ وكيف يَعرف ويُعرّف أهل البيت عليهم السلام ربهم؟ فلا بدَّ أن تكون هذه المعرفة خالصة من الشوائب والمعارف غير الصحيحة.

إن إخلاص العبادة لله هي فرع الاعتقاد بألا إله إلاّ الله، والاعتقاد بأنه لا مؤثر حقيقة في الكون إلا هو سبحانه وبأنه لا حول ولا قوة إلا به. وهذا الاعتقاد إذا كان عميقا وحقيقيا فإن المعتقد به سوف لا يؤمن بأن قدره ورزقه بيد فلان فيتوسل إليه وبه ما لا يصنع مع خالقه، ويركض وراءه طيلة حياته ما لا يمارسه مع ربه! مع فقدان الإخلاص وإفراد الله بالعبودية والتوجه لا ينفع كثيرًا أن يكرر الشخص قول أشهد أن لا إله إلى الله.. نعم يترتب على مثل هذا القول بعض الآثار الظاهرية التي ذكرناها من تعنون الشخص بعنوان الإسلام، ولكن آثارها الحقيقية لا تحصل إلا بممارستها بصدق والإيمان بها بعمق. جعل الإخلاص تأويلًا لها وعمقًا فيها، و«ضمن القلوب موصولها»، بالرغم من أن المعرفة الكاملة والشاملة بالله سبحانه متعسرة على الإنسان، أنّ المعرفة الفطرية بالله موجودة في داخل قلب كل إنسان، قد ضمّن الله سبحانه وتعالى هذه المعرفة قلوب الناس وفطرتهم. وبهذا المقدار يمكن الاحتجاج عليهم فلا يستطيع إنسان أن يقول إن إدراك ومعرفة الله حق المعرفة لا تستطاع فإذن لا يلزم الإيمان به لعدم استطاعة ذلك.. كلا بل يقال المعرفة الفطرية والإيمان القلبي موجود في أعماق الإنسان وهو كافٍ.

نعم زود الله سبحانه الإنسان بما يستطيع معه أن يصل إلى حقائق في معرفة الله سبحانه بالتفكر وإعمال العقل «أنار في التفكر معقولها» لذلك إذا أراد أحد ان يعرف ربه ينبغي ان يعمل عقله بمقاييسه.

«الممتنع من الأبصار رؤيته ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته» هي مراحل ثلاث تتحدث عنها الزهراء عليها السلام:

1) أنّ ربنا سبحانه وتعالى يمتنع على بصر كل ذي بصر أن يراه في الدنيا وفي الآخرة إذ لا تدركه الأبصار.
2) أنه يمتنع أن يحيط به وصف الواصفين.
3) أنه يمتنع على التصور والتخيل.

لماذا كان هذا الامتناع؟ لأننا لو طبقنا ما دعت الزهراء إليه من «التفكر في معقولها» سيقول التفكر لنا إن هناك شروطا يفرضها العقل لرؤية أي شيء بالبصر: من تلك الشروط أن يكون في جهتك وانت في جهته، فلو فرضنا أنك أردت أن ترى الجدار الذي يكون في خلفك فإنك لا تستطيع وهذا واضح فأنت لا تبصره إذ ليس هو في جهتك.

وهذا لا يمكن تحققه بالنسبة لرؤية الله بالبصر، وذلك لأنه الشيء الذي يراد النظر إليه وإبصاره لا بدَّ أن يكون في جهة،

والله لا يكون في جهة دون أخرى! بل يلزم من ذلك أن يتحيز الله ويتحدد (سبحانه وتعالى عن ذلك).

استحالة رؤية الله في الدنيا والآخرة:

فيما ذهبت بعض الفرق الإسلامية إلى أن الله سبحانه يراه المؤمنون في يوم القيامة عيانا[1]! ويرونه في هذه الدنيا في المنام تؤكد الإمامية استحالة ذلك في الدنيا والآخرة، حقيقة أو في عالم الرؤيا، وتتمسك بما جاء في القرآن ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2] وقوله تعالى مخاطبًا نبيه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[3] وقد تكاثرت الاحاديث عن المعصومين في امتناع هذا الأمر، سواء كان على الأنبياء العظام أو غيرهم!

كذلك فإنه يمتنع وصف الخالق بحق صفته، وتمامها مهما أوتي من البلاغة والفصاحة، وجهة ذلك واضحة؛ فإن الوصف

(1) قد نقلنا فيما سبق بعض الروايات التي يستندون عليها في ذلك.

(2) سورة الأنعام:103.

(3) سورة الأعراف: 143 وهذا الطلب لم يكن من نبي الله موسى وإنما كان بتعلل اليهود المكذبين له، وأنه إن كان صادقًا في أنه يوحى إليه فـ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء: 153] وبحسب ما ورد في الروايات فإن نبي الله موسى استكثر هذا الطلب وعده جرأة وتجاوزا، فأوحى إليه ربه أن يسأله ما طلبوا فلن يحاسبه بسؤالهم، وذلك لكي يثبت هذا المعنى (لن تراني) ويردفه بحادثة الصاعقة حتى يبقى وقعها في الأذهان وأن ذلك من الأمور الممتنعة والمستحيلة.

التام هو نوع إحاطة والاحاطة به تستلزم المحدودية، والله سبحانه غير محدود ولعله إلى مثل هذا تكون إشارة أمير المؤمنين عليه السلام بقوله «ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود» وكذلك يمتنع على الإنسان صفته لجهة أخرى وهي أنه لكي تصف شيئا فلا بدَّ من رؤيته أو على الأقل تصوره «والاحاطة به ذهنيًّا» فلو أردت أن تصف نخلة فإما أن تراها ثم تأتي بأوصافها أو على الأقل يكون لديك تصور عنها وأنها مماذا تتركب فتصفها بناء على هذا التصور الذهني الموجود لديك عنها.

فإذا كانت رؤية البشر لله ممتنعة على أبصارهم.. فكيف يتم وصفه؟! وهكذا إذا لم يمكن (تصور) الله فكيف يمكن وصفه؟ وذلك أن ما يتصوره الإنسان ومنه ما يزعم بعضهم أنه رأى ربه في المنام لا يرتبط بالله تعالى، فهذه الصورة مخلوقة للإنسان بينما الله هو الخالق.

وهذا ما تشير له الفقرة الثالثة من كلامها عليها السلام «الممتنع من الأوهام كيفيته». وقد يؤيد هذا الكلام ما نقله في البحار عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله «كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم.. ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيتين فإن ذلك كمالها ويتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما»[1].

(1) المجلسي، بحار الأنوار66/ 295/ ولم أجده في مصدر من المصادر الحديثية الأساسية.

وبهذه الكلمات فالزهراء عليها السلام تنفي إمكانية الرؤية العيانية لله تعالى في الدنيا أو الآخرة، يقظة أو مناما، بل تنفي كل نوع من أنواع الإحاطة اللفظية بالتوصيف أو الوهمية بتشكيل الصور.

وبالتالي فإن ما جاء في كتب بعض المسلمين من أن الله يُرى يوم القيامة وأنه يكشف عن ساقه! ليتعرف عليه المؤمنون، ولا أعلم لماذا الساق فهل رأيت أحدا يُعرف من ساقه؟ وأنهم عندما ينكرونه يكشف عنها فيخرون سجدًا.. إلى آخر ما قيل[1]، لا يمكن قبوله مع تصريح سيدة النساء بخلافه، والملفت للنظر أن أحدا من الحاضرين الذين خطبت فيهم وهم جمهور المهاجرين والأنصار لم يعترض عليها في ذلك!.

وهذا النمط من الحديث والفكر هو أحد الأدلة التي تثبت

(1) الألباني، ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها 2/ 126: أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله: هل نرى ربنا عز وجل يوم القيامة؟ قال: «هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم لا تضامون في رؤية أحدهما. فإذا كان يوم القيامة نودي ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد شيئا إلا تبعه، حتى لا يبقى إلا المؤمنون، فيأتيهم الله عز وجل» فيقول: «أنا ربكم» فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا. فيقول: «هل بينكم وبينه آية؟» فيقولون: نعم. «يكشف عن ساق»، فلا يبقى أحد ممن كان يعبد الله عز وجل إلا خر له ساجدا». أقول: فيه ما سبق ذكره من استحالة الرؤية وأنه ماذا يعني أن تكون علامة الله التي يعرفها عباده هي ساقه؟ فمتى رأوها في السابق حتى إذا رأوها في القيامة يميزونها؟ وكيف يأتيهم الله؟ هل يكون في مكان فيخلو منه سائر الأمكنة؟

صحة انتساب هذه الخطبة للسيدة فاطمة وإلا فمن يستطيع أن يتكلم بهذا النحو من الدقة والعمق؟.

ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها وصورها بلا احتذاء أمثلة إمتثلها:

ثم تقول ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وقد ورد هذا التعبير في كلام أمير المؤمنين[1] والإمام الرضا عليه السلام، فلم يكن هناك شيء يحتاجه ربنا ليخلق منه الأشياء وإلا لكان ذلك الشيء قديمًا مع الخالق!، لاحظوا أيها الأحبة أن صنع الإنسان رهين ثلاثة أمور:

الأول: الغاية والسبب.

الثاني: المادة.

الثالث: المثال.

فلنفترض أنك تريد أن تبني بيتًا **فالأمر الأول**: تحتاج إلى سبب، لماذا تريد أن تبني هذا البيت؟ تريده لتسكن فيه، **الأمر الثاني**: المادة وهي المواد اللازمة للبناء، الأمر الثالث: الحاجة للمثال أو نموذج للبناء.

الله سبحانه وتعالى حين ابتدع الخلق لم يحتج لهذه الأمور

(1) الصدوق ابن بابويه، التوحيد، ص 41: الحمد للّه الواحد الأحد الصّمد المتفرد الذي لا من شيء كان، ولا من شيء خلق ما كان.

لابتداء الخلق فهو لا ينتظر فائدة من الخلق ولا يحتاج إلى مادة يخلق بها الخلق ولا يحتاج إلى مثال، هذا ما تعنيه الزهراء عليها السلام بهذه الأسطر ابتدع الأشياء، ابتدع: أنشأ من غير سابقة، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها فلا يحتاج الله إلى شيء ليخلق شيئاً آخر، إذ الاحتياج نقص وعجز ينزه عنه الله تعالى.

ولا كان يحتاج إلى هذا الخلق في خلقه إياهم، وإنما كان السبب في ذلك: المنة على الخلائق بخلقهم والتحنن عليهم بالإنعام، وظهور حكمته في تمام نعمته عليهم.

النَّبي محمَّد كما تصفه الزهراء في الخطبة الفدكية

من خطبة مولاتنا فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها أنها قالت:

«وَأَشْهَدُ أنّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجتباه، وَاصْطَفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ، عِلْمًا مِنَ اللَّه تَعالى بمسائل الأُمُور، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُورِ. ابْتَعَثَهُ اللَّهُ إتْمامًا لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذًا لِمَقادِير حَتْمِهِ، فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها. فَأَنارَ اللَّهُ بأبي مُحَمَّدٍ ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ».

متى تم الاصطفاء الإلهي لرسول ﷺ ؟

هذه الفقرة من خطبة لفاطمة الزهراء عليها السلام هي إحدى فقرتين طويلتين نسبيًا، تحدثت فيهما الصديقة الطاهرة عن أبيها رسول الله ﷺ وفي الفقرة الثانية بينت ماذا صنع رسول الله ﷺ عندما جاء برسالة ربه، ففي الفقرة الأولى تحدثت عن امر مهم وهو قضية الاصطفاء والاختيار الإلهي للنبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فيلفت النظر هذه التعابير التي استعملتها سيدة النساء عندما قالت: «اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجتباه، وَاصْطَفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ، وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ، وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ».

اختيار الله سبحانه وتعالى لنبيه كان حيث لا زمان ولا مكان ولا إنس ولا جان ولا نار ولا جنة، فلم يكن عندما اختار الله نبيه ﷺ أي شيء، فأول شيء كان في الخلائق وجودًا كان نور نبينا محمد ﷺ.

أقسام العالم: عالم الواقع وعالم التقدير

عالم الواقع:

يعتقد الإمامية بأن هناك عالمين، هذا العالم الذي نعيشه هو ما يسمى عالم العين، عالم الأعيان الخارجية الموجودة، عالم الواقع، عالم الدنيا، سمه ما شئت، هذا العالم الذي نعيش فيه

منذ أن بدأ الله بخلق أول آدم وحيث يوجد عندنا روايات بأن قبل آدمكم هذا، ألف آدم وقبل عالمكم هذا ألف عالم[1]، وهو عالم الموجودات الخارجية.

عالم التقدير:

يقول العلماء قبل عالم الواقع هذا كان هناك عالم آخر هو عالم التقدير، عالم الأمر، عالم الغيب لم يكن هناك شيء موجود لا الزمان ولا المكان موجود، لأن الزمان هو حادث ونسبة المكان أيضًا كذلك فلا شيء موجود على الاطلاق لنقرب المعنى بالمثال التالي:

عندما تُكلَّف باستحداث مدرسة متكاملة من حيث البناء والتجهيزات اللازمة من فصول وإدارة ومرافق عامة كفناء ومصلى ودورات مياه وغيره وكذلك تهيئتها من ناحية الموارد البشرية كادر إداري ومعلمين وليكن في ذهنك الآن أن هذه المدرسة غير موجودة فعليك أن تضع خطة لبنائها وكذلك تضع في ذهنك خريطة لإدارتها.. أنت الآن في مرحلة تخطيط حيث لا مدرسة ولا مدير موجود بالفعل تحت يدك، فهذا يختلف عما لو خططت

(1) تم التعرض لهذا الموضوع بنحو مفصل في كتابنا (من قصة الديانات والرسل) فليراجع.

لهذه المدرسة وهي موجودة أمامك والمدراء كذلك أمامك تنتخب واحدًا منهم.

اصطفاء رسول الله ﷺ كان في عالم التقدير:

فلو قرّبنا هذا الكون كمثال لهذه المدرسة قبل استحداثها، كون لم يُخلق بعد فلا سماوات ولا أرض ولا بشر ولا جن ولا شيء على الإطلاق، ولا يوجد هناك أحدٌ في الخارج في ذلك العالم، الله سبحانه وتعالى ـ وهذا تعبير من باب ضيق الخناق في الألفاظ ـ عندما كان يخطط لهذا العالم ويضع المقادير له قبل خلق العالم والكون وقبل خلق كل أحد كان قد اختار في ذلك الوقت سيد الأنبياء محمد ﷺ، وهذا أحد معاني ما روي عن رسول الله ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين» يعني إلى الآن آدم غير مخلوق.

في عالم الغيب والتقدير قبل كل شيء انتخب الله سبحانه وتعالى نبينا للنبوة، وهذا ما تعبر عنه فيما نعتقد سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بقولها: اختاره وانتجبه قبل أن أرسله وليس عندما خلق كل الخلق اختاره، وليس كما هو موجود في بعض المناهج الدراسية في بعض بلاد المسلمين عندما بلغ الأربعين من العمر اختاره الله للنبوة ونزل عليه الوحي، فما معنى لما بلغ أربعين

سنة؟! أبدًا ليس كذلك، بل قبل هذه الأكوان كلها كان قد انتُخِب واصطفي واجتبي.

نعم هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم الزمن والتدرج يحتاج فيه أن يولد النبي وأن يكبر وهكذا لكن الاصطفاء والانتخاب والتسمية والاجتباء كانت في عالم سابق على هذا «اخْتارَهُ وَانْتَجَبَهُ قَبْلَ أَنْ أَرْسَلَهُ، وَسَمّاهُ قَبْلَ أنِ اجتباه، واصْطَفاهُ قَبْلَ أنِ ابْتَعَثَهُ، إذِ الْخَلائِقُ بالغَيْبِ مَكْنُونَةٌ» إلى الآن الخلائق مستورة في عالم الغيب لا يوجد لها شهود ولا يوجد لها وجود خارجي «وَبِسِتْرِ الأَهاويل مَصُونَةٌ» من وراء حجب لم تصبح شيئًا خارجيًا لم تتشخص في الخارج، «وَبِنِهايَةِ الْعَدَمِ مَقْرُونَةٌ» هي أمور معدومة ما كانت موجودة اقترنت بالعدم، هناك حيث لا شيء موجود تم انتخاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كسيد للخلق ونبي للبشرية.. لماذا؟ ما هي الغاية؟ «عِلْمًا مِنَ اللَّه تَعالى بِمآيِلِ الأُمُور، وَإحاطَةً بِحَوادِثِ الدُّهُورِ، وَمَعْرِفَةً بِمَواقِعِ الْمَقْدُور»، الله سبحانه وتعالى علمًا منه بنهايات القضايا وبمآلات الأمور، كان يعلم بأن هذا النبي هو المنتخب والمجتبى وأفضل نسخة للكون خلقها الله سبحانه وتعالى حتى يصبح خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الديانات المنتشرة في الجزيرة العربية قبل بعثة النبي ﷺ

ثم تصف عليها السلام البيئة التي جاء فيها النبي ﷺ، «ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تعالى إتْمامًا لأمْرِهِ، وَعَزيمَةً على إمْضاءِ حُكْمِهِ، وَإنْفاذًا لِمَقادِيرِ حَتْمِهِ فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها».

إن أقرب الديانات جغرافيا للجزيرة العربية هي المجوسية والمسيحية، هذه في شرق الجزيرة العربية، أي إيران وتلك في الشمال والغرب في بلاد الروم وما يتبعها وكذلك في جنوب الجزيرة العربية أي الحبشة وما يتبعها. وتعتبر الديانة المسيحية قريبة من الناحية الزمنية إلى بعثة النبي ﷺ إذ الفاصلة بين النبيين نحو ستمائة عام.

وكذلك كانت اليهودية موجودة في بعض أنحاء الجزيرة العربية، وفي بلاد الشام.

الغريب الذي تشير إليه الزهراء عليها السلام أن هذه الديانات (السماوية) كانت قد تفرقت وتشعبت وتعددت بحيث أصبح كل فرقة تكفر الأخرى مع أن منبعها واحد، فمن يراجع تاريخ هذه الديانات يجد التفاصل بين أبناء الديانة الواحدة كبيرًا فضلًا عما بين الديانات المتعددة.

ففي المسيحية مثلاً وهي لم تكن تبعد عن بعثة النبي إلا بستة قرون، اختلفوا في النظر إلى عيسى بن مريم هل هو إله؟ أو هو بشر نبي؟ أو هو جزء من الإله؟ وما موقع مريم العذراء بالنسبة إلى الإله المفترض؟ وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الفرق في آياته وحكم عليها بالانحراف عما جاء به عيسى بن مريم عليهما السلام[1].

أما الجهة الشرقية ـ جهة فارس ـ فالمجوس بعدما كانوا أصحاب رسالة سماوية حصل الانحراف عندهم عنها[2] صاروا يعبدون النار ويرون أنها سر الحياة وفيها القوة الاصلية، وبالتالي لابد أن تكون متقدة ومشتعلة باستمرار، وهذه النار المتقدة لمئات السنين انطفأت بقدرة الله عندما ولد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الجزيرة العربية، اتجه العرب إلى عبادة الأوثان والأصنام، وهم في ذلك منكرون لله ظاهرًا مع اعتقادهم في داخل أنفسهم بالله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[3]، فحينما

(1) لمعرفة بعض الفرق وآرائها وتطور المسيحية وحياة المسيح يمكنكم مراجعة كتابنا: من قصة الديانات والرسل.

(2) كذلك لمعرفة تاريخ الزرادشتية المجوسية وعقائدهم والموقف الإسلامي منها يراجع كتاب قصة الديانات والرسل.

(3) سورة لقمان: آية 25

تشتد بهم الخطوب يلجؤون إلى الله تعالى ولكنهم مع ذلك يجحدون.

تشير الزهراء عليها السلام إلى هذه الخريطة الدينية بقولها «فَرَأى الأُمَمَ فِرَقًا في أدْيانِها، عُكَّفًا على نيرانِها، عابِدَةً لأَوثانِها، مُنْكِرَةً لله مَعَ عِرْفانِها».

بزوغ فجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الواقع:

«فَأَنارَ اللَّهُ تعالى بأبي مُحَمَّدٍ ظُلَمَها، وكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَها، وَجَلّى عَنِ الأَبْصارِ غُمَمَها، وَقَامَ في النّاسِ بِالهِدايَةِ، وأنقَذَهُمْ مِنَ الغَوايَةِ، وهَداهُمْ إلى الدّينِ القَويمِ، وَدَعاهُمْ إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ».

تعالوا نعقد مقارنة بين الصورة التي تقدمها الزهراء عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين الصورة التي تقدمها بعض كتب المسلمين الحديثية!.

قد سبق أن الزهراء ذكرت أن النبي هو محل اصطفاء ورعاية خاصة واجتباء واصطفاء وتسمية خاصة من الله عز وجل، حيث لم يكن هناك كون ولا كائنات بل كانت الخلائق في عالم الغيب مستورة مكنونة وبنهاية العدم مقرونة.

وهذه الرعاية والعناية لا بدَّ أن تكون من البدايات، فإذا كان الله يتحدث عن النبي موسى وهو دون نبينا فضلاً ومنزلة، ذاكرًا بعض مننه عليه ونعمه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[1] فكيف سيكون حال نبينا الذي اختاره وانتجبه واصطفاه قبل أن يخلق الخلق وبينما كان آدم بين الماء والطين؟ كيف ستكون رعايته له وعنايته بنبيه؟ وحينئذ هل نصدق ما سيقوله بعض أتباع المدارس الأخرى من أن أبويه كانا مشركين! أو أنه والعياذ بالله كان على دين قومه قبل بعثته! وأنه كان يُهدى له الخمر وأنه كان يأكل ما ذبح على النُّصُب!

أين هذه الصورة من صورة النبي الحقيقية التي يفصل القول فيها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»[2]، للأسف فإن الصورة التي تقدمها بعض كتب المسلمين المعتمدة، عن النبي لا تتطابق مع حقيقته بل بعض ما فيها على خط التعاكس والتضاد من شخصيته. لكننا ننزه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك

(1) سورة طه:41.

(2) نهج البلاغة؛ تحقيق صبحي الصالح ص 300

ونعتقد فيه بقول الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فلا يمكن أن يطال طهر النبي ﷺ درن ولا دنس ولا منقصة ولا خلق سيّئ ولوجاء بالخبر كلّ كتّاب التاريخ، فإننا نرد ذلك بما ثبت من صفاته العليا في القران الكريم والله هو أصدق القائلين. وكذلك بما ورد في أحاديث اهل البيت صلوات الله عليهم.

معاناة النبي ﷺ في تبليغ الرسالة:

فبعد هذه الصورة المشرقة التي تقدمها سيدتنا فاطمة صلوات الله وسلامه عليها للنبي ﷺ تُعرّج على معاناته في سبيل تبليغ الدين فتقول:«فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ صادِعًا بِالنِّذارَةِ، مائِلًا عَنْ مَدْرَجَةِ الْمُشْرِكِينَ، ضارِبًا ثَبَجَهُمْ، آخِذًا بِأَكْظامِهِمْ، داعِيًا إلى سَبيلِ رَبِّهِ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ يَكْسِرُ الأَصْنامَ، وَيَنْكُتُ الْهامَ، حَتَّى انْهَزَمَ الْجَمْعُ وَوَلَّوا الدُّبُرَ، وحَتّى تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ، وَأَسْفَرَ الحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الدّينِ، وَخَرِسَتْ شَقاشِقُ الشَّياطينِ، وَطاحَ وَشيظُ النِّفاقِ، وَانْحَلَّتْ عُقَدُ الْكُفْرِ وَالشِّقاقِ، وَفُهْتُمْ بِكَلِمَةِ الإخلاص مع نَفَرٍ مِنَ الْبيضِ الْخِماصِ، وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمُ اللَّهُ بأبي مُحَمَّدٍ ﷺ».

(1) سورة القلم: آية 4.

أي لم يكن تبليغ الدين والرسالة بالسهولة التي يتصورها البعض بل مر ذلك بحقول ألغام وبحروب أعداء، ومعاناة، فقد كانت المعارك مع المشركين الذين رفضوا السماح لدعوته بالانتشار فاضطر إلى حربهم ضاربًا بالسيف أعناقهم في تلك الحروب وداعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة كخط عام، ونتيجة هذا الجهاد في الميدانين: الحرب والوعي والتبليغ كان أن تفرى ليل الأصنام وظلام الجاهلية عن صبح الإسلام وشمس الحقائق، فأنقذ الله الأمة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وإذ عرجت على ذكر رحيل النبي المصطفى ذكّرت الحاضرين بطريق غير مباشر بمعادهم، وأن عليهم أن يعملوا لذلك اليوم الذين سيرحلون فيه، فهل يقبضهم الله كما أخذ رسوله قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار، ويكون الراحل حينها سائرًا من تعب الدنيا إلى راحة الآخرة مجاورًا للملائكة محبُوًّا برضوان الله وجواره؟ أو يكون في الطرف الآخر لا سمح الله. والتذكير بالمعاد ضروري حتى لا تأخذ أهلَ السلطة شهوة الحكم والسيطرة فتعميهم عن مصائرهم.. قالت عليها السلام «ثمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ إليْهِ قَبْضَ رَأْفَةٍ وَاختِيارٍ، ورَغْبَةٍ وَإيثارٍ فمحمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم منْ تَعَبِ هذِهِ الدّارِ في راحةٍ، قَدْ حُفَّ بالمَلائِكَةِ الأبْرارِ، وَرِضْوانِ الرّبِّ الغَفارِ، ومُجاوَرَةِ المَلِكِ الجَبّارِ.

صلى الله على أبي نبيَّهِ وأَمينِهِ عَلى الوَحْيِ، وَصَفِيِّهِ وَخِيرَتِهِ مِنَ الخَلْقِ وَرَضِيِّهِ، والسَّلامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكاتُهُ».

هذا المصير هو الذي يفسر لنا إقدام المعصومين عليهم السلام على الموت عالمين به مختارين إياه على ما فيه الخطر والهلكة الظاهرية والموت، لأنهم يعتقدون أنهم يختارون الله بذلك ورضوانه.

فهذا ما تقدمه السيدة الزهراء عليها السلام عن رسول الله في بداية انتخابه واصطفائه ثم بعثه ودوره إلى أن قبضه الله إليه قبضة رأفة واختيار ورغبة وإيثار.

هذا النبي الذي عمل هذه الأعمال العظيمة حيث دعاهم إلى الدين القويم وهداهم إلى الصراط المستقيم.

أليس من الحري بهم أن يُقيّموا هذه الخدمة فيحفظوا رسول الله في ولده وعترته وذريته لا أن يجردوا عليهم سيف الظلم والاضطهاد ورسول الله لم يجف تراب قبره بعد!.

مقاصد التشريع الإسلامي في خطبة الزهراء

في خطبة سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها ورد قولها: «فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق والصيام تثبيتًا للإخلاص والحج تشييدًا للدين والعدل تنسيقًا للقلوب وطاعتنا نظامًا للملة وإمامتنا أمانًا من الفرقة والجهاد عزًا للإسلام والصبر معونة على استيجاب الاجر والأمر بالمعروف مصلحة للعامة وبر الوالدين وقاية من السخط وصلة الارحام منماة للعدد والقصاص حقنًا للدماء والوفاء بالنذر تعريضًا للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييرًا للبخس».

تبين الصدِّيقة الزهراء أن الله سبحانه وتعالى شرع تشريعات، الهدف منها تكامل الإنسان العامل بها وتصاعده إلى الدرجات العالية في إنسانيته، فلو خلق الإنسان ثم أهمله عن التكليف لصار حاله حال سائر الحيوانات، يجري وراء شهواته وأهوائه ويتسافل،

وكذلك الحال لو شرع تشريعات من غير حكمة أو هدف. لكن الله سبحانه وتعالى جعل له سلمًا للصعود والتكامل، وذلك عبر برنامج تشريعي من العبادات وأحكام المعاملات. ولم يأت هذا البرنامج التشريعي عبثًا، وإنما الأصل فيه أن كل تشريع سواء كان أمرًا أو نهيًا، يهدف للوصول منه إلى غرض من الأغراض الفردية أو الاجتماعية، وربما يستطيع الناظر والمتأمل في آيات القرآن الكريم أن يلحظ ذلك في الأوامر الإلهية أنها في العادة تنتهي بقوله تعالى (لعلكم..) وفي هذه العبارة إشارة إلى حكمة وهدف التشريع الذي سبق هذه الكلمة، وأحيانًا تأتي جملة هي كالتعليل والإشارة إلى فلسفة التشريع المأمور به قبلها[1].

ضمن هذا الإطار ينبغي أن نتأمل في كلمات الزهراء عليها السلام والتي تحدثت فيها عن بعض فلسفة التشريعات الإسلامية، قالت: فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك والصلاة تنزيهًا لكم عن الكبر.

(1) ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: 179] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:183] ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة:186] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[البقرة: 189] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: 130] ومن النمط الثاني في التعبير عن فلسفة الأحكام والتشريعات قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:45].

هل التعبير بالإيمان هو الصحيح أو العقيدة؟

يقول بعض الباحثين إننا نلاحظ أن أتباع المدرسة السلفية دائمًا ما يركزون على العقيدة، وتصفية العقيدة وأركان العقيدة الصحيحة وما شابه ذلك، وهذا ـ كما يقول ـ مخالِفٌ حتى لمنهجهم فضلًا عن مخالفته للاتجاه الصحيح، وبيان ذلك أن كلمة العقيدة ومشتقاتها لم تأت في المصادر الدينية، فلا نجد مثلًا كلمة العقيدة في القرآن الكريم او الفعل منها: اعتقد يعتقد أو فاعلها معتقد، والمفروض في المدرسة السلفية لما كانت تحتج على الآخرين بأن الشيء الكذائي لم يكن على زمن رسول الله أن تكون محجوجة بهذا فهذا الاهتمام العظيم الذي يعطى لهذا المفهوم (العقيدة) من دون أن يكون له أثر في القرآن الكريم.. كيف يكون صحيحا؟ وحتى عندما جاءت كلمة (عقدتم) فقد أتبعت بالإيمان (عقدتم الإيمان) وهو غير ما نحن فيه.

والصحيح هو أن يستبدل ذلك بكلمة (الإيمان بالله) فإن هذه الكلمة ومشتقاتها يدور عليها محور آيات القرآن الكريم حيث وردت مع مشتقاتها (آمن، يؤمن، يؤمنون، المؤمنون، المؤمنات) ما يقرب من 800 مورد.. وهذا الكلام صحيح والإشكال عليهم وارد.

نلاحظ هنا أن الزهراء قالت فجعل الله الإيمان تطهيرًا لكم من الشرك.. وكأنما الشرك قذارة تحل بالإنسان ورجس معنوي، بحيث لا يعود ذلك الإنسان هو الطاهر الذي فطره الله على الإيمان به، فبعدما كان ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾[1] وإذا به يغدو بالشرك ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[2] ودور الإيمان بالله هو أنه يطهر ويزكي ويصفي هذا الإنسان من أدران الشرك وقذاراته. سواء تلك التي ترتبط بالإيمان بغير الله وترتبط بشركه، أو تلك التي ستترتب على الممارسات الخارجية بعدما كان لا يخضع لأوامر الله ونواهيه مع فرض كونه مشركا، ولنا في الواقع الخارجي خير مثال حيث وصل الحال بمن تركوا الإيمان بالله إلى مستوى تأباه البهائم لقذارته.

«وجعل الصلاة تنزيهًا لكم عن الكِبْر» إن المعادل الآخر للإيمان في جهة القلب هو الصلاة في جهة الفعل فهي عمود الدين، من جهة ومحققة للخضوع في مقابل الكبر الذي يدعو الإنسان للتمرد على أوامر الله سبحانه كما دعا ابليس للمعصية.

(1) سورة الروم: 30.
(2) سورة التوبة: 28.

إن وقوف الإنسان بين يدي ربه في كل يوم خمس مرات منحنيًا للركوع سبع عشرة مرة، وواضعًا أعلى جزء من بدنه موضعًا وشرفًا على أدنى شيء وهو الأرض، يفترض بحسب تشريعه أن يكسب الإنسان تواضعًا وخضوعًا، وأن يجنبه الاستكبار والطغيان.

إن العقدة التي تورد الإنسان المهالك هي الاستكبار، والتعاظم، والتكبر فترى الطواغيت يتكبرون على قبول الحق، والفساق يأبون النصيحة ويرونها دون مستواهم، وهكذا.. والحل في ذلك هو مضاد التكبر وهو الصلاة.

وقد يقول إنسان إننا نرى الكثير من الناس يؤدون الصلاة ولكنهم مع ذلك ليسوا منزهين عن الكبر، ولم تنههم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، والجواب عن ذلك تفصيلًا قد ذكرناه في كتاب الصلاة مجمع الكمال[1].

(1) ذكر في الجواب عليه وجوه؛ **الأوّل**: إنّ الانتهاء عن الفحشاء والمنكر مراتب، لنفترض أنّها تعادل مائة درجة، فالإنسان حين يلاحظ معاني الصلاة ويفكِّر فيها ويستحضرها ويقوم بشرائطها كاملة، فهذا تنهاه صلاته مثلًا عن 70% من الفحشاء، بينما إنسان آخر لا يفعل ذلك لا تؤثر فيه هذه الصلاة التأثير الكامل وإنما تؤثر بمقدار 10%، فهذا الإنسان الذي يرتكب على سبيل المثال ستين ذنبًا أو سبعين ذنبًا لو لم يكن يصلّي لكان يرتكب مئات الذنوب، فبهذا المقدار الذي يُصَلّيه، صَلاتُه نَهَتْهُ عن 10% أو عن 20%، ولو فرضنا نفس هذا الشخص لم يكن يصلي وكان يأتي بالفواحش والمنكرات بنسبة 100% فهذه الصلاة بالنسبة له أثرت فيه بنسبة 10%. إذن طبيعة الصلاة أنَّها تنهى عن الفحشاء وتنهى عن المنكر، لكن ليس نهيا جبريا، وإنما بشكل اختياري طبيعي وتربوي وهذا ليس في الصلاة فقط، فنجد أن الله عز وجل يتعامل معنا بهذا المنظور أيضًا. =

وهذه الأجوبة سارية في سائر التشريعات وفلسفتها وحكمتها.

قولها عليها السلام: «والزكاة تزكية للنفس»، يتعلق الإنسان بالمال وقد وصف هذا التعلق في القرآن الكريم بالحب الكثير ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[1]، وجهة هذا الحب أن مال الإنسان هو مجهوده الذي بذله ووقته الذي صرفه في تحصيله، بل هو جزء من حياته، بالإضافة إلى أنه ضمان له وحافظ عن الحاجة، ولهذا فإن الإنسان عندما يخرج الزكاة كأنما يخرج من جيبه جزءًا من مجهوده، وقسمًا من حياته، هذا بحسب الظاهر. لكن الإنسان لو نظر بحسب الواقع لوجد أن هذا المال هو لله، وإنما هو رزق رزقه الله إياه وحوله عليه وخوله إياه وجعل أسبابه ميسرة في الطبيعة وأقدر الإنسان على اكتسابه، فهو من كل الجهات من الله

= **الوجه الثاني**: إنَّ النقص في التأثير ليس عائدا للصَّلاة، فهي مؤثرة كما أسلفنا وليس في فاعليتها نقص، وإنَّما المشكلة والنقص هو في المستقبل، وبتعبير العلماء في (القابل) حيث يقولون إنَّ المشكلة ليست في فاعلية الفاعل وإنَّما المشكلة هي في قابلية القابل، تماما مثلما أنَّ مطر السَّماء ينزل فتصبح الأرض مخضرة، إلا أنَّ بعض البقاع السَّبخة لا يَحْدُث فيها شَيْءٌ مهمَا نزل عليها من المطر العذب، فليست المشكلة في المطر وإنما في خصوص هذه الأرض وملوحتها.

الوجه الثَّالث: إن التأثير ليس فوريًّا وإنَّما هو تراكميٌّ تدريجيٌّ، ولهذا نقول ليُصَلِّ هذا الإنسان حتَّى لو كان لديه بعض المعاصي والذنوب، ولهذا إذا رأيت إنسانًا يصلي ويمارس بعض الفحشاء وبعض المنكر، لا تقل له إن صلاتك لا تنفعك ولا تفيدك والأفضل لك أن تتركها ما دُمْتَ بهذا النحو، هذا غير صحيح، لأن الصلاة تؤثر فيه بشكل تراكمي إلى أن ينتج أثرها.

(1) سورة الفجر: 20.

وبالله ولله، وإنما جعله في حوزة هذا العبد ليتصرف فيه بشكل عادل وامتحنه بإيجاب إعطائه لعباده المحتاجين لما فرض الزكاة والخمس وأشباهها من الحقوق المالية.

وهنا سيحصل التجاذب بين كون هذا الإنسان يعتقد بأنه هذا المال جزء من عمره وحياته فينبغي أن يحتفظ به وبين كون حقيقة هذا المال (عارية وأمانة) من قبل مالكها الحقيقي والمالك يأمره بدفعه إلى آخرين، فعندما ينفذ ذلك ينتصر على نوازع الأنا والذات ويتجه لمساعدة الغير، فتزكو نفسه وتعلو..

بل إن هذا المال حينما يعطى للغير يزكو وينمو وذلك لأن المعطي الحقيقي له والواهب يرى باذله مستحقًا للمزيد فيرزقه. وهذا هو النماء في الرزق.

«والصيام تثبيتًا للإخلاص»، فقد قالوا لعل الصوم هو العبادة الوحيدة التي لا يتيسر فيها التظاهر والرياء كما في غيره من العبادات. فالصلاة بطبيعتها تعلن عن نفسها وبالتالي عن إيمان صاحبها، وفيها مظاهر لا تكون في غيرها، فإذا أطال الشخص الركوع والسجود وقراءة السور لأجل أن يراه الآخرون فقد تحقق الرياء، بينما لا نجد هذا في الصوم إذ لا توجد فيه أعمال، فإنه (الإمساك عن المفطرات) أو الكف عنها، ولا يتحقق إعلان عن

هذا، فقد يستطيع شخص أن يكون صائما عدة أيام ولا يشعر به من حوله، لكنه لا يستطيع ذلك بالنسبة للصلاة إلا إذا تخفى فيها.

كما أن في الصوم يستشعر الصائم رقابة خالقه، فلا يفطر مع أنه لو فعل ذلك بالسر لما شعر به أحد فيتركز الإخلاص لربه في نفسه .

«والحج تشييدًا للدين»:

هو المنظر الذي تتجلى فيها قوة الإسلام والمسلمين ووحدتهم، أن المسلمين وبهذا العدد الكبير يجتمعون على صعيد واحد وفي حالة انسجام واحدة كما هو المفروض أن يصنع الحج، فهذا يُشيّد الدين. إن قدرة الإسلام على تحريك الملايين من البشر بنظام واحد وفي زمان واحد ونحو هدف واحد وهم يشتركون في عمل واحد قد لا نراها في موضع كما نراها أيام الحج.

«والعدل تنسيقا للقلوب»:

إنما تجتمع القلوب على العدالة والقانون، فإنك لا تستطيع أن ترضي الناس بالأموال حيث لا تكفي حاجات كل الناس بل ربما كانت هي منشأ التنازع بينهم كما هو المشهود. فالعلاج أنك إذا أردت تنسيقًا للقلوب فلتعمل بالعدل، العدل في العطاء، والعدل

في القضاء والحكم، ولأجل ذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]. وقدمه المعصومون على الجود والكرم لعمومية العدل وخصوصية الجود[2]. فعندما يكون الناس خاضعين للقانون ويكون العدل حاكمًا على الجميع تتسق القلوب في الاتجاه الصحيح، ويحصل رضا عام لدى الناس على وضعهم المعيشي.

«وطاعتنا نظامًا للملة وامامتنا امانًا من الفرقة».

لو أن المسلمين أقاموا هذا النظام وأتبعوا هذا الإمام الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى حديث الثقلين «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا» فـ (الفرقة) والاحتراب والتشرذم ضلال بلا اشكال، لماذا؟ لأن الثقلين ليسا هما القائدين للناس، وإنما القادة هم غير ذلك، فمتى ما صارت إمامة أهل البيت عليهم السلام التي هي الثقل الآخر للناس تكون أمانًا من الفرقة والتشرذم والضلال.

(1) سورة النحل: 90.

(2) نهج البلاغة: الحكمة 434: سئل عليه السلام أَيُهُما أَفضل: العدل، أَو الجود؟ فقال: الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، والْجُودُ يُخْرِجُهَا عَنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.

«والجهاد عزًا للإسلام والصبر معونة على استيجاب الأجر».

لا شك أن من يريد أن يستوجب الأجر ويصل إليه، لا بدَّ له من الصبر على ما يواجه، فهذا الأمر لا يحتاج إلى صرف أشياء كثيرة. هناك بعض الأمور لكي تحصل فيها على الثواب تحتاج إلى معاناة، فالحج يحتاج إلى سفر، الجهاد يحتاج إلى أن تبذل شيئًا كثيرًا من بدنك. أما الشيء الذي تريده ولا يحتاج إلى صرف وتريد عليه الأجر الكثير هو الصبر على ما تلاقي، الصبر على المصائب التي تأتي إليك، وهذا لا يحتاج إلا إلى موقف نفسي، يحتاج إلى صمود وتجلد واحتساب، أن تقول حسبنا الله ونعم الوكيل. تحتسب عند الله سبحانه وتعالى، وتصبر على ما أصابك. فبماذا بلغ أيوب ما بلغ؟ بلغ بما تشير إليه الآية المباركة ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]، وفي هذه الآية من أروع أساليب الاستعطاف والاسترحام.. فهو لا يقول اكشف عني ضرّي أو أزل كربي وإنما يشير إلى حاله، ويشير إلى فضل ربه ورحمته.. مسَّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين.

هذا النحو من التعريض هو من أفضل أنحاء الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

(1) سورة الأنبياء: آية 83.

هذه الكلمات هي مما جاء في خطاب الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وبينت فيها طرفا من مقاصد التشريعات الإسلامية وفلسفتها، وبالطبع لم تكن عليها السلام في درس فقهي حتى تتعرض لكل الجهات، وإنما هو ضمن المرور على مقدمات تمهد بها المطلب الأساس في الاحتجاج على مؤسسة الخلافة وخطوتها في حرمانها عليها السلام من ميراثها. ومع أنها كانت كذلك على سبيل المقدمات والاسترسال ومع ذلك جاءت بهذا الكلام الدقيق والمتين معنى والبليغ لفظًا وأسلوبًا.

مجتمع المدينة
بعد النبي في الخطبة الفدكية

مما جاء في خطبة مولاتنا سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام حينما وجّهت خطابها إلى الأنصار أنها قالت: «إيهًا بني قيلة، أَأُهضم تراث أبيَ؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الصرخة، وأنتم ذوو العدد والعدّة والأداة والقوّة، وعندكم السلاح والجُنّة توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب وتحملتم النصب والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بكم رحى الإسلام ودرّ حلب الأيام وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنّى حُرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان، ﴿ أَلَا

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[1] ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتم من الضيق والسعة، فمجججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم، فـ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2]».

صدقت سيدتنا ومولاتنا الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

سيتناول حديثنا في ظلال خطبة فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها تحليلًا للمواقف في المجتمع المدني المسلم، وذلك بُعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث بَيّنت خلال هذه خطبة أنّ هناك ثلاث فئات في هذا المجتمع نعرض لها بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

الفئة الأولى: فئة أهل البيت عليهم السلام

يتمثل في رأس هذه القائمة والعنوان أمير المؤمنين عليه السلام ومن تبعه من بني هاشم ومن كان من أنصاره سواء من الأنصار أو المهاجرين.

(1) سورة التوبة: 13.

(2) سورة إبراهيم: 8.

الفئة الثانية: فئة التيار القرشي

هذا التيار القرشي وهذا التجمع هو الذي انتهى به الأمر إلى أن يسيطر على الخلافة ضمن إطار جمعته الحالة القرشية والذي تمكّن من الاستمرار كوجود متصل في الحكم في الأمة بل حتى على مستوى الفتوى والقضاء وما شابه ذلك.

الفئة الثالثة: فئة الأنصار

الأنصار هم سلالة قبيلتي الأوس والخزرج والذين كانوا في الأصل قبائل يمنية مهاجرة من اليمن، استقرت منذ القدم في المدينة المنورة، فبعضهم يُرجع أصل وجود هاتين القبيلتين في المدينة المنورة إلى الزمن الذي انهار فيه سد مأرب في اليمن، فأدى حدوثه إلى حالة من القحط والجدب تسببّت في هجرات. وكما هو معروف فإن اليمن هو مخزن سكاني للعرب كقحطان والقبائل اليمنية الأخرى، حيث تجدهم منتشرين في كل مكان في المدينة وفي الكوفة بعد تمصيرها والتي أصبحوا فيها أكثرية تقريبًا، وفيما بعد هاجروا منها إلى لبنان وإلى الشام وإلى قم وبلاد الري وهذه القبائل اليمنية الموالية لأهل البيت نقلت التشيع.

هاجرت الأوس والخزرج إلى المدينة المنورة واستقرت هناك، فحدث في بداية مجيئهم مشاكل بينهم وبين اليهود، ولكن فيما

بعد صار الاستقرار لهم وكأنما السيادة والزعامة أصبحت لهم والمال والاقتصاد أصبح بأيدي اليهود.

ما حقيقة موقف قريش من دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت؟.

هذه الفئات الثلاث هي التي كانت حاضرة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بُعيد وفاته، وهناك ملاحظة لا بدَّ أن تستوقف الباحث في التاريخ والناظر في لسان الروايات سواء من نبينا المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو من لسان أهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

إننا نلحظ أن لسان الروايات ولحنها كان في شأن قريش غير إيجابي، بالرغم من أن الاتجاه القرشي كان يصر على نسبة أحاديث لرسول الله في شأن قريش تعظم من شأنهم، وهي على خلاف السياق الطبيعي[1]! فإن قريشا هي القبيلة الوحيدة التي

(1) زعموا أن النبي قال: قدِّموا قريشًا ولا تَقَدّموها، وتعلموا من قريش ولا تُعلموها، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله تعالى. ونقل كذلك: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم». ولا نعلم هل كان هذا بسبب معاداة قريش للنبي ودعوته من يومه الأول إلى أن فتحت مكة وهم كارهون بعدما جيشوا الجيوش عليه حتى ظهر أمر الله؟ فأعطاهم جائزة على ذلك؟ أو أن الصحيح هو ما قاله في شأنهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي بين أن قريشا (أجمعت) على منازعته كما جاء في نهج البلاغة 1/ 336 ـ ط دار الكتاب اللبناني. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ ومَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وأَكْفَئُوا إِنَائِي وأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي» وأستعديك يعني أستعينك عليهم. نعم ربما ورد من طريق الإمامية أيضًا أن الأئمة من قريش، لكن هذا ليس مدحًا بمقدار ما هو تحديد وتعريف، مثلما أن تقول إن النبي محمدًا هو من العرب. فلا يشكل ذلك فضيلة بالضرورة للعرب. أو قد يكون له وجه آخر وهو الإشارة إلى المنتخبين من هذه القبيلة مثل بني هاشم، فالمدح ليس لكل من تعنون بالقرشي وإنما لهذه الفئة الخاصة من هذه القبيلة.

حاربت دعوة النبي ﷺ عشرين سنة، ثلاث عشرة سنة حينما كان في مكة المكرمة فكانت الحرب بينهما قائمة بشتى أشكالها باستثناء المواجهة العسكرية وسبع سنوات تقريبًا بعد الهجرة إلى أن تم فتح مكة وكسرت شوكة قريش!.

عشرون سنة من العداء والمواجهة بين قريش وبين النبي حاولت فيها قريش قتل النبي والقضاء على دعوته ومكروا ما استطاعوا وتحالفوا مع سائر القبائل وتآمروا مع اليهود ودبروا ولكن كان مكر الله أسرع وتدبيره أقوى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

فهل كان النبي يدعو الناس إلى أن يتعلموا من قريش كيفية محاربة الأنبياء وقتال الرسل؟ وإلا ماذا يعني: تعلموا منها ولا تعلموها؟ قريش لم يكن عندها علم إلا في الأصنام والأوثان والربا الاقتصادي واستعباد الإنسان وإكراه الجواري على البغاء.. فهل هذه ما ينبغي أن يتعلم منها المسلمون؟ مع أن هذه الأحاديث التي زورت على النبي يفترض انه قالها أيام حياته يعني ما بينه وبين نهاية أسطورة قريش ومقاومتها إياه غير أقل من ثلاث سنوات! ما بين فتح مكة ووفاته صلوات الله عليه وآله.

(1) سورة الأنفال: 30.

إلا أن هذا الخط القرشي أعاد تشكيل نفسه بعد وفاة النبي وضِمن عملية معينة استطاع أن يسيطر على الأوضاع وأن يأخذ الخلافة وأن يصبح رجاله من جديد قادة الإسلام.

موقف النبي وأهل البيت عليهم السلام من الأنصار:

بعكس ما كان في أمر قريش، فإن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الأنصار حديث إيجابي يتضمن المدح والثناء عليهم، وذلك راجع إلى أنهم بالفعل كانوا كما صار اسمهم (الأنصار) والحديث عنهم لو ورد فإنه يكون على القاعدة! ويكفي ما جرى بعد حنين من موقف وقفه هؤلاء الأنصار، مما نقله ابن هشام في سيرته، قال:

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجدوا عليك (تأثروا) في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجِدةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدقتم: أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلًا فآسيناك. أوَجَدتم يا معشر الأنصار في انفسكم في لُعاعة (بقية يسيرة) من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار. اللَّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتفرقوا[1].

هذا الموقف وأمثاله من قبل الأنصار هي التي جعلت الزهراء بعد أن أثنت على مواقفهم السابقة في نصرة النبي، تعاتبهم بقوة مستغربة من موقفهم الجديد الخاذل الذي لا ينسجم مع تاريخهم المشرف ولا معرفتهم بموقع الزهراء وأهل البيت عليهم السلام.

بينما بنفس المقدار كان كلامها شديدا في حق التيار القرشي، الذي وصفته بأن تاريخه كان تاريخ المتربص بالدعوة والنبي الدوائر والناكص عند النزال والفار من القتال، والمخطط للمصالح الذاتية. في الوقت الذي كان فيه أهل البيت على خط المواجهة الأول كان الحزب القرشي في رفاهية من العيش وادعين هانئين آمنين!.

وتمر الأيام فإذا بهؤلاء الذين لم يضحوا بشيء أصبحوا يحوزون كل شيء، فصار قصارى ما يطمح إليه الأنصار معهم أن يكونوا وزراء بينما يكون أعيان الحزب القرشي هم الأمراء! وأما الخط المضحي والمجاهد من أهل بيت النبي ومن سار معهم، فقد أخرجوا من كل ذلك.

(1) الحميري، ابن هشام السيرة النبوية 4/ 87.

بل سيزداد الأمر سوءا فيما بعد سنة 40 هـ عندما يستلم الأمويون الخلافة لكي يصبح شتم كبير أهل البيت عليهم السلام وهو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام سنة قائمة، وسيصبح ذم الأنصار وهجاؤهم بواسطة أجهزة الاعلام الأموي سياسية، ما عبر عنه الأخطل الشاعر النصراني السكير، والحائز على جوائز البلاط الأموي في دمشق لكي يهجو الأنصار ويسبّهم، ببذاءة، فمما اشتهر عنه قوله:

لعن الإله من اليهود عصابةً
بالجزْع بين صليصل وصرارِ[1]
خلّوا المكارم لستم من أهلها
وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلى
واللُؤم تحت عمائم الأنصارِ

بل كان معاوية نفسه يهين الأنصار ما استطاع، لا سيما وأن الموقف العام للأنصار في المدينة كان سلبيًا تجاه الأمويين، وهذا ما كشفه حين زار المدينة وواجهه الأنصار بفتور فلم يستقبلوه بما كان يتوقع من الحفاوة، باستثناء النعمان بن بشير

(1) منطقتان في المدينة، ويلاحظ أنه أبقاهم في دائرة اليهود، ونفاهم من الدائرة الإسلامية مع أنه مسيحي منحرف، وهم الذين بجهدهم شاد الإسلام بناءه وكيانه!

ومعه بعض أقاربه، والنعمان التحق بالنهج الأموي فكان لزاما أن يخرج![1].

إيهًا بني قيلة: العتاب الشديد من الزهراء عليها السلام للأنصار

هذه الفئة التي كان لها الدور الأكبر في نصرة الإسلام، تخاطبها سيدة النساء عليها السلام تقول: «إيهًا بني قيلة[2]! أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذو والعدد والعدة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنة. توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت؛ قاتلتم العرب، وتحمّلتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت

(1) الطبرسي، أحمد بن علي الاحتجاج 2/ 15 في تتمة الخبر.. فلما نزل قال: ما فعلت الأنصار وما بالها لم تستقبلني؟ فقيل له: إنهم محتاجون ليس لهم دواب. فقال معاوية: فأين نواضحهم؟ (مستهزئًا بهم) فقال قيس بن سعد بن عبادة ـ وكان سيد الأنصار وابن سيدها ـ: أفنوها يوم بدر واحد وما بعدهما من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله، حين ضربوك وأباك على الإسلام حتى ظهر أمر الله وأنتم كارهون، فسكت معاوية!

(2) جدة الأوس والخزرج

نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين. فأنى حرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان؟».

كان موقف سيدة النساء فاطمة عليها السلام صريحًا واضحًا في تشخيص هذه الفئات، في نفس الوقت الذي حمّلت فيه المسؤولية الاتجاه القرشي وواجهتهم بالحجج والبراهين، واتهمتهم بأنهم يدبرون هذا الأمر عن عمد في ذلك، ومخالفين لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولبصائر القرآن، عرّجت على موقف الأنصار وأدانت هذا الموقف وبينت أنه لم يكن متوقعًا منهم هذا الأمر، ونعتقد أن مواقف الأنصار في الجملة قد تغيّرت فيما بعد وحاولوا بل حتى ذراريهم أن يغسلوا هذه اللطخة من الخذلان، وربما يكون جزء من ذلك راجعًا لتأثير خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

ولذلك يلاحظ أن موقف الأنصار كان إيجابيًا تجاه خلافة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسلبيًا جدًا تجاه معاوية حتى كان لا يجد من يناصره إلا مثل النعمان بن بشير وكان النعمان يُعيّر بذلك! مع أن النعمان نفسه وهو الذي أصبح في ركاب الأمويين كان بالقياس إلى القرشيين الذين ناصروا الأمويين متجنبًا للصدام مع أهل البيت ما استطاع، وينبئ عن هذا موقفه وهو والي معاوية

ويزيد من بعده تجاه مسلم بن عقيل بن أبي طالب الذي جاء رسولًا من الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة فإنه لم يصطدم معه بل أرسل له إنه إن لم يعرض مسلم للنعمان فلن يعرض النعمان لمسلم! وهكذا ما نقل من أنه كان مرافقًا لركب الأسارى من أهل البيت في طريقهم من الشام إلى كربلاء وأنه كان بهم رفيقًا وبالطبع هذا الكلام لا يزكيه ولا يعذره عند ربه كما نعتقد، ولكن أوردناه للاستشهاد على ما نحن فيه وقياسه مثلًا على موقف عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الذي كان منذ بداية أمره صداميا وأوكلت له مهمة اغتيال الحسين في مكة، ولما رجع ركب الأسارى للمدينة أظهر شماتته وفرحه بذلك[1]!.

(1) للتفصيل يمكن مراجعة كتابنا صفحات من السيرة الحسينية.

فدك: قضية الزهراء
التاريخ والدلالات

قال سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: «بلى كانت في أيدينا فَدَك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحكم الله. وما أصنع بفَدَك وغير فدك، والنفس مظانها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق».

هذه الكلمات المنقولة في نهج البلاغة مما جمعه الشريف الرضي رضوان الله تعالى عليه من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه، تكتسب أهمية استثنائية في كونها تجيب على عدة أسئلة تاريخية من شاهد عيان للحوادث، بالإضافة إلى عصمته.

إحدى هذه القضايا التي تجيب عنها هذه الكلمات، أن «**كانت**

في أيدينا»، يعني في يد أمير المؤمنين، وفاطمة. وهذه الجملة مهمة جدا، لما سيأتي من أن يد الشخص على شيء هي حجة شرعية له على الملك، وأن من ينازعه فيها يحتاج إلى دليل وبرهان..

وأيضًا سيثير هذا سؤالًا عن أن الإمام عليه السلام لماذا لم ينتزع فدكًا في أيام خلافته ويصيرها في ميراث بني فاطمة عليها السلام؟.

سنتناول باختصار ثلاث نقاط رئيسية:

1) فدك من الناحية الجغرافية وسرد الأحداث التاريخية المرتبطة بها .
2) فقه قضية فدك وقصة مطالبة الزهراء عليها السلام بحقها.
3) رمزية قضية فدك لدى أهل البيت عليهم السلام.

أولًا: فدك جغرافيا وتاريخيًا:

فدك: منطقة تبعد حوالي 140 كم من المدينة المنورة، وكانت مستوطنة من قبل اليهود قبل مجيء النبي محمد إلى المدينة، وكانت هذه المنطقة تتميز بالمياه الوفيرة والأرض الخصبة. وهي الآن تسمى محافظة الحائط على الخرائط الرسمية.

1) وفي نظرة تاريخية لكيفية السيطرة عليها، يقال: كان اليهود يتفاخرون سابقًا أن لهم كتابًا سماويًا ونبيًا مبعوثًا وهو

موسى عليه السلام، وأنهم أحباب الله المنصورون[1] من قِبله وأن النبي الذي سيبعثه الله في مكة سيؤيدهم، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأوا أنه ليس منهم تنكروا[2] له وبدأوا يتحزمون لمحاربته. وتحالفوا مع المشركين ضده، مع ذلك لم يعلن النبي الحرب عليهم، بل دعاهم للسلم وجعل بينه وبينهم وثيقة هي من أقدم النصوص التي تبين العلاقة بين المسلمين واليهود، فيها حوالي 50 مادة مهمة تحفظ لليهود كل حقوقهم الدينية والمدنية والاجتماعية، عرفت بوثيقة المدينة. ومع ذلك لم يفِ اليهود. وتحالفوا مع كفار قريش وناصروهم في غزوة الخندق حينما اجتمع الأحزاب ووعدوهم أنهم لو انتصروا سيجعلون حاصل تمر خيبر لقريش تلك السنة، تحريضًا وتطميعًا لهم.

وكانوا قبل ذلك قد حاولوا اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم برمي حجر ثقيل من الأعلى عليه صلى الله عليه وآله وسلم. ولم تكن المحاولة الوحيدة لهم..

حينها رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن اليهود لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق

(1) لتفصيل عقائدهم وتاريخهم يمكن الرجوع إلى كتابنا قصة الديانات والرسل.

(2) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 89].

ولا يحبون أن يتعايشوا مع المسلمين وهم أكثرية سكان المدينة بالإضافة إلى تخريبهم للأوضاع الاقتصادية من خلال أعمال الربا وما شابهها، وتآمرهم مع أعداء المسلمين وتخطيطهم لاغتيال النبي.. لم يرَ بُدًّا من مواجهتهم عسكريًّا. ونزل الوحي في نهاية السنة السادسة للهجرة أن يغدو إلى بني قريظة ليحاربهم. ويوجد حديث مشهور عن النبي: أن «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، كناية على العزم على المواجهة فورًا.

2) في السنة السابعة وقعت معركة خيبر مع اليهود، ونصر الله نبيه بالرغم من استعانة اليهود بقريش وثقيف، لكن الله نصر المسلمين بتخطيط نبي الله وبقيادة الإمام علي عليه السلام. هجوم المسلمين بهذه الطريقة على خيبر، والتي كانت سبع قلاع محصنة ـ يكفيك أن أبوابها كانت قطعة من الحجر ـ مع آلاف من مقاتلي اليهود وممن ناصروهم ، انهاروا أمام جيش المسلمين. وهذا الانهيار سبب هزيمة اليهود معنويًا في أنحاء المدينة ومناطقها وأصبح همهم النجاة فقط. فأرسلوا إلى النبي أنهم يستسلمون شريطة أن يَسْلموا على أنفسهم ويسلمون للنبي ما تحت أيديهم من الأرض والزرع.

فقبل رسول الله، فكانت فدك أرضًا من تلك المناطق التي لم

تفتح بحرب ولا قتال بل سلم أهلها طواعية. وحكم هذه في الفقه الإسلامي عند جميع المسلمين هي أنها تكون ملكًا خالصًا لرسول الله، لا يشاركه فيها أحد، باعتبار الآية ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[1]. أما في حال خيبر ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] فخمس هذه الغنيمة للرسول وأربعة أخماس للمقاتلين المسلمين.

3) في نهاية السنة السابعة نزلت الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[3] على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فوهب لفاطمة فدَكًا[4]. فبقت عندها ثلاث سنوات وعدة شهور إلى وفاة الرسول الأعظم نهاية شهر صفر السنة الحادية عشر. وفي هذه الفترة بعد أن استلمتها السيدة فاطمة عينت فيها عمالًا ـ تحت إدارة أمير

(1) سورة الحشر: 7.

(2) سورة الأنفال: 41.

(3) سورة الإسراء: 26.

(4) ذكر القندوزي الحنفي ذلك في ينابيع المودة لذوي القربى 1/ 138 فقال: قول الله تعالى ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ خصوصية لهم [خصهم الله العزيز الجبار بها واصطفاهم على الأمة]، فلما نزلت هذه الآية [على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام: هذه فدك وهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصة دون المسلمين وقد جعلتها لك لما أمرني الله به فخذيها لك ولولدك.. وقد ورد من طريق الإمامية عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فيما نقله الشيخ الصدوق في كتابه الأمالي 619 من مناظرة للإمام عليه السلام مع علماء عصره.

المؤمنين ـ، لهذا قال «تحت أيدينا فدك»، ولذلك يذكر بعض المحققين[1]، ان حال بيت علي وفاطمة بعد سنة 7 هجرية (أي بعد اعطاء النبي فاطمة فدك) تغير من الناحية المادية وذلك لما كان يعود عليهما من خراج فدك.

4) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ضمها الخليفة الأول لبيت مال المسلمين، والثاني أيضًا، أما الخليفة عثمان فرأى أن أقاربه أولى بها، فدفعها خالصة لمروان بن الحكم. في أيام أمير المؤمنين خرج منها مروان وضمها الإمام إلى بيت مال المسلمين مرة أخرى ولم يجعلها لنفسه او أبنائه[2].

(1) المحقق الكرباسي في دائرة المعارف الحسينية.

(2) من الأسئلة التي تقال: لماذا لم يسترجعها أمير المؤمنين زمان ولايته، حتى عد بعضهم ذلك مما يدل (!) على أنها لم تكن لفاطمة وولدها! وجواب ذلك على سبيل الاختصار؛ إنهم لو رجعوا إلى كلام أمير المؤمنين لوجدوا فيه الدلالة كافية فقوله (بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلت السماء)!! وكونها في أيديهم إما بالتسلط العدواني زمان النبي وهو منتف قطعًا أو هو بجهة شرعية وهو يدل على التملك بما عرف بين المسلمين بل بين العقلاء من كون يد الإنسان على شيء أمارة على ملكه، ومن ينازعه عليه أن يثبت حقه بحجة شرعية. هذا أولا.. وأما ثانيا فلأنها لو لم تكن لفاطمة نحلة وهدية لكانت ميراثًا باعتبار أنها ملك خالص لرسول الله، فهي الوارثة بعده. حيث لم يبق من أولاده (ذكورًا وإناثًا) غيرها. وأما لماذا لم يرجعها الإمام علي عليه السلام، لنفسه ولأبنائه فإنه لو فعل وهو الزاهد وأولاده مثله فلأنه سيشبه حينها بما صنعه الخليفة الثالث الذي نقم عليه من نقم لإيثاره أقاربه من بيت مال المسلمين.. فإذا فعل علي عليه السلام ذلك.. فما فرقه عن غيره؟ لا سيما وأن هناك من اعترض عليه في قضية صلاة التراويح فهل يحتاج الإمام إلى قضية جديدة يثيرها عليه مخالفوه؟ لو فعل ذلك لما رأى الناس منذ ذلك اليوم وإلى يومنا عليًّا عليه السلام صوتا للعدالة الإنسانية! والحاكم الأكثر عدالة في تاريخ البشر بعد النبي =

عندما سيطر معاوية على الحكم، قسم فدكا على ابنه يزيد ومروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان. ولعل قول دعبل الخزاعي:

أرى فيئهم في غيرهم متقسما
وأيديهم من فيئهم صفرات

ناظر إلى هذا وأمثاله.

بعد معاوية تداولها المروانيون، إلى زمان عمر بن عبد العزيز الذي ردها إلى أهل البيت. بعده يزيد المرواني أخذها وظلوا يتداولونها إلى أيام العباسيين. وفي زمان العباسيين ردّها المأمون[1] إلى أهل البيت. بعدها تداولوها إلى أيام المتوكل العباسي الذي أعطاها أحد ولاته... وبذلك انتهت قصة فدك من التاريخ، حيث أصبحت أملاكًا شخصية.

= المصطفى، وصاحب مقالة (لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق) وما دامت القضية مادية وتخصه وأبناءه من ولد فاطمة فالزهد فيها أنسب من الحرص عليها! وهذا ما أشارت إليه فقرة (وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس في مظانها غدا جدث تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها، لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق...)

(1) وحينها قال دعبل الخزاعي مؤرخًا الحادثة:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا بـرد مأمون هاشم فدكا

ثانيًا: فقه قضية فدك، وكيفية تعامل الخلافة معها

أول ملاحظة في فقه فدك، أنه بعد أن أخذ الخليفة الأول فدكًا، ذهبت فاطمة عليها السلام تطالب بحقها، قالت إنها نحلة من والدي، فطلب منها الإتيان بالشهود، وهذا أول الأخطاء من الناحية القانونية، فإن الإسلام لا يطالب صاحب اليد[1] والذي هو مالك الشيء بالإتيان بالشهود، بل من يدعي خلاف ذلك يطالَب بالشهود، والا لما بقي نظام اجتماعي للملكية الشخصية! حيث سيطالب ساكن البيت بالإتيان بشهود، وصاحب السيارة بشهود... ولعل السيدة الزهراء أرادت أن تبين للأمة أن الخلافة لا تفقه مبادئ الأحكام وأسس القضاء.

تَنَزّلًا أتت فاطمة بالشهود، وكما قال الشاعر:

فأقامت بذا شهودا فقالوا بعلها شاهد لها وابناها

(1) الطبرسي، الاحتجاج 1/ 132: «جاء علي عليه السلام إلى أبي بكر وهو في المسجد وحوله المهاجرون والأنصار فقال: يا أبا بكر لم منعت فاطمة ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فقال أبو بكر: هذا فيء للمسلمين، فإن أقامت شهودا أن رسول الله جعله لها وإلا فلا حق لها فيه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: يا أبا بكر تحكم فينا بخلاف حكم الله في المسلمين. قال: لا. قال: فإن كان في يد المسلمين شيء يملكونه، ثم ادعيت أنا فيه من تسأل البينة؟ قال: إياك أسأل البينة، قال: فما بال فاطمة سألتها البينة على ما في يديها؟ وقد ملكته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، ولم تسأل المسلمين بينة على ما ادعوها شهودا، كما سألتني على ما ادعيت عليهم؟ فسكت أبو بكر. فقال عمر: يا علي دعنا من كلامك. فإنا لا نقوى على حجتك، فإن أتيت بشهود عدول، وإلا فهو فيء للمسلمين لا حق لك ولا لفاطمة فيه».

جاءت بعلي وبأم أيمن وبالحسنين، فردت شهادتهم. هذا مع أن «علي مع الحق والحق مع علي». ومع شهادة النبي لأم أيمن أنها من أهل الجنة[1] والحسنان سيدا شباب أهل الجنة وقد قبل رسول الله شهادتهما (رغم صغر سنهما) كما دون في بعض الوثائق والكتابات. لم يقبل ذلك ونزعت فدك منها بذريعة أنها ليست نحلة، بالرغم من يد الزهراء عليها، مع أن عاملها فيها، ومع الشهود المذكورين.

جاءتهم عليها السلام أيضًا من منطلق الوراثة، حيث الزهراء عليها السلام الوارث الوحيد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أولاده (ذكورًا وإناثًا) فلما كانت فدك قد فتحت من غير قتال، ودخلت في ملك النبي الخاص، فبمنطق الوراثة تكون ملكًا لفاطمة.

هنا توجد مغالطة من قبل البعض: حيث يدعون انه لدينا ـ المذهب الاثنا عشري ـ النساء لا يرثن من الأرض، والصحيح أن الزوجة لا ترث من الأرض وإنما ترث مما على الأرض. البنت ترث من كل شيء.

(1) الطبرسي، الاحتجاج 1/ 131: «قالت فاطمة لأبي بكر: لِمَ تمنعني ميراثي من أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخرجت وكيلي من فدك وقد جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله تعالى؟ فقال: هاتي على ذلك بشهود. فجاءت بأم أيمن، فقالت له أم أيمن: لا أشهد يا أبا بكر حتى احتج عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنشدك بالله ألست تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أم أيمن امرأة من أهل الجنة فقال: بلى. قالت فأشهد: أن الله عز وجل أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ».

فهذا الذي يقال هو حجة للإمامية لإخراج زوجات النبي من ميراث الأرض، ولا يكون حجة عليهم.

هنا استشهد الخليفة الأول بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، وما تركناه فهو صدقة». وقد ذكر العلماء من السنة والشيعة على أن ناقل هذا النص هو الخليفة الأول، لم ينقله أحد غيره. هنا يستغرب الكثير ومنهم من علماء مدرسة الخلفاء، أن الأشخاص الذين ينبغي على النبي أن يبلغهم هذا الحديث هم العباس عمه وعلي وفاطمة، فلِمَ سمعه الخليفة الأول دونهم؟.

وفي الحديث ملاحظات سنَدية ودلالية، وقراءات مختلفة تغير كلُّ قراءةٍ المعنى بنحو يختلف تماما عن القراءة الثانية. وقد يكون لنا بحث خاص يرتبط به لتبيين ذلك.

في مقابل ذلك واجهت الزهراء عليها السلام كلام الخليفة بآيات القرآن المحكمات وسيرة الأنبياء المذكورة وهي قائمة على الوراثة، بنحو العموم وأنه يشملهم ما يشمل غيرهم، وأيضًا استشهدت بخصوص وراثة الأنبياء بعضهم لبعض، وأن النبي لا يغير في ذلك ولا يخالف آيات القرآن الكريم.. لكن كل ذلك الكلام والاستدلال لم يؤثر في تغيير موقف الخلافة.

فهي في البداية وجهت الخطاب لجميع المسلمين داعية إلى الاحتكام للقرآن ومنكرة عليهم الإعراض عنه.

«فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم؛ أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾»[1].

ثم خاطبت الخليفة خصوصا بآيات الميراث «أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريّا! أفعَلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (*) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[2]، وقال: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[4]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5]».

«وزعمتم أن لا حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا؟! أفخصّكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنّ أهل ملتين

(1) الخوئيني، إسماعيل الأنصاري: الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء عليها السلام 13/ 198.
(2) سورة مريم: 5 ـ 6.
(3) سورة الأنفال: 75.
(4) سورة النساء: 11.
(5) سورة البقرة: 180.

لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك؛ فنعم الحكم الله، والزعيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والموعد القيامة» فهي عليها السلام قد أوردت آيات الميراث التي تثبت بعمومها أو اطلاقها أن حكم الميراث شامل للأنبياء ولغيرهم، في مثل يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فهذا الخطاب كما يشمل عامة الناس يشمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] فهو يشمل النبي وغيره، وقد يقال بأن الحديث الذي نقله الخليفة مخصص لآيات القرآن فيمكن أن يأتي حكم عام في القرآن وتأتي السنة لكي تخصصه، فليكن هذا الحديث مخصصًا لآيات القرآن في موضوع الأنبياء بأن يكون كل أحد يرث من وارثه إلا الأنبياء فإنهم لا يرثون ولا يورثون.. فردت الزهراء عليها السلام على هذا الاحتمال بأن أوردت آيات القرآن الخاصة بميراث الأنبياء أنفسهم خاصة مما ينفي هذا التوجيه بالكامل فاستشهدت بآية ميراث سليمان من داود وميراث يحيى من زكريا! فهذه الآيات تكذب ما قيل من أن الأنبياء هذا شأنهم أن لا يرث بعضهم بعضًا! ولم يقل

(1) سورة الأنفال: 75.

الحديث المنسوب للنبي محمد أنا هكذا وإنما قال بحسب ذلك الحديث نحن معاشر الأنبياء وهذا ما تكذبه آيات القرآن.

وبالرغم من أن بعض المدافعين عن (خطأ) الخلفاء حاولوا تفسير هذه الآيات بأن المقصود منها هو وراثة العلم والنبوة دون المال والمتاع إلا أنه دفاع هزيل فهو إخراج اللفظ عن معناه الحقيقي من دون مبرر ولو فتح الباب لهذا لضاعت الأحاديث ومعانيها بل القرآن وأحكامه إذ لا يحمل اللفظ على غير معناه الحقيقي إلا لعدم إمكان ذلك لسبب من الأسباب وليس منها تنزيه الخليفة!! على أن هذا الحمل في نفسه غير ممكن فمتى كانت النبوة والعلم بالوراثة؟ لو كانت كذلك لورث العلم والنبوة ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه، وابن نوح الذي هو (عمل غير صالح)، وهكذا! إن النبوة اختيار إلهي خاص لا يحصل لشخص لأن أباه فلان فلم يكن والد سيد الأنبياء نبيا، ولا العلم يحصل لشخص لأن والده كان عالما! فلا معنى لأن يرث يحيى النبوة او العلم من أبيه زكريا أو سليمان من داود!

بل إنها عليها السلام أشارت بشكل غير مباشر إلى التشكيك في صدور هذا الحديث؛ فإنها أكدت أن النبي وعليا عليهما السلام أعلم منكم بخصوص القرآن ولا مجال للمقارنة بينكم وبينهم، وهم لم

يعملوا بما يدعى من تخصيص القرآن بالحديث! بل ترقت فوق ذلك بالقول إلى أن هذا الحديث المدعى يخالف القرآن ويصادم أحكامه فمن يزعم صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول بوعي أو غير وعي إن النبي يخالف أحكام القرآن ويرغب عن آياته! وتعجبت باستغراب من دعوى ذلك فقالت: «سبحان الله! ما كان أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كتاب الله صادفًا ولا لأحكامه مخالفًا! بل كان يتّبع أثره، ويقفو سوره. أفتجمعون إلى الغدر اعتلالًا عليه بالزور؟ وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته[1]».

وحتى تغلق عليها السلام الباب تمامًا على الاتجاه المخالف في الاستدلال أشارت إلى أنه لا يوجد بعدما تحقق المقتضي للإرث أي مانع منه إلا أن تزعموا أن ابنته على غير ملته والعياذ بالله فإن الكافر لا يرث من مسلم «أم هل تقولون: أن أهل ملتين لا يتوارثان أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟».

ثالثًا وأخيرًا: فدك.. رمز الحق المغصوب:

إن خلافةً تبدأ في الأيام الأولى من عهدها بظلم ابنة الزعيم الذي أتى بهذا الدين، تُرى ما ستصنع بغيرها؟.

(1) المصدر السابق 201.

هل يمكن لهذه الخلافة ان تؤمن حقوق الناس العاديين والضعفاء الذين لا يمتلكون هذه المكانة والرفعة الاعتبارية؟.

الخلافة إما أن تعرف الأحكام الشرعية أو لا. فان كانت تعرفها وتخالفها فتلك مصيبة. وان كانت جاهلة بها أصلا، فكيف لها أن تُسيّر أمّةً ورسالة كما سيرها رسول الله، وباسم رسول الله؟.

لذلك أصبحت فدك شعارًا لحق مضيع، كما نقل أن الإمام الكاظم قال للمهدي «ما بال مظلمتنا لا ترد»[1]، يعني فدكًا.. لو صحت هذه الرواية، لعل الإمام يريد أن يشير بفدك إلى الخلافة المغتصبة والإمامة المختطفة من أهل البيت عليهم السلام.

دافعت الزهراء عليها السلام عن هذا الحق ـ حق شرعية الإمامة ـ وأمست أول شهيدة في هذه القضية المقدسة. ضحت بجنينها المحسن، وبنفسها، لاحقة لأبيها، مظلومة مهضومة مكروبة ـ إلى

(1) الكليني، الكافي (دار الحديث) 2/ 725.. لَمَّا ورَدَ أَبُو الْحَسَنِ مُوسى عليه السلام عَلَى الْمَهْدِيِّ رَآهُ يَرُدُّ الْمَظَالِمَ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا بَالُ مَظْلِمَتِنَا لَاتُرَدُّ؟» فَقَالَ لَهُ: ومَا ذَاكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ـ تَبَارَكَ وتَعَالى ـ لَمَّا فَتَحَ عَلى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله فَدَكَ ومَا والَاهَا، لَمْ يُوجَفْ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ ولَا رِكَابٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله: «وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ» فَلَمْ يَدْرِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَنْ هُمْ، فَرَاجَعَ فِي ذلِكَ جَبْرَئِيلَ عليه السلام، ورَاجَعَ جَبْرَئِيلُ رَبَّهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنِ ادْفَعْ فَدَكَ إِلى فَاطِمَةَ عليها السلام، فَدَعَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَقَالَ لَهَا: يَا فَاطِمَةُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَدْفَعَ إِلَيْكِ فَدَكَ، فَقَالَتْ: قَدْ قَبِلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ ومِنْكَ، فَلَمْ يَزَلْ وُكَلَاؤُهَا فِيهَا حَيَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، فَلَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ، أَخْرَجَ عَنْهَا وُكَلَاءَهَا..

حد أن يقول أمير المؤمنين في الزيارة «وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها، فاحفها السؤال، واستخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً..».

نص خطبتي فاطمة الزهراء

1) خطبتها في المسجد (المشهورة بالخطبة الفدكية)

روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام[1]: «إنه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكا وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لُمّة[2] من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم فنيطت دونها ملاءة[3] فجلست ثم أنّتْ أنّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فارتج المجلس، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها، فقالت عليها السلام: الحمد لله

(1) الطبرسي، الاحتجاج 1/ 141؛ وقد اخترنا نص الخطبة الذي نقله في الاحتجاج لأنه فيما نعتقد أسلم النصوص وأكثرها استقامة. وسنستفيد مما في معاني الكلمات مما كتبه في الحاشية العلامة السيد محمد باقر الخرسان.

(2) لمة: جماعة، والحفدة: الأعوان، وهنا ليس معناها الأحفاد كما قد يتوهم البعض.

(3) عُلِّق إزار أو قطعة قماش.

على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كونها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتا لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهارًا لقدرته، تعبدا لبريته وإعزازًا لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده من نقمته، وحياشة[1] لهم إلى جنته، وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله، وسماه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة علما من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بموقع الأمور ابتعثه الله إتمامًا لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذًا

(1) سوقا لهم.

لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقًا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها[1]، وجلى عن الأبصار غممها[2]، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم. ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد ﷺ من تعب هذه الدار في راحة، قد حف بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيّه، وأمينه، وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغائه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، منجلية ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤد إلى النجاة

(1) مبهماتها.

(2) الملتبس من الأمور.

استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان: تطهيرًا لكم من الشرك، والصلاة: تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام: تثبيتًا للإخلاص، والحج: تشييدا للدين، والعدل: تنسيقًا للقلوب، وطاعتنا: نظامًا للملة، وإمامتنا: أمانًا للفرقة والجهاد: عزا للإسلام، والصبر، معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف:مصلحة للعامة، وبر الوالدين: وقاية من السخط، وصلة الأرحام: منساة في العمر منماة للعدد، والقصاص: حقنا للدماء، والوفاء بالنذر: تعريضًا للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين: تغييرًا للبخس، والنهي عن شرب الخمر: تنزيهًا عن الرجس واجتناب القذف: حجابًا عن اللعنة، وترك السرقة: إيجابًا بالعفة، وحرم الله الشرك إخلاصًا له بالربوبية، فـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1]، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾[2]».

(1) سورة آل عمران: 102.

(2) سورة فاطر: 28.

ثم قالت: «أيها الناس اعلموا إني فاطمة وأبي محمد ﷺ أقول عودا وبدوا، ولا أقول ما أقول غلطا، ولا أفعل ما أفعل شططا[1] ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. فإن تعزوه[3] وتعرفوه: تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المَعْزِيُّ إليه ﷺ، فبلغ الرسالة، صادعًا[4] بالنذارة مائلًا عن مدرجة[5] المشركين ضاربًا ثبجهم[6] آخذًا بأكظامهم[7] داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسّر الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه[8] وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين[9] وطاح وشيظ النفاق[10] وانحلت عقد

(1) باطلا.
(2) سورة التوبة: 128.
(3) تنسبوه.
(4) مظهرا.
(5) مسلك.
(6) وسطهم.
(7) مخرج أنفاسهم.
(8) انشق الليل عن الصبح.
(9) أصواتهم كشقشقة الجمل.
(10) الأراذل.

الكفر والشقاق، وفُهتُم[1] بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص[2] وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع[3] وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام[4] تشربون الطَّرَق[5] وتقتاتون القد[6] أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد أن مني ببهم[7] الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين[8] قذف أخاه في لهواتها[9] فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه[10] ويخمد لهبها بسيفه، مكدودًا في ذات الله، مجتهدًا في أمر الله، قريبًا من رسول الله، سيدا في أولياء الله، مشمرًا ناصحًا، مجدًا، كادحًا، وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون[11]

(1) تفوهتم بكلمة التوحيد.
(2) يقصد بهم أهل البيت وأصحابه المخلصون.
(3) مذقة: شربة قليلة، ونهزة: فرصة ينتهزها الطامع.
(4) قبسة العجلان: كل متعجل يأخذ منكم ويسلبكم، وموطئ الأقدام: تداسون بالأقدام.
(5) الطرق: المياه الوسخة المطروقة بأبوال الإبل.
(6) الجلد غير المدبوغ.
(7) شجعان الرجال، وكذلك ذؤبان العرب.
(8) فغر: فتح فمه
(9) لهوات: جمع لهاة وهي لحمة في أقصى الفم
(10) الأخمص: الأقدام
(11) ساكنون ناعمون.

آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسكة النفاق[1] وسمل[2] جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل[3] الأقلين وهدر فنيق[4] المبطلين فخطر في عرصاتكم واطلع الشيطان رأسه من مغرزه[5] هاتفًا بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافًا، وأحمشكم[6] فألفاكم غضابًا فوسمتم غير إبلكم ووردتم غير مشربكم هذا والعهد قريب والكلم[7] رحيب، والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتدارًا[8] زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[9]، فهيهات منكم، وكيف بكم، وأني تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة

(1) عداوته.
(2) أصبح خلِقا قديما.
(3) ظهر من لا قيمة لهم.
(4) الفنيق هو الفحل من الابل، وهدر ارتفع صوته.
(5) تشبيه بالقنفذ الذي يخرج رأسه بعد زوال الخوف.
(6) استفزكم.
(7) الجرح.
(8) استباقا.
(9) سورة التوبة: 49.

وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها[1] ويسلس قيادها[2] ثم أخذتم تورون وقدتها[3] وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسوا في ارتغاء[4] وتمشون لأهله وولده في الخُمرة والضراء[5] ونصبر منكم على مثل حز المُدى[6] ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون: أن لا إرث لنا، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟! أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية: أني ابنته».

«أيها المسلمون أغلب على إرثيه؟ يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا إرث أبي؟ لقد جئت شيئًا فريًّا! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ

(1) نفرت الدابة جزعت وتباعدت.
(2) يسهل.
(3) تشعلون لهبها.
(4) وحسوا في ارتغاء: مثل يضرب لمن يظهر شيئًا ويريد غيره.
(5) الخمر بالفتح: ما واراك من شجر وغيره، والضراء بالفتح: الشجر الملتف بالوادي.
(6) قطع السكاكين.

سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ ﴾ وقال: فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا (*) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ ﴾ وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ ﴾ وقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ وزعمتم: أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة[1] تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، و﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾، ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾».

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: «يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي والسِّنَة[2] عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول «المرء يحفظ في

(1) كأنها ناقة مجهزة فيها الخطام وعليها الرحل، كناية عن الظلامة التي حصلت.

(2) الغميزة؛ ضعف النصرة، والسنة: أول درجات النوم.

ولده»؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة[1] ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فخطب جليل: استوسع وهنه واستنهر[2] فتقه وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت[3] الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة[4] عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه، في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافًا، وصراخًا، وتلاوة، وألحانًا، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾[5]».

«أيها بني قيلة[6] أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة،

(1) إهالة: بكسر الهمزة الدسم. وسرعان ذا إهالة مثل يضرب لمن يخبر بكينونة الشيء قبل وقته..
(2) اتسع.
(3) قل خيرها.
(4) داهية.
(5) سورة آل عمران: 144.
(6) بنو قيلة هم الأوس والخزرج.

وأنتم ذوو العدد والعدة، والأداة والقوة وعندكم السلاح والجُنّة توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودر حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدين فأنّى حِرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟ بؤسا لقوم ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1] ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض[2] وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوغتم[3] فـ﴿إِن تَكۡفُرُواْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ

(1) سورة التوبة: 13.

(2) تمايلتم إلى اللين والسعة.

(3) تقيأتم ما شربتم.

﴿ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]. ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة وبثة الصدر، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دَبِرة[2] الظهر نقبة الخف باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3]. وأنا ابنة نذير ﴿لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[4]. فاعملوا ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ (*) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[5]».

فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان وقال: يا بنت رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفًا كريمًا، رؤوفًا رحيمًا، وعلى الكافرين عذابًا أليمًا، وعقابًا عظيمًا، إن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلاء آثر على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد فأنتم عترة رسول الله الطيبون، الخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة

(1) سورة إبراهيم: 8 .
(2) شبهت وضعهم بناقة فيها مرض جلدي في ظهرها وخفها قد انثقب.
(3) سورة الشعراء: 227.
(4) سورة سبأ: 46.
(5) سورة هود: 121 ـ 122.

في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وأني أشهد الله وكفى به شهيدا، أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهبًا ولا فضة ولا دارًا ولا عقارًا وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم انفرد به وحدي، ولم استبد بما كان الرأي عندي وهذه حالي ومالي، هي لك وبين يديك، لا تزوى عنك مالك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك ﷺ؟».

فقالت عليها السلام: **سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفًا ولا لأحكامه مخالفًا! بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالًا عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته هذا كتاب الله حكما عدلًا، وناطقًا فصلًا يقول:** ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ **ويقول:** ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ **وبين عز وجل فيما وزع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظ الذكران والإناث، ما أزاح به علة**

المبطلين، وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

فقال أبو بكر: «صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلدوني ما تقلدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر ولا مستبد، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود..».

فالتفتت فاطمة عليها السلام إلى الناس وقالت:

معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشر ما منه اغتصبتم لتجدن والله محمله ثقيلًا، وغبه وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء وبان وراءه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2]».

(1) سورة يوسف: 18.

(2) سورة غافر: 78.

ثم عطفت على قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب
وكل أهل له قربى ومنزلة
عند الإله على الأدنين مقترب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم
لما مضيت وحالت دونك الترب
تجهمتنا رجال واستخف بنا
لما فقدت وكل الأرض مغتصب
وكنت بدرًا ونورًا يستضاء به
عليك ينزل من ذي العزة الكتب
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا
فقد فقدت وكل الخير محتجب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما مضيت وحالت دونك الكُثُب

ثم انكفأت عليها السلام، وأمير المؤمنين عليه السلام يتوقع رجوعها إليه، ويتطلع طلوعها عليه، فلما استقرت بها الدار، قالت: لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا بن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت

حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل[1] فخانك ريش الأعزل[2] هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابنيّ! لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألد في كلامي حتى حبستني قيلة نصرها والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدك[3] يوم أضعت حدك! افترست الذئاب، وافترشت التراب، ما كففت قائلًا، ولا أغنيت طائلًا[4] ولا خيار لي، ليتني مت قبل هنيئتي، ودون ذلتي عذيري الله منه عاديًا ومنك حاميًا، ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب! مات العمد، ووهن العضد شكواي إلى أبي! وعدواي إلى ربي! اللَّهم إنك أشد منهم قوة وحولا، وأشد بأسًا وتنكيلًا».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا ويل لك بل الويل لشانئك[5] ثم نهنهي عن وجدك[6] يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة، فما ونيتُ عن

(1) قوادم الطير: مقادم ريشه وهي عشرة والأجدل: الصقر.
(2) الأعزل: ما لا يقدر على الطيران من الطيور.
(3) خضعت.
(4) أي ما فعلت شيئًا نافعًا.
(5) مبغضك.
(6) خففي غضبك وحزنك.

ديني، ولا أخطأت مقدوري[1] فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أفضل مما قطع عنك، فاحتسبي الله.فقالت: حسبي الله وأمسكت».

2) خطابها لنساء المهاجرين والأنصار

قال سويد بن غفلة: لما مرضت فاطمة عليها السلام، المرضة التي توفيت فيها دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعُدْنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا بنت رسول الله؟ فحمدت الله، وصلت على أبيها، ثم قالت:

«أصبحت والله: عائفة لدنياكن، قالية[2] لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم[3] وسئمتهم بعد أن سبرتهم[4] فقبحًا لفلول الحد، واللعب بعد الجد، وقرع الصفات وصدع القناة، وختل الآراء وزلل الأهواء، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[5] لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم

(1) ما تركت ما دخل تحت قدرتي أي لست قادرًا على الانتصاف لك لما أوصاني به الرسول.
(2) مبغضة.
(3) لفظتهم: رميت بهم وطرحتهم بعد أن عجمتهم: أي بعد أن اختبرتهم وامتحنتهم.
(4) مللتهم بعد أن امتحنتهم.
(5) سورة المائدة: 80.

اوقتها[1] وشنت عليهم غاراتها فجدعًا، وعقرًا وبعدًا، للقوم الظالمين.

ويحهم أنّى زعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين[2] بأمور الدنيا والدين؟! ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]! وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟ نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله وتاللَّه لو مالوا عن المحجة اللايحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردهم إليها، وحملهم عليها ولسار بهم سيرًا سجحًا لا يكلم خشاشه ولا يكل سائره ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلًا نميرًا، صافيًا، رويًا، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطانًا، ونصح لهم سرًّا وإعلانًا، ولم يكن يتحلّى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ

(1) ثقلها.
(2) الفطن الحاذق.
(3) سورة الزمر: 15.

يَكْسِبُونَ ﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[2] **ألا هلم فاسمع؟! وما عشت أراك الدهر عجبا! وإن تعجب فعجب قولهم!.. ليت شعري إلى أي أسناد استندوا؟ وإلى أي عماد اعتمدوا؟! وبأية عروة تمسكوا؟! وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا؟ لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلا، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم والعجز بالكاهل[3] فرغما لمعاطس[4] قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.** ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[5]. **ويحهم** ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[6] **أما لعمري لقد لقحت، فنَظِرةٌ ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملاء القعب دمًا عبيطًا وزعافًا مبيدًا، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب[7] ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفسًا، واطمأنوا للفتنة جاشًا، وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم، وهرج شامل،**

(1) سورة الأعراف: 96.

(2) سورة الزمر: 51.

(3) يعني المقاييس مقلوبة فما كان حقه التأخير وأن يكون ذنبًا صار في المقدمة وما كان ينبغي أن يكون في العجز والنهاية أصبح في الكاهل والشرف.

(4) أنوف.

(5) سورة البقرة: 12.

(6) سورة يونس: 35.

(7) عاقبة.

واستبداد من الظالمين: يدع فيئكم زهيدًا، وجمعكم حصيدًا، فيا حسرةً لكم! وأنّى بكم وقد عُمّيت عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1]؟».

(1) سورة هود: 28.

مصحف فاطمة الزهراء

ورد في الخبر الصحيح عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «إن فاطمة عليها السلام مكثت بعد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة وسبعين يومًا، وقد اشتد حزنها على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان جبرائيل يأتي إليها يسليها ويعزيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويذكر لها ما يحدث، فكانت فاطمة تأخذ منه وعلي يكتب، وهذا هو مصحف فاطمة عليها السلام».

هذه الصفحات تتناول موضوع مصحف فاطمة عليها السلام نظرًا لأنه من جهة يحاط بشيء من عدم المعرفة؛ فيحتاج إلى توضيح حقيقته لمن يريد استيضاح الحقيقة، ومن جهة اخرى لأن بعض مخالفي المذهب يتصيدون في هذه الجهة ـ مع علمهم أو مع جهلهم ـ بقولهم إنه يوجد للشيعة مصحف آخر، فلذلك هم لا يعتمدون على القرآن الكريم كسائر المسلمين.

هل مصحف فاطمة قرآن آخر يعتمد عليه الشيعة؟.

من **الأخطاء الشائعة**: أن معنى كلمة مصحف هو القرآن

الكريم، والحال أن هذا غير صحيح في اللغة العربية. فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة ومعاني الكلمات نجد فيها أن معنى المصحف هو عبارة عن أي كتاب بين جلادتين، أي كتاب في بدايته ونهايته تجليد سواء كان ذلك الكتاب يختص بالفقه أو التفسير أو السيرة أو العقائد أو أي شيء آخر فذلك يعتبر مصحفًا.

فلو افترضنا أن لدينا قرآنا من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ولكنه غير مجلد فهذا بحسب الاستعمال الحقيقي للكلمة لا يسمى مصحفًا في اللغة العربية؛ لأنه لا يشتمل على دفتين، أما في حال كانت سورة واحدة فقط ووضعت بين جلادتين فيسمى مصحفًا، تاريخ الطبري مثلًا يعتبر مصحفًا إذا كان مجلدا وكذلك الرسالة العملية تعتبر مصحفًا، وهذا ما ينطبق على مصحف فاطمة فهو عبارة عن علوم ضُمت بين جلدتين ولا يعني أنه قرآن فاطمة.

فمن يقول إن مصحف فاطمة هو قرآن خاص وأن شيعتها يعتمدون عليه، فهذا ليس لديه علم باللغة العربية، إلا إذا كان متقصدًا فهذا شيء آخر.

منشأ وجود مصحف فاطمة عليها السلام

من خلال الرواية الصحيحة الواردة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتي يرويها أبو عبيدة الحذاء عن الإمام الصادق عليه السلام، والتي

تؤكد على أن استشهاد فاطمة الزهراء عليها السلام كانت بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمسة وسبعين يومًا، حيث أصابها حزن وغم كبير، وعبرت هي عليها السلام عن ذلك بهذه الأبيات:

صبت علَيّ مصائب لو أنها صبت على الايام صرن لياليا

وهذا يرد ما زعمه بعضهم من حرمة النياحة على الميت، بل نفس فعلها وهي عند الإمامية معصومة وعند باقي المسلمين صحابية وفعلها يكشف عن تشريع ثابت حتى ذكر في مصادر مدرسة الخلفاء كدليل على جواز أن يرثي القريب من يفقده، واستدلوا هناك بأن فاطمة عليها السلام كانت تأتي عند قبر أبيها وتقول هذا الكلام ولم يُنكر عليها أحد ـ حسب قولهم ـ باعتبارها صحابية وباقي الصحابة كانوا يسمعون هذا ولم ينكروا عليها، مما يعني أن الرثاء والنياحة بهذا المستوى ليست ممنوعة وليست محرمة.

فكان جبرائيل عليه السلام ينزل عليها ويعزيها في أبيها ويسليها في مصيبتها ويخبرها عما يجري على أبنائها، فكانت فاطمة عليها السلام تمليه على علي عليه السلام وعلي يكتب فهذا هو منشأ مصحف فاطمة.

إشكال البعض في نزول جبريل عليه السلام على فاطمة عليها السلام

كيف يقال بنزول جبرائيل على فاطمة عليها السلام؟ ألا يلزم ذلك أن هناك وحيًا جديدًا وأنتم تقولون انقطع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟.

والجواب: تختلف الأسباب التي من أجلها تنزل الملائكة، فبعض الأسباب تجعل نزول الملائكة بعد استشهاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممتنعًا، ومثاله: أن يأتي جبرائيل أو أي ملَك اخر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحي فيه تشريع وأحكام.

وهناك أسباب أخرى تجعل نزول الملائكة على فاطمة عليها السلام أو على أي أحد غيرها ممن يختار الله له ذلك ممكنا وهنالك نماذج على ذلك:

النموذج الأول: نزول الملائكة على مريم بنت عمران

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

يظهر من الآية أن جبرائيل يخبر مريم عليها السلام بأنها مصطفاة ومطهرة، ولا ريب أن فاطمة بنت محمد عليها السلام هي أفضل من مريم عليها السلام ؛ وذلك لما ورد في فضلها من الروايات المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين وليس سيدة نساء قومها فقط كما كانت مريم عليها السلام. فمع إمكان ذلك ووجود الخبر الصحيح به وانتفاء المانع منه نقبل مثل هذا الأمر.

(1) سورة آل عمران آية 42.

ومثل مريم سارة زوجة نبي الله إبراهيم فقد بشرتها الملائكة وأخبرتها عن مستقبل أيامها وأنها تلد الولد وولد الولد بعد العقم ولما تعجبت من ذلك واستغربته قالوا لها لا تعجبي من أمر الله ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ (*) قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ (*) قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾[1].

النموذج الثاني: عبّاد بني إسرائيل

إذا كان القرآن الكريم يشهد بنزول الملائكة على مريم وهي دون فاطمة في الشرف والمنزلة والفضيلة[2]، وكذلك ما ورد في بعض صحاح مدرسة الخلفاء أن الملائكة كانت تنزل على بعض عُبّاد المؤمنين[3] على الرغم من أنه ليس لهؤلاء العُبّاد صفة استثنائية، فكيف نستبعد نزول الملائكة على فاطمة عليها السلام وقد

(1) هود: 71 ـ 73

(2) في روايات متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله مفادها أن مريم سيدة نساء عالمها بينما فاطمة سيدة نساء العالمين طرا.

(3) صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ـ طريقه ـ ملكًا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عزّ وجلّ، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه».

ورد الخبر عن الصادق عليه السلام بأن جبرائيل كان ينزل عليها؟! وهذا لا نسوقه دليلًا على حصول الحادثة وإنما هو لرفع الاستبعاد وإلزام الخصم الذي ينكر هنا ويسلم هناك.

مضمون مصحف فاطمة

المتحصل من الروايات أن هذا الكتاب المجلد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام بعد مجيء جبرائيل بأخباره ونقله لهذه الأخبار لفاطمة عليها السلام، كان يحتوي على علم ما هو كائن من الأحداث المستقبلية، ونظرًا لأن هذا العلم من العلوم الخاصة، كان من جملة مختصات المعصومين فهو لا يوجد الآن عند أحد من الخلق في هذا الزمان إلا عند صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه.

فإنّ هناك مجموعة من العلوم الخاصة توارثها أهل البيت عليهم السلام كعلائم على أن لهم ارتباطًا خاصًا بالله عز وجل فلديهم علم خاص لا يصل إلى غيرهم، فبقي ذلك عندهم وهو من جملة علامات الإمام وعصمته. على سبيل المثال، لدينا الجامعة، وما أدراك ما الجامعة! فيها الأحكام الفقهية التفصيلية، حتى أرش الخدش مذكور في تلك الجامعة.

إن هذه الأحكام التفصيلية قد لا تستطيع الحصول عليها في

القرآن الكريم ولا في أحاديث رسول الله ﷺ، وإنما كان من علم رسول الله ﷺ الذي أورثه للأئمة المعصومين عليهم السلام. وكذلك ما قيل من كتاب الجفر، فيه علم من علوم الأنبياء السابقين، ولذلك فكل من يدعي في هذا الزمان غير الإمام المعصوم أن عنده كتاب الجفر فهو غير صادق.

مثلًا قد ورد في الروايات لدينا عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأحد اصحابه قبل نهاية الدولة الأموية «في سنة مائة وثمانية وعشرين للهجرة يبدأ أمر الزنادقة ووجدت هذا في مصحف فاطمة»، والإمام الصادق عليه السلام عاش في تلك الفترة واستشهد سنة مائة وثمان وأربعين للهجرة، فكان يحدث أصحابه أنه سيبدأ أمر الزنادقة، أي مع نهاية الدولة الاموية ومع بدايات الحركة العباسية؛ لأن الدولة العباسية تأسست سنة مائة واثنين وثلاثين للهجرة.

في تلك الفترة بدأت حركات الزنادقة، وكانوا يتحدثون عن نشاط لعبد الله بن المقفع الذي توفي في سنة مائة وخمسين للهجرة حيث بدأ نشاطه التشكيكي من وقت مبكر، وبعد ذلك بثلاث سنوات هلك عبد الكريم بن أبي العوجاء وهو من الزنادقة وهكذا غيرهم. بدأت هذه الحركات من سنة مائة وثمانية

وعشرين للهجرة، ومصحف فاطمة عليها السلام كان في السنة العاشرة أو الحادية عشرة من الهجرة حيث ذكر فيه أنه ستبدأ حركات للزندقة والإلحاد في المجتمع المسلم بعد حوالي قرن من الزمن.

أما فيما يتعلق بالتطورات السياسية، فقد أشير في بعض الروايات إلى ما جاء في مصحف فاطمة عنها، ومن ذلك رواية تقول بأنه: جاء الفضيل بن يسار[1] إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقال له الإمام: «رجعت إلى مصحف فاطمة فما وجدت حُكمًا ولا ملكًا لهم ـ يعني أبناء عبد الله بن الحسن ـ في هذه البلاد ـ أي بغداد أو المدينة ـ»، بمعنى إذا كنت تعتقد أن هذه الحركة سيعقبها نصر على العباسيين فهذا لن يحصل.

وقد ورد في روايات أن مصحف فاطمة مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، وذلك يعني أن حجمه ثلاثة أضعاف القرآن الكريم، فلو افترضنا أن بحسب الطبعات الموجودة حاليا حوالي ستمائة صفحة في القرآن الكريم، معنى ذلك فإن مصحف فاطمة في حدود الألف وثمانمائة صفحة، وفيه هذه العناوين العامة لا التفاصيل الجزئية.

(1) أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وممن شارك في حركة الحسنيين ضد المنصور العباسي.

بناء على ما تقدم؛ فإن ما يذكره بعض الطائفيين من أن الشيعة لهم مصحف خاص بهم ـ أي مصحف فاطمة ـ كذب محض أو جهل مشين، الكتاب هذا غير موجود ولا يوجد فيه شيء من القرآن الكريم، ولا يوجد فيه شيء من الأحكام، ولا يوجد عند أحد على الإطلاق، وإنما هو ذخيرة وميراث لأصحابه وهم الأئمة عليهم السلام، وهو من علامات الإمامة، حتى عندما ادّعى بعض الهاشميين الإمامة أخبر بعض ائمتنا أصحابه بأن يطلبوا من المدعي إحضار مصحف فاطمة وسلاح رسول الله وسلاح ذي الفقار، فإن فعل ذلك فهو إمام.

إذا كان مصحف فاطمة ليس موجودًا عند المراجع العظام، ولا في الحوزات العلمية، ولا عند المحققين في الدراسات القرآنية، فكيف تقولون بأن هناك قرآنًا خاصًا بالشيعة يقرأونه بدلًا عن هذا القرآن الذي هو بيد المسلمين؟ ولكن مما يهون الخطب أن هذه الأكاذيب التي تنشر أحيانًا بدافع تبغيض الناس في مذهب أهل البيت عليهم السلام لا تلبث أن تتوضح ويظهر عدم صحتها.

فأنتم ترون أن في كل مجتمعات أتباع أهل البيت عليهم السلام يلتزمون بالقرآن الذي نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويتعاملون مع هذا القرآن المعهود ولا يزيدون فيه حرفًا ولا ينقصون منه كلمة،

وأنت تلاحظون هذه القنوات الفضائية تبث تلاوة قرّاء شيعة أهل البيت عليهم السلام وختمتهم للقرآن الكريم من المراقد المقدسة والمشاهد المشرفة حتى يتبين لعامة المسلمين كذب هؤلاء الطائفيين الذين يريدون تشويه الصورة الحقيقية، فهذا هو القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام، بل كان مجموعًا أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يحتاج لبحث خاص؛ لأن الفكرة الشائعة أن جمع القرآن كان في عهد الخليفة الثالث لا يُسلّم بها أغلب المحققين ولهم أدلتهم على ذلك وهي أدلة متينة وقوية.

أثر مصحف فاطمة على أهل البيت عليهم السلام؟

وبحسب ما جاء في الرواية التي مرت، فإن الغرض من ذلك النزول الجبرئيلي والحديث الذي يأتي به هو تسلية فاطمة عليها السلام، وذلك بالكشف عن حوادث المستقبل وأنه برغم الآلام سيكون من نصيب شريعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعترته وذريته، وأن هذه الآلام والأحزان ستنتهي عندما يظهر قائم آل محمد وهو ابنها محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

عبادة فاطمة الزهراء عليها السلام

روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن ابنتي فاطمة إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء كما تزهر الكواكب إلى أهل الأرض».

تتناول هذه الصفحات بعض الجوانب من عبادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، أقول بعض الجوانب باعتبار أننا لا نحيط ولا غيرنا بكل ما كانت عليه من العبادة والتوجه إلى الله عز وجل، فإن قسمًا كبيرًا وواسعًا من حياتها لم يدونه التاريخ ولم ينقله، أضف إلى ذلك أن الحالة العبادية في أكثرها هي حالة خفية، تهجدها في الليل بكاؤها توسلها وتعلق قلبها بالله عز وجل هذه ليست من الأمور الظاهرة غالبًا، ولذلك حتى لو أريد تدوين هذه الأمور فإنه يكون من الصعب. نعم كُشف لنا شذرات من هنا وهناك وهي تعكس جانبًا مما وراء هذه الشذرات والعناوين، نتحدث عن هذا لكي ننظر إلى صفحة مشرقة قابلة للاقتداء من حياة هذه السيدة الجليلة والصديقة الطاهرة.

وعندما نتناول الجانب العبادي في حياة سيدتنا فاطمة، ينبغي أن نلتفت إلى أنه أحد جوانب الكمال في شخصيتها، وليس الجانب الوحيد. ذلك أن من الممكن أن تجد عابدًا قد اعتزل الناس فهو متفرغ للصلاة والمناجاة والتهجد، لكنه لا يوجد له جهات كمال أخر. أو تجد عالمًا محققًا قد انقطع للتحقيق والعلم والكتابة والتأليف لكن عبادته ليست في الدرجة العالية، وهكذا..

إنما الكمال كل الكمال هو أننا أمام امرأة هي زوجة وفي أعلى درجات حسن التبعل لزوجها حتى قال فيها: «ولقد كنت أنظر إليها فتنجاب عن قلبي الهموم»، وهي أم لأربعة أولاد قد أنجبتهم بشكل متتال تقريبًا بحيث كان بين بعضهم والآخر مقدار الطهر فقط كما هو المعروف! وهؤلاء يحتاجون في تربيتهم إلى عناية خاصة، وهي فوق ذلك كانت في أول العمر فقد أنجبت أول أبنائها وهي قبل الحادية عشر من العمر! وزوجها كان في كثير من الأوقات تحتضنه جبهات القتال وميادين الحرب والتي كان قسم منها بعيدًا عن المدينة المنورة، ويحتاج أن يبقى أيامًا بعيدًا عن زوجته لأجل ذلك.

وكانت إلى ذلك تعيش في شدة وصعوبة، وبالذات في أوائل

زواجها حتى نقل أنها كانت تقول: «لم يكن عندنا إلا جلد كبش ننام عليه في الليل وفي النهار نبسطه للطعام»، هذه الحالة تسبب ضغطًا على الرجل وعلى المرأة ومع ذلك ـ في جانب التبعل والحياة الزوجية ـ تدير الأمر بهذه الطريقة.

وقد سألته كنوع من الاعتذار ـ ربما قد بدر منها شيء ـ في أثناء وصيتها له: «ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك مذ عاشرتني، قال: معاذ الله أنت أتقى لله وأبر من أن أوبخك بمخالفتي».

إضافة إلى ذلك كانت النساء يأتين الزهراء عليها السلام ويسألنها عن أمور دينهن، فذات مرة جاءتها امرأة تسأل، وكل ما تجيب الزهراء مسألتها أعادت السؤال كأنها لم تفهم حتى بلغت مرارًا ـ بعضهم قال سبع مرات ـ فقالت المرأة: كلفتك في هذا. فقالت الزهراء عليها السلام: «لا، كلما أعدت عليّ زاد لي الثواب والأجر».

فكانت عليها السلام تجمع الجانب الزوجي والعلمي والسياسي والعبادي وهذا ما يدل على مقدار العظمة والكمال لدى الزهراء عليها السلام.

الصحيفة الفاطمية:

الدعاء هو صلة بين العبد وربه، وحديث العبد إلى ربه، ومناجاة واتصال، وإذا جاء الدعاء من معصوم فإنه يحمل معانيَ كثيرة، ويزيد المعرفة بالدين والأخلاق وبالله عز وجل.

ولذلك كانت الأدعية أحد مصادر المعرفة الدينية، بل إن بعض العلماء كانوا يستدلون ببعض ما ورد في الأدعية في بحوثهم الفقهية.

فمن باب المثال يستشهد بعض علمائنا بإحدى فقرات دعاء الندبة المنسوب إلى المعصومين عليهم السلام في مسألة فقهية دقيقة جدًا في بحث المعاملات حول الشروط، وأنه هل يشمل الشرطُ الشروط الابتدائية أو لا بدَّ أن يكون الشرط تابعًا لأحد العقود؟ وذلك من خلال التأمل في فقرة «بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية فشرطوا لك ذلك»[1] الواردة في ذلك الدعاء.

إذن الدعاء بحد ذاته ليس مجرد أن أقول (يا الله اعف عني)، وهذا ما يميز أدعية المعصومين عن أدعية غيرهم.

وهناك من جمع أدعية الصديقة الزهراء عليها السلام في كتاب بعنوان الصحيفة الفاطمية محاولًا أن يتتبع ما هو موجود من أدعية

(1) الأنصاري؛ الشيخ مرتضى: كتاب المكاسب، ج 5، الشيخ الأنصاري، ص 21: لكن لا يبعد منع صدق الشرط في الالتزامات الابتدائية، بل المتبادر عرفا هو الإلزام التابع، كما يشهد به موارد استعمال هذا اللفظ حتى في مثل قوله عليه السلام في دعاء التوبة: «**ولك يا رب شرطي أن لا أعود في مكروهك، وعهدي أن أهجر جميع معاصيك**»، وقوله عليه السلام في أول دعاء الندبة: «**بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا**» كما لا يخفى على من تأملها.

للزهراء عليها السلام، وحبذا لو قام بعض المؤمنين بطباعة الصحيفة الفاطمية وتوزيعها على الناس حبًا بالزهراء ولإظهار شيء من فضلها، ونشر علومها عليها السلام. فإننا نجد مثلًا أن الصحيفة السجادية منتشرة بين المؤمنين ولله الحمد، وينتفعون بها، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للصحيفة الفاطمية.

تحوي هذه الصحيفة الفاطمية أدعية الأيام الخاصة بالصديقة الزهراء عليها السلام وأدعية في طلب الحوائج، وهناك أدعية في المناجاة والتضرع إلى الله عز وجل، وهناك دعاء طويل ومفصل في كيفية الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لأن أمر تعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإعلاء منزلته واحترام ذكره، يخالف ما سلكه الطواغيت والمنحرفون في تاريخ الإسلام من أنهم أرادوا القضاء على ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فقد قال أحدهم: وهذا ابن أبي كبشة[1] ـ يقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ يصرخ به في كل يوم خمس مرات فكأنّ القائل يصعب عليه أن

(1) قيل إن أحد أجداد النبي من جهة أمه رفض عبادة الأصنام وما كانت عليه قريش فنعتوه بالتمرد عليها، ولما جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعوته من الله، أعادوا ذكر أبي كبشة، وكأنهما على نفس المسار وشتان! وقد ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو سفيان عندما كان في مجلس هرقل الروم كما جاء في صحيح البخاري برقم 2978 «أن هرقل. دَعَا بِكِتَابِ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَلَمَّا فَرَغَ مِن قِرَاءَةِ الكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، فَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، وأُخْرِجْنَا فَقُلتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ إِنَّه يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ..» يعني أن دولة النبي أصبحت قوية! ونفس التسمية أعادها ابنه معاوية بالنص الذي قلناه في المتن كما نقله الزبير بن بكار في الموفقيات..

يذكر اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويصعب عليه أن يوصف بالرسالة والنبوة في الأذان!.

وشبيه بهذا ما قاله الحجاج الثقفي حين خطب بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، فقال: «تبًا لهم! إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله»[1]!.

بل إلى يومنا هذا لا تزال بقايا الآثار الأموية (والزبيرية)، من تعمد فصل آل النبي عنه في الصلاة عليه وعليه مع وجود أحاديث تنهى عن الصلاة البتراء، تجري في هذا التيار.

ولذلك التزم شيعة أهل البيت عليهم السلام بالصلاة الكاملة على النبي مقرونا به عترته وذريته، وهذا لا ينقص من قدر النبي ولا شأنه ومنزلته. وفي هذا الإطار تعلمنا السيدة الزهراء عليها السلام في دعائها الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتعدد بمناسبة ذلك أدوار النبي وأفضاله على الأمة وتبالغ في الدعاء له برفيع المنزلة، فكان من دعائها في الصلاة عليه ما يلي:

«اللَّهم صلّ على محمد كما هديتنا به وصلّ على محمد كما

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 15/ 242.

رحمتنا به وصلِّ على محمد كما عززتنا به وصل على محمد كما فضلتنا به وصل على محمد كما شرفتنا به وصلى على محمد كما بصرتنا به وصل على محمد كما أنقذتنا به من شفا حفرة من النار، اللهم بيض وجهه وأعل كعبه وأفلج حجته وأتمم نوره وثقل ميزانه وعظم برهانه وافسح له حتى يرضى وبلغه الدرجة والوسيلة من الجنة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته واجعله أفضل النبيين والمرسلين عندك منزلة ووسيلة واقصص بنا أثره واسقنا بكأسه وأوردنا حوضه واحشرنا في زمرته وتوفنا على ملته واسلك بنا سبله واستعملنا بسنته غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين».

الزهراء وقيام الليل

أول من وصف عبادة الزهراء عليها السلام وأثنى عليها في ذلك هو خالقها سبحانه، فقد ورد في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أن الله عز وجل يقول لملائكته: يامَلائكتي، انظروا إلى أمتي فاطمة سيدة إمائي، قائمة بين يدي ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي، أشهدكم أني قد أمنت شيعتها من النار»[1].

(1) الشيخ الصدوق: الأمالي، ص 176.

وأما وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها ولعبادتها، فقد قال: «أما ابنتي فاطمة، فإنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية، متى قامت في محرابها بين يدي ربها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض»[1].

ويكفي ونلاحظ انتقال فاطمة من بيت أبيها إلى بيت أمير المؤمنين وأي مستوى روحي وعبادي كانت تفكر فيه، فقد نقلوا أنها عليها السلام بعد زواجها وكانت بين العاشرة والحادية عشر من العمر، فلما زفت إلى دارها، رآها أمير المؤمنين عليه السلام تبكي فسألها عن ذلك فقالت له: إن دخولها في فراشها ذكرها بدخولها في قبرها، فاقترحت عليه أن يحيا الليلة تلك بالعبادة!.

وبحسب ما نقله المرحوم السيد المرعشي في شرح إحقاق الحق 23/ 493 في قصة زفاف فاطمة: «فلما دخل الليل ودخل على فاطمة رآها تبكي، فقال: ما يبكيك؟ أما ترضي أن أكون لك بعلًا وتكوني لي أهلا. قالت: بلى، ولكني تفكرت في حالي وأمري عند ذهاب عمري ونزولي في قبري، فشبهت دخولي

(1) نفس المصدر والصفحة.

في فراشي بمنزلي كدخولي إلى لحدي وقبري، فأنشدك الله أن قمت إلى الصلاة فنعبد الله تعالى هذه الليلة، فكانا يقطعان الليل والنهار بالصلاة حتى مضت عليهما ثلاثة أيام، حتى باهى الله بهما الملائكة المقربين وجعلهما شفيعا في العصاة والمذنبين».

نقول هذا ليتأمل فيه الأزواج والزوجات ممن (يحيون) ليلة الزفاف إلى الفجر في الغناء المحرم والمظاهر التي لا ترضي الله، ثم يقولون هي ليلة العمر! ومن العجب أن هذه الليلة التي كان ينبغي أن تكون عنوان حياتهما في طاعة الله حيث الزواج هو إعلان الطاعة ورفض قضاء الشهوة بغير ما يرضي الله، فإذا بها تتحول إلى إعلان المعصية، والتمرد على أوامر الله!!.

ولأجل ذلك كان من المستحب للزوجين في ليلة الزفاف أن يصلّيا ركعتين ويدعوا ربهما تعالى أن يرزقهما الود والسعادة والذرية الصالحة.

إن انتقالات الإنسان الحقيقية في هذه الحياة هي ثلاثة؛ انتقال من بطن أمه إلى الدنيا، ومن بيت عائلته إلى بيت الزوجية، ومن الدنيا إلى قبره.

الزهراء قدوة أبنائها في التهجد:

فقد روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: «رأيت أمي فاطمة قد

قامت ليلتها فلم تزل راكعة وساجدة حتى طلع الفجر، وسمعتها تدعو لكل الناس فلما انفتلت، قلت لها يا أماه: رأيتك قد دعوت لسائر الناس ولم تدعي لنفسك! فقالت: يا بني، بلى، الجار قبل الدار».

وروي عن أهل البيت عليهم السلام أن الإنسان إذا دعا لأخيه المؤمن بظهر الغيب رُد عليه بأضعاف ما دعا به لصاحبه.

عن علم فاطمة الزهراء عليها السلام

ورد في الخبر المعتبر عن سيدنا ومولانا أبي عبد الله الصادق سلام الله عليه أنه قال: «إن فاطمة عليها السلام مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة وسبعين يومًا فدخلها من ذلك همٌ عظيم وحزنٌ شديدٌ على أبيها فكان جبرئيل عليه السلام ينزل عليها يحسن عزاءها ويطيب نفسها ويخبرها عن مكان أبيها ومقامه ويخبرها عمّا يجري على ولدها وكان عليٌ يكتب ذلك فسمي هذا مصحف فاطمة عليها السلام»[1].

من هذا الحديث الذي نقل بطريق معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام ننطلق للحديث عن بعض مظاهر علم فاطمة الزهراء عليها السلام.

لا يمكن لنا بطبيعة الحال أن نحيط بأطراف العلم الفاطمي لسعته وشموله وتعدد مناحيه فإنها المعصومة عليها السلام بل هي الحجة على أبنائها.. كما ورد في حديث عن المعصومين عليهم السلام «نحن حجج

(1) الكليني، الكافي (مُشَكَّل) 1/ 241: مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنِ ابْنِ رِئَابٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ.

الله على الخلق وأمنا فاطمة عليها السلام حجة علينا»[1]. فإذا كانت حجة على الحجج فيكفي هذا منزلة لمعرفة مقدار سمو علمها.

لكن بمقدار ما يتيسر له وعاؤنا وبمقدار وما نتعقله بأفكارنا نحاول أن نسلط بعض الضوء على جوانب من هذا العلم الفاطمي.

وفي هذا دعوة مهمةٌ لكلا الطرفين من الرجال والنساء من اتباع فاطمة الزهراء عليها السلام للاقتداء بها عليها السلام والتأسي بطريقتها والإحاطة بقدر الإمكان بمكانة العلم والمعرفة لدى الزهراء عليها السلام.

وذلك لأنك عندما تكون وليًا لأعلم خلق الله عز وجل فينبغي أن تتناسب في علمك معهم. لا يليق بمن يقتدي بأعلم الخلق أن يكون جاهلًا.. ولا يليق به أن يزهد في العلم والمعرفة، سواء كان العلم الديني والمعرفة الإسلامية أو المعرفة الدنيوية، والاول أولى لما يترتب عليه من مسؤوليات دينية.

الله تعالى هو المعلم الأول لفاطمة الزهراء عليها السلام؟!

تارة نتحدث عن تعليم الله عز وجل لها.. وهذا مفاد الحديث

(1) المسعودي، الشيخ محمد فاضل، الأسرار الفاطمية ص 17: ذكر أنه ورد عن الإمام العسكري عليه السلام بينما ذكر المرجع الديني السيد محمد صادق الروحاني في موقعه أنه عن الإمام الصادق عليه السلام.

المعتبر الوارد في مصحف فاطمة عليها السلام فإن معلمها الأول هو ربها سبحانه، حيث كان ينزل عليها جبرئيل ويخبرها الأخبار المختلفة مما يأتي عند الحديث عن مصحف فاطمة.

فإنها عليها السلام في فترة خمسة وسبعين يومًا تلقت من العلوم والمعارف من الله عز وجل عبر جبرئيل عليه السلام ما يعادل ثلاث مرات من حجم القرآن الكريم.

وهذا يعني أنه إذا كان القرآن الكريم حوالي ستمائة صفحة مطبوعة وفيه ما فيه من العلوم، فإنها قد تلقت من العلوم بالإضافة إلى ما كانت تعرفه من علوم القرآن، ثلاثة أضعاف حجمه فيما سيسمى فيما بعد بمصحف فاطمة وهو ليس آيات ولا أحكامًا وإنما معارف أخر.

ولا غرابة في ذلك، فقد خاطبت الملائكة مريم عليها السلام ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وفاطمة سيدة نساء العالمين قاطبة أفضل من مريم، لأن مريم اصطفيت على نساء عالمها بينما فاطمة سيدة نساء العالمين جميعا. وخاطبت الملائكة سارة مبشرة لها بإسحاق

(1) سورة آل عمران: 42.

ومن وراء إسحاق يعقوب وعندما تعجبت رفعوا عنها العجب بأن أمر الله لا تحده حدود طبيعية. وأن هذا هو من رحمة الله تعالى بأهل ذلك البيت!.

وأخرى عن المعلم الثاني لفاطمة عليها السلام وهو نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فقد كان يخصها كعليٍّ بالعلوم. وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام في حديثه عن قربه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. حيث يشير عليه السلام إلى أنه كان إذا دخل عليٌّ على النبي في بعض منازله أخلاه وأقام النساء حتى المقربات منهن كأم سلمة! ولكنه إذا جاء لعلي عليه السلام في منزله لم يخل المجلس من فاطمة ولا من الحسنين.

ولذلك فمن أعجب العجب بعد هذا أن نجد السيوطي[1] يقول إن مروياتها في كتب الأحاديث ثمانية عشر والمتفق عليه واحد!! وأعجب من هذا روايته في ذلك (المسند!!) بما خالف فيه مشهور المؤرخين من غير الإمامية، وإجماع محدثي الإمامية ومؤرخيهم أن الذي صلى على فاطمة هو أبو بكر وأن عليًّا قدمه في ذلك!! وفي هذا المسند بالرغم من أن السيوطي قد أورد فيه 284 رواية إلا أن المروي عن فاطمة مما ينطبق عليه عنوان المسند بشكل دقيق هو 24 رواية فقط!.

(1) السيوطي، جلال الدين: مسند فاطمة الزهراء، مقدمة الكتاب.

خُطَب السيدة الزهراء عليها السلام:

وبعد ذلك نقول إن من تجليات علم فاطمة الزهراء عليها السلام، خطبتها في المسجد وقد مر طرف من الكلام في خصائصها وميزاتها وعموم مواضيعها وطرق استدلالها فيها.

كما كان لها خطبة أخرى في نساء المهاجرين والأنصار وهي وإن كانت أقصر من خطبتها في المسجد إلا أنها أعادت فيها خلاصة لما ذكرت هناك مما يرتبط بأمر خلاف الخلافة على أمير المؤمنين عليه السلام وكونه أحق وأولى منهم بالقيادة، وأيضًا عتابها الشديد لأزواجهن، ولا ريب أنهن قد بلّغن أزواجهن بموقفها. فعن ابن عباس، قال: دخلت نسوة من المهاجرين والأنصار على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعدنها في علتها، فقلن لها: السلام عليك يا بنت رسول الله، كيف أصبحت؟ فقالت: أصبحت والله عائفة لدنياكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد إذ عجمتهم، وسئمتهم بعد إذ سبرتهم، فقبحا لأفون الرأي وخطل القول وخور القناة، و﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1]، ولا جرم والله لقد قلدتهم ربقتها، وشننت عليهم عارها، فجدعًا ورغمًا للقوم الظالمين.

(1) سورة المائدة: 80.

«ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين؟! ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟! نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته[1] بحتفه وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاعتلقه، ثم لسار بهم سيرًا سجحًا،والله لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلًا رويا فضفاضًا، تطفح ضفته، لأصدرهم بطانًا قد خثر بهم الري غير متحل بطائل إلا بغمر الناهل وردع سورة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.

فهلم فاسمع، فما عشت أراك الدهر العجب، وإن تعجب بعد الحادث، فما بالهم بأي سند استندوا، أم بأية عروة تمسكوا؟ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[2] و﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[3].

استبدلوا الذنابى بالقوادم، والحرون بالقاحم، والعجز بالكاهل، فتعسا لقوم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ

(1) الفقرة نقلها الطبرسي في كتابه الاحتجاج وهي أكثر استقامة مما نقله في الأمالي.
(2) سورة الحج: 13.
(3) سورة الكهف: 50.

وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[1]، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2]؟.

لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا طلاع القعب دمًا عبيطًا وذعافًا ممقرًا، هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الأولون، ثم طيبوا بعد ذلك عن أنفسكم نفسًا، ثم اطمئنوا للفتنة جأشًا، وأبشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدًا، وجمعكم حصيدًا، فيا حسرة لكم وقد عميت عليكم الأنباء ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[3]».

ونعيد إلى الذكر ما سبق قوله من الميزات الموجودة في خطبتها المعروفة في المسجد من اقتباساتها القرآنية فهي هنا حاضرة، والنسيج هو نفس النسيج والأسلوب هو الأسلوب. لكن الإضافة فيها هو تنبؤ الزهراء عليها السلام بمستقبل الأمة ورؤيتها للأزمات التي ستقع فيها والمشاكل التي ستتورط فيها. وباختصار شديد سنشير إلى نقاط في خطبتها هذه:

1) في جوابها على سؤال كيف أصبحت من علتك؟ يظهر أن

(1) سورة البقرة: 12.
(2) سورة يونس: 35.
(3) سورة هود: 28.

توقيت الزيارة كان بعد إجهاض الزهراء جنينها، وهذا أحد القرائن على حصول تلك الحادثة. فإنه لم تكن هناك علة أخرى في فاطمة! وجوابها بدل أن يكون التشكي من الألم البدني أو النزيف كان في اتجاه أوسع يتناول حال المسلمين على أثر الانقلاب على أمير المؤمنين عليه السلام، فقالت أصبحت عائفة (زاهدة) لدنياكن، قالية (مبغضة) لرجالكن، لا لجهة شخصية وإنما لكون مواقفهم مواقف خذولة، وآراءهم آراء فاسدة.

2) تتساءل تساؤل العارف بالجواب، بعد أن تقرر أنهم زحزحوا القيادة عنه.. لماذا؟ وماذا نقموا منه؟ وما الذي عابوه فيه؟ فتقول إن نفس نقاط قوته وتميزه هي التي عابوها فيه، نقموا منه نكير سيفه في المعارك وقلة مبالاته بحتفه بينما هم لا يستطيعون مجاراته في ذلك، ثم تسترسل في ذكر صفات ذلك الشخص الخبير بأمور الدنيا والدين والذي قامت عليه قواعد الرسالة.. ثم تضرب مثالًا مما كان منه ومنهم من أنه لو أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتحمل قضية من القضايا لتكافوا عنها وابتعدوا ولكنه يأخذها بأمر رسول الله وخيبر والخندق وغيرهما شواهد، ولو جعل زمام القيادة إليه لسار بالأمة

سيرًا هادئًا مطمئنًا على بصيرة، لا يتعتع الراكب فيه ولا تجرح الدابة من خلاله حتى يوصله إلى المنهل العذب الذي يرويهم في الوقت الذي لا يشبع هو منه إلا بمقدار ما يواصل المسير!.

3) ويزداد تعجبها حين تقارن بينه وبين المستولين على موقع القيادة فتقول إنهم أخروا من كان ينبغي أن يتقدمهم وقدموا من كان ينبغي أن يتأخر! هل رأيت طيرًا يطير بينما قوادم ريشه في الخلف وذناباه في المقدمة؟.

ويترتب على ذلك أن الناس لا يدركون ضخامة المشكلة ووخامة العلة التي ابتليت بها الأمة، لكن ما هي إلا سنوات حتى تستفيق هذه الأمة على أن ما كانوا يظنونه لبنًا سائغًا مريًا عاد سمًّا ممقرًا مبيدًا، وأن السيف بدأ يحصد الرقاب مثلما أن السارقين يحصدون تعب الناس ولا يعطونهم سوى قوت من لا يموت! «وأبشروا بسيف صارم وهرج دائم شامل واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيدًا، وجمعكم حصيدًا» لكن ماذا تستطيع الزهراء أن تصنع أكثر من النصح والتحذير؟ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1]؟.

(1) سورة هود: 28.

مسند الزهراء عليها السلام :

المسند في تعبير أهل الحديث ما كان الحديث فيه ينتهي إلى راوٍ محدد كابن عباس مثلا، فيجمع المؤلف الأحاديث التي تنتهي إلى هذا الراوي ثم لرسول الله، وعلى هذا الأساس صنف المؤلفون كتبهم فهو هنا مثلاً لا يأتي بحديث يرويه أبو سعيد الخدري حتى لو كان يتصل بموضوع الحديث الآخر، وإنما يعتمد على الحديث المنتهي باسم فلان من الرواة.

وعندما يقال مسند فاطمة، يقصد بذلك الأحاديث التي روتها فاطمة عليها السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو هي قالتها بنفسها كما هو رأي الإمامية حيث يرون حجية قولها هي كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا بما هي راوية فقط خلافا للمدرسة الأخرى.

وقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى أنه قد صنف الحافظ السيوطي من علماء مدرسة الخلفاء (توفي سنة 911 هـ) كتابًا باسم مسند فاطمة وأورد فيه (280) حديثًا. ولكن لاحظ عليه بعض العلماء أنه ليس كل الأحاديث الموجودة فيه قد روته فاطمة عليها السلام وإنما كان يضع أي حديث فيه اسم فاطمة في هذا الكتاب.. فإذا رأى حديثًا فيه حب النبي لفاطمة عليها السلام فإنه يضعه في هذا الكتاب، وهذا مخالف لاصطلاح المسند الذي عرّفناه آنفًا.

كما يلاحظ عليه أنه أغفل ما يعد أهم أقوالها وأحاديثها مضمونًا وأسلوبًا وهو خطبتاها اللتان خطبتهما؛ في المسجد والأخرى أمام نساء المهاجرين والأنصار وقد مرَّ الحديث فيهما سابقًا، ولعل موقف السيوطي العقدي منعه من إيراد هاتين الخطبتين وإلا فقد كانتا مشهورتين قبل زمانه.

وأما عند الشيعة فقد كتب العلامة السيد حسين التويسركاني كتابًا بعنوان مسند فاطمة الزهراء عليها السلام في نحو 450 صفحة أورد فيه 260 حديثًا مما روته السيدة الزهراء أو ورد قولها وكلامها فيه أو كان يخصها بنحو من الأنحاء[1]. كما كتب العلامة الشيخ عزيز الله عطاردي كتابًا بنفس العنوان اشتمل على عرض لحياة السيدة الزهراء عليها السلام وفضائلها ومناقبها وما جرى عليها بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وفي فصله الثاني أورد الروايات الواردة عن فاطمة الزهراء عليها السلام حول الأحكام والسنن. كما عرض في فصله الثالث: إلى الذين رووا عن الزهراء عليها السلام مع شرح بسيط لهم.

وسنعرض لبعض تلك الروايات التي نقلت عنها عليها السلام:

(1) جاء في محتوياته عناوين مثل: فضائل الزهراء: في أنها سيدة النساء وأنها في درجة النبي في الجنة وفي دعاء النبي لها وزهدها وخشيتها من الله وكذلك في زواجها وما روته عن أبيها ومن ذلك حديث الثقلين، وفي بيانها للأحكام الشرعية، وفي حجها وأحاديث حول أمها خديجة وزوجها أمير المؤمنين وأبنائها وأختها رقية.

باب العقائد:

بالإضافة إلى ما أشرنا إليه أثناء شرح الخطبة الفدكية التي خطبتها في المسجد وكيف تحدثت عن معرفة الله تعالى وصفات النبي وجهاده فقد روي عنها حديث الثقلين الذي تدور عليه رحى المناقشات العقائدية وإثبات حقانية مذهب أهل البيت ولزوم اتباع سنتهم كاتباع القرآن حيث هما العاصمان من الضلال..

حديث الثقلين:

عن فاطمة الزهراء قالت: سمعت أبي صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه الذي قبض فيه يقول، وقد امتلأت الحجرة من أصحابه:أيها الناس يوشك أن أقبض قبضا سريعا وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا وإني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد عليٍّ فقال: «هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض فأسألكم ما تخلفوني فيهما»[1].

وكان للنص على الأئمة المعصومين مكان في حديث فاطمة عليها السلام .

(1) نقله التويسركاني في مسند الزهراء، عن ينابيع المودة لذوي القربى، ج 1، القندوزي، ص 124.

فقد نقلت عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أن الأئمة بعدي اثنا عشر عدد نقباء بني إسرائيل» قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[1].

وحديث اللوح عن جابر بن عبد الله الأنصاري عنها عليها السلام مشهور ومعروف، وقد نقله إمام عن إمام؛ فعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (جعفر بن محمد الصادق) عليه السلام، قَالَ: «قَالَ أَبِي لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَمَتى يَخِفُّ عَلَيْكَ أَنْ أَخْلُوَ بِكَ فَأَسْأَلَكَ عَنْهَا؟ فَقَالَ لَهُ جَابِرٌ: أَيَّ الْأَوْقَاتِ أَحْبَبْتَهُ، فَخَلَا بِهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، فَقَالَ لَهُ: يَا جَابِرُ، أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّوْحِ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي يَدِ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، ومَا أَخْبَرَتْكَ بِهِ أُمِّي أَنَّهُ فِي ذلِكَ اللَّوْحِ مَكْتُوبٌ. فَقَالَ جَابِرٌ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ عَلى أُمِّكَ فَاطِمَةَ عليها السلام فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَهَنَّيْتُهَا بِوِلَادَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، ورَأَيْتُ فِي يَدَيْهَا لَوْحًا أَخْضَرَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنْ زُمُرُّدٍ، وَرَأَيْتُ فِيهِ كِتَابًا أَبْيَضَ شِبْهَ لَوْنِ الشَّمْسِ، فَقُلْتُ لَهَا: بِأَبِي وأُمِّي يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا هذَا اللَّوْحُ؟ فَقَالَتْ: هذَا لَوْحٌ أَهْدَاهُ اللَّهُ إِلى رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فِيهِ أَبِي واسْمُ بَعْلِي واسْمُ ابْنَيَّ واسْمُ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ وُلْدِي، وأَعْطَانِيهِ أَبِي لِيُبَشِّرَنِي بِذلِكَ.

(1) سورة المائدة: 12.

قَالَ جَابِرٌ: فَأَعْطَتْنِيهِ أُمُّكَ فَاطِمَةُ عليها السلام، فَقَرَأْتُهُ، واسْتَنْسَخْتُهُ. فَقَالَ أَبِي: فَهَلْ لَكَ يَا جَابِرُ أَنْ تَعْرِضَهُ عَلَيَّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَمَشى مَعَهُ أَبِي إِلى مَنْزِلِ جَابِرٍ، فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ رَقٍّ، فَقَالَ: يَا جَابِرُ، انْظُرْ فِي كِتَابِكَ لِأَقْرَأَ عَلَيْكَ، فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي نُسْخَتِهِ، فَقَرَأَهُ أَبِي، فَمَا خَالَفَ حَرْفٌ حَرْفًا، فَقَالَ جَابِرٌ: فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنِّي هكَذَا رَأَيْتُهُ فِي اللَّوْحِ مَكْتُوبًا..»[1]، ونقل تمام الحديث وفيه أسماء المعصومين عليهم السلام.

في الفقه والتشريع:

عَنْ زُرَارَةَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَضَاءِ الْحَائِضِ الصَّلَاةَ، ثُمَّ تَقْضِي الصِّيَامَ؟.

قَالَ: «لَيْسَ عَلَيْهَا أَنْ تَقْضِيَ الصَّلَاةَ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَقْضِيَ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم كَانَ يَأْمُرُ بِذلِكَ فَاطِمَةَ عليها السلام، وَكَانَتْ تَأْمُرُ بِذلِكَ الْمُؤْمِنَات»[2].

وهذه الرواية مما يستدل به بالإضافة إلى المسألة الفرعية وهي قضاء الحائض الصوم دون الصلاة، يستدل به في النقض على أصحاب منهج القياس وتحكيم العقل في غير مجاله كالأمور العبادية، فإنه لو نظرنا بحسب القياسات العادية لكان يجب أن

(1) الكليني، الكافي (دار الحديث)2/ 682

(2) الكليني، الكافي (دار الحديث) 5/ 285

تقضي الصلاة فإن الصلاة عمود الدين وأكثر أهمية من الصوم في منظومة التشريع لكنها تقضي الصوم (الذي فرض أنه أقل أهمية) ولا تقضي الصلاة (التي فرضت أنها أهم من الصوم).

في الأخلاق والتربية الروحية

نقل الطبراني بسنده عن عبد الله بن مسعود فقال: جاء رجل إلى فاطمة فقال: يا بنت رسول الله هل ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندك شيئًا تطرفينيه؟ فقالت: يا جارية هات تلك الجريدة! فطلبتها فلم تجدها. فقالت: ويحك اطلبيها فإنها تعدل عندي حسنًا وحسيناً! فطلبتها فإذا هي قد قمّتها (أي كنستها) في قمامتها! فإذا فيها قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

- ليس من المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه.
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.
- ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.
- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت.
- إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف ويبغض الفاحش البذي السؤال الملحف.
- إن الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والفحش من البذاء والبذاء في النار[1].

(1) نقله التويسركاني في مسند فاطمة، والطبراني في المعجم الكبير 10/ 196.

وفي هذا الحديث ما يدل على القيمة العالية التي تراها فاطمة الزهراء عليها السلام لأحاديث أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حد أنها (تعدل حسنا وحسينا)! وتشير أيضًا إلى أن الأحاديث الأخلاقية لا ينبغي التعامل معها على أنها أمور مستحبة فقط وإنما هي قبل ذلك منهاج حياة وطريقة عيش يقررها الدين للإنسان. بدءًا من العلاقة الآمنة مع الجار، وإكرام الضيف إلى السلوك الشخصي بحيث يضبط كلامه بضابط (فليقل خيرًا أو ليصمت)!

ويقينًا لو أن كل إنسان التزم بمثل هذه التوصية وضبط بها كلماته ومناقشاته في المجتمع لاستراح المجتمع من كثير من النزاعات والمشاكل الاجتماعية ولتوفر الكثير من وقت الناس فيما هو النافع والمفيد.

وفي مجال التربية الروحية لها أدعية[1] وأحاديث؛ منها ما نقلته عن أبيها رسول الله فقالت: «دخل عليّ أبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنّي قد افترشت الفراش وأردت أن أنام، فقال: يا فاطمة، لا تنامي حتّى تعملي أربعة أشياء: حتّى تختمي القرآن، وتجعلي الأنبياء شفعاءك، وتجعلي المؤمنين راضين عنك، وتعملي حجّة وعمرة، ودخل في الصلاة، فتوقّفت على فراشي حتّى أتمّ الصلاة.

(1) جمعها السيد محمد باقر الموحد الابطحي في كتاب بعنوان الصحيفة الفاطمية الجامعة، كما جمع بعض الأفاضل بعض أدعيتها في كتاب صغير بعنوان صحيفة فاطمة الزهراء عليها السلام.

فقلت: يا رسول الله، أمرتني بأربعة أشياء لا أقدر في هذه الساعة أن أفعلها، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: إذا قرأت قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلاث مرّات فكأنّك قد ختمت القرآن، وإذا صلّيت عليّ وعلى الأنبياء من قبلي فقد صرنا لك شفعاء يوم القيامة، وإذا استغفرت للمؤمنين، فكلّهم راضون عنك، وإذا قلت: (سبحان الله والحمد للَّه ولا إله إلّا الله والله أكبر) فقد حججت واعتمرت»[1].

(1) اليزدي، عباس الإسماعيلي، ينابيع الحكمة 5/ 191 ونقله في مسند الزهراء عن خلاصة الأذكار.

كلمة شكر

للإخوة الفضلاء الذين تعاونوا في كتابة وتدوين أصل هذه المحاضرات جزاهم الله خير الجزاء:

باسم النور، وأحمد العرب، ونزار الناصر، وأحمد الحسين، وياسر العرب، ورضا الرشيد، وعاصم السلطان وأبي محمد العباد، وعبد الأمير أبي علي، وأخيرًا المخرج البارع أبي حيدر.

أسأل الله أن يكرمهم وإيانا بشفاعة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام.

كما أشكر الأخوات الفاضلات اللاتي ساهمن في تدوين القسم المضاف للطبعة الثالثة:

انتصار الرشيد، وزهراء العوى، ونور المجتبى، وندى القروص، وغدير الغزيوي، وفاطمة الخويلدي، وهديل الزبيدي، وأفراح البراهيم، وليلى الشافعي، وسلمى بوخمسين، وطالبة العلم من قم.

المصادر

- القرآن الكريم.

حيث أن أكثر المصادر التي تم اعتمادها هي نسخ الكترونية على مواقع أو تطبيقات، فسيتم الإشارة إلى اسم الكتاب والمؤلف والمطبعة بحسب ما هو موجود في تلك المواقع أو التطبيقات، وفي الغالب فقد تم الاعتماد في مصادر الإمامية على الموقع الالكتروني لمكتبة آل البيت عليهم السلام https://ablibrary.net/#/.

كما تمَّ الاعتماد في كتب مدرسة الخلفاء غالبًا على تطبيق تراث https://app.turath.io/، وهناك نسخ كتب تم تنزيلها في صفحات أو مواقع مخصصة لهذا الغرض على الانترنت، فسيشار إليها.. وسيكتب كاملًا في غير هذه الحالات. ولا يخفى أن قسمًا من معلومات هذه الطبعات قد لا تكون موجودة بالكامل.

- الإربلي؛ علي بن أبي الفتح كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء ـ بيروت 1405 ـ 1985م.

- الإشبيلي؛ عبد الحق بن عبد الرحمن: الجمع بين الصحيحين، الناشر: دار المحقق للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية 1419 هـ ـ 1999م.
- الألباني؛ محمد ناصر الدين: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1415 هـ ـ 1995م.
- الألباني؛ محمد ناصر الدين: ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض 1422 هـ ـ 2002 م.
- الأميني النجفي؛ عبد الحسين أحمد: الغدير، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان 1397 ـ 1977م.
- الأميني؛ محمد هادي: أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والرواة عنه، دار الغدير للمطبوعات.
- الأنصاري ؛ الشيخ مرتضى:كتاب المكاسب، لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، المؤتمر العالمي بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لميلاد الشيخ الأنصاري، 1415.
- البخاري؛ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم: صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، 1401هـ ـ 1981م.

- البروجردي؛ السيد حسين الطباطبائي؛ جامع أحاديث الشيعة، المطبعة العلمية ـ قم 1399هـ.
- الترمذي؛ محمد بن عيسى: الجامع الكبير ـ سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1998م.
- البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي: السنن الصغير، ت عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي ـ باكستان 1410هـ ـ 1989م.
- التميمي: محمد بن حبان بن أحمد: صحيح ابن حبان تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان 1414هـ ـ 1993م.
- ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام: منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1406 هـ ـ 1986 م.
- ابن الجوزي؛ عبد الرحمن بن علي: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ت د مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 1415 هـ ـ 1995 م.

- ابن الجوزي؛ عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ت محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412 هـ 1992 م.
- ابن الجوزي؛ عبد الرحمن بن علي: الموضوعات، ت عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة 1386 هـ 1966 م.
- الحر العاملي؛ الشيخ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار احياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.
- ابن حمدون؛ محمد بن الحسن بن محمد: التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، 1417 هـ.
- الحَمِيدي؛ أبو عبد الله بن أبي نصر:الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، ت د. علي حسين البواب، دار ابن حزم ـ بيروت، 1423هـ ـ 2002م.
- الحميري؛ عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1375هـ ـ 1955 م.

- الخوئيني؛ إسماعيل الأنصاري الزنجاني: الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء عليها السلام، منشورات دليل ما، قم، إيران، 1428 هـ.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: سير أعلام النبلاء، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة 1405 هـ/ 1985.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1382 هـ- 1963م.
- الراجحي؛ عبد العزيز بن عبد الله: شرح الاقتصاد في الاعتقاد، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية..
- الروحاني ؛ السيد محمد صادق: السيدة الزهراء بين الفضائل والظلامات (أجوبة استفتاءات)، امين الله، قم، إيران 1391.
- الزيلعي؛ عبد الله بن يوسف بن محمد: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، ت عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة ـ الرياض، 1414هـ.
- سبط ابن العجمي؛ إبراهيم بن محمد الطرابلسي: الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث، ت صبحي السامرائي، مكتبة النهضة العربية ـ بيروت 1407 ـ 1987.

- آل سيف؛ فوزي: أنا الحسين بن علي، دار المحجة البيضاء، بيروت 2021.
- آل سيف؛ فوزي: من قصة الديانات والرسل، دار المحجة البيضاء، بيروت 2021.
- السيوطي؛ جلال الدين: جمع الجوامع (الجامع الكبير) تحقيق: مختار إبراهيم الهائج ـ عبد الحميد محمد ندا ـ حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة.
- السيوطي؛ جلال الدين: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، مع الكتاب: أحكام محمد ناصر الدين الألباني.
- الصنعاني؛ محمد بن إسماعيل بن صلاح: التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ، ت د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، 1432 هـ 2011 م.
- الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم ـ إيران.
- الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: الخصال، تعليق علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم ـ إيران.

- الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: عيون أخبار الرضا عليه السلام، تعليق الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه: معاني الأخبار، تعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم 1379.
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه: علل الشرائع منشورات المكتبة الحيدرية، النجف.
- الصدوق؛ محمد علي بن بن بابويه: التوحيد، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية قم.
- الطبراني سليمان بن أحمد اللخمي الشامي؛ المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
- الطبرسي؛ أحمد بن علي: الاحتجاج، ت السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر ـ النجف الأشرف، 1386 ـ 1966م.
- الطبري، محمد بن جرير (الإمامي) دلائل الامامة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم ـ إيران.

- الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، دار التراث ـ بيروت 1387.
- الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: المنتخب من ذيل المذيل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- الطحاوي؛ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة: شرح مشكل الآثار، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1415 هـ، 1494م.
- الطوسي، شيخ الطائفة محمد بن الحسن: الأمالي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق مؤسسة البعثة ـ قم 1414.
- العسقلاني، ابن حجر: إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، ت زهير بن ناصر الناصر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1415 هـ ـ 1994 م.
- العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البُخاري، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

- عطاردي؛ الشيخ عزيز الله: مسند الإمام الرضا، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام 1406 هـ.
- القمي؛ الشيخ عباس:الكنى والألقاب، مكتبة الصدر ـ طهران.
- القندوزي؛ الشيخ سليمان بن إبراهيم: ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني دار الأسوة للطباعة والنشر 1416.
- المازندراني؛ محمد بن علي بن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب، المكتبة والمطبعة الحيدرية، النجف 1376.
- المباركفوري؛ صفي الرحمن: الرحيق المختوم، دار العصماء ـ دمشق 1427.
- المتقي الهندي؛ علي بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة 1401هـ/ 1981م.
- المجلسي؛ المولى محمد باقر: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ لبنان 1403 ـ 1983.
- المجلسي؛ المولى محمد باقر: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ت السيد هاشم الرّسولي، دار الكتب الإسلامية طهران، 1404.

- المحجوب؛ ياسين الخليفة الطيب: إجلاء الحقيقة في سيرة عائشة الصِّدِّيقة، مؤسسة الدرر السنية، الظهران ـ السعودية، 1432هـ ـ 2011م.
- المزني؛ إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل: السنن المأثورة للشافعي، ت د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة ـ بيروت، 1406.
- المزي؛ يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، 1400 ـ 1980.
- المسعودي؛ الشيخ محمد فاضل: الأسرار الفاطمية، مؤسسة الزائر في الروضة المقدسة للطباعة والنشر، قم 1420 ـ 2000م.
- المشغري العاملي؛ يوسف بن حاتم الشامي: الدر النظيم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم إيران
- ابن المغازلي؛ علي بن محمد بن محمد: مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تحقيق: تركي بن عبد الله الوادعي، دار الآثار ـ صنعاء 1424 هـ ـ 2003 م
- الموسوي؛ السيد عبد الحسين شرف الدين: أبو هريرة، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم ـ إيران.

- الموسوي؛ علي بن الحسين: نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق د. صبحي الصالح
- الميلاني؛ السيد علي الحسيني: محاضرات في الاعتقادات، مركز الأبحاث العقائدية ـ قم ـ إيران 1421
- النسائي؛ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ت أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلا ـ الكويت، 1406.
- النيسابوري؛ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت 1411.
- الهلالي الكوفي؛ سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهلالي، ت محمد باقر انصاري، نشر الهادي ـ قم.
- الهيثمي؛ نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ، 1994 م.
- أبو يعلى؛ أحمد بن علي بن المثُنى الموصلي: المعجم، ت إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية ـ فيصل آباد، 1407

- اليزدي؛ عباس الإسماعيلي: ينابيع الحكمة، مسجد جمكران ـ قم 1428 هـ.

الفهرس

مقدِّمة الطبعة الثالثة 5

مقدِّمة 7

الزهراء ما قبل الميلاد إلى الاستشهاد 9

الزهراء للإمام عليّ: اشتملت شملة الجنين 51

عدم دفع الإمام الهجوم... ألا يعد جبنًا؟ 64

مناقب الزهراء وتنكر الاتجاه الأموي 73

1/ اختلاف مصادر المرجعية الدينية في المدرسة 75

2/ محدودية البشر في مقاييسهم 76

3/ اختلاط الصحيح من المناقب بالسقيم 77

4/ القياس على الذات 78

الاتجاه الأموي المتنكر لفضائل المعصومين 79

أسانيد خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام 87

حقيقة نسبة الخطبة للزهراء عليها السلام 89

الأولى: هل البرهان العقلي يحتاج إلى سند لإثباته؟ 91

الثانية: استفاضة الخطبة تغني عن تتبع سندها 96
الثالثة: متن الخطبة يصحح سندها 97
الرابعة: هل القضايا التاريخية كالقضايا الفقهية تحتاج لسند متصل لإثباتها؟ 101
ورود الخطبة في الكتب اللغوية والتاريخية 103
الخطبة الفدكية ميزاتها ومواضيعها 106
الخطبة بين الخطاب العقلي والعاطفي 108
المنهج المنطقي لإحداث التغيير في المجتمع 110
جمع الزهراء بين تحليل القضية وتحميل المسؤولية 113
مجمل مواضيع الخطبة 115
بداية خطبة الزهراء عليها السلام بالحمد والثناء 115
تعريف الزهراء عليها السلام لله تعالى وتنزيهه عن الرؤية 117
تعريف الزهراء عليها السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم 119
وصف الزهراء عليها السلام لحالة الأمم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم 120
حديثها عن القرآن الكريم 120
حديث الزهراء عليها السلام عن التشريع وفلسفته 121
إعلموا أني فاطمة 123
حديثها عليها السلام عن جهاد علي عليه السلام بين يدي رسول الله 124
احتجاجها على الخليفة الأول 125

استنهاض المهاجرين والأنصار للنصرة 126
الاقتباس القرآني في خطبة فاطمة الزهراء 128
سلامة القرآن الكريم من التحريف 128
ظواهر القرآن الكريم حجة على الإنسان المسلم 130
بلاغة الزهراء عليها السلام في طريقة الاقتباس من القرآن الكريم 134
ثلاثة عشر اقتباسًا بديعًا للزهراء عليها السلام من القرآن الكريم 136
وتفصيل الجواب 138
التوحيد في خطبة فاطمة الزهراء عليها السلام 149
الابتداء بالحمد ميزة الخطاب الإسلامي 150
التعريف بالله تعالى: أشهد أن لا إله إلا الله 154
استحالة رؤية الله في الدنيا والآخرة 157
النَّبي محمَّد كما تصفه الزهراء في الخطبة الفدكية 162
متى تم الاصطفاء الإلهي لرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ 163
أقسام العالم: عالم الواقع وعالم التقدير 163
عالم الواقع 163
عالم التقدير 164
اصطفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في عالم التقدير 165
الديانات المنتشرة في الجزيرة العربية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم 167
بزوغ فجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الواقع 169

معاناة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغ الرسالة 171
مقاصد التشريع الإسلامي في خطبة الزهراء 174
هل التعبير بالإيمان هو الصحيح أو العقيدة؟ 176
«والحج تشييدًا للدين» 181
«والعدل تنسيقا للقلوب» 181
«وطاعتنا نظامًا للملة وامامتنا امانًا من الفرقة» 182
«والجهاد عزًا للإسلام والصبر معونة على استيجاب الأجر» 183
مجتمع المدينة بعد النبي في الخطبة الفدكية 185
الفئة الأولى: فئة أهل البيت عليهم السلام 186
الفئة الثانية: فئة التيار القرشي 187
الفئة الثالثة: فئة الأنصار 187
موقف النبي وأهل البيت عليهم السلام من الأنصار 190
إيهًا بني قيلة: العتاب الشديد من الزهراء عليها السلام للأنصار 194
فدك: قضية الزهراء التاريخ والدلالات 197
أولًا: فدك جغرافيًا وتاريخيًا 198
ثانيًا: فقه قضية فدك، وكيفية تعامل الخلافة معها 204
ثالثًا وأخيرًا: فدك.. رمز الحق المغصوب 210
نص خطبتي فاطمة الزهراء 213

1) خطبتها في المسجد (المشهورة بالخطبة الفدكية) 213
2) خطابها لنساء المهاجرين والأنصار 229
مصحف فاطمة الزهراء 233
هل مصحف فاطمة قرآن آخر يعتمد عليه الشيعة؟ 233
منشأ وجود مصحف فاطمة عليها السلام 234
إشكال البعض في نزول جبريل عليه السلام على فاطمة عليها السلام 235
النموذج الأول: نزول الملائكة على مريم بنت عمران 236
النموذج الثاني: عبّاد بني اسرائيل 237
مضمون مصحف فاطمة 238
أثر مصحف فاطمة على أهل البيت عليهم السلام؟ 242
عبادة فاطمة الزهراء عليها السلام 243
الصحيفة الفاطمية 245
الزهراء وقيام الليل 249
الزهراء قدوة أبنائها في التهجد 251
عن علم فاطمة الزهراء عليها السلام 253
خُطَب السيدة الزهراء عليها السلام 257
مسند الزهراء عليها السلام 262
باب العقائد 264
حديث الثقلين 264

في الفقه والتشريع 266
في الأخلاق والتربية الروحية 267
كلمة شكر 270
المصادر 271
الفهرس 283